موسوعة

عالم المخابرات

كل شيء عن الجاسوسية والاستخبارات في العالم

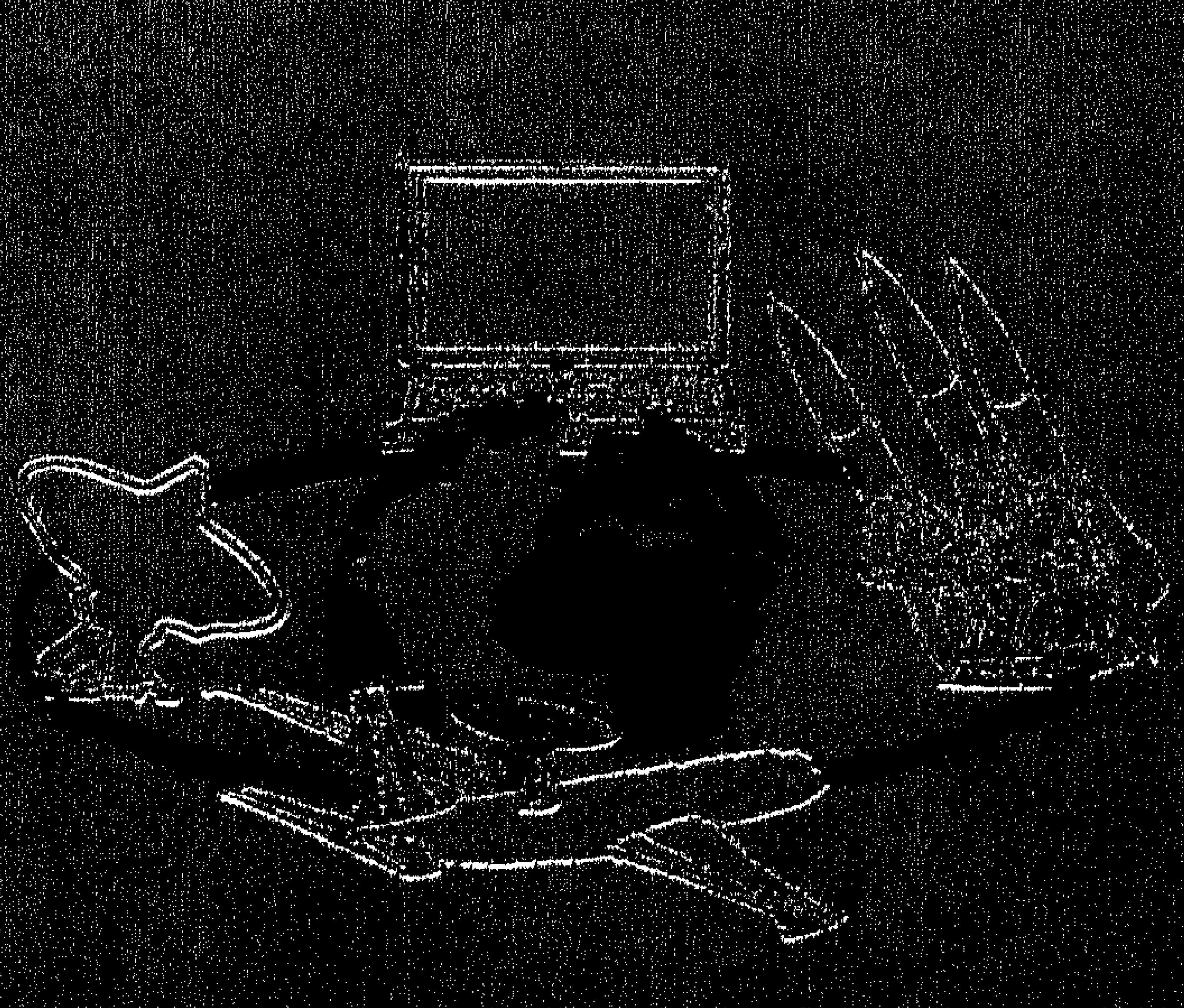

موسوعة عالم المخابرات

كلّ شيء عن الجاسوسيّة والاستخبارات في العالم

أصل الجاسوسيّة وتطوّرها

أسعد مفرّج

ولجنة من الباحثين

موسوعة

عالم المُخابرات

كلُّ شيء عن الجاسوسيّة والاستخبارات في العالم

الجزء الأوّل

أصل الجاسوسيّة وتطوّرها

NOBILIS
MAISON D'EDITION

جميع الحقوق محفوظة للناشر

٢٠٠٥

إسم المَجموعَة : عَالَـــــم المُخابَرات

كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبارات في العالم

إسم الكِتاب : أصلُ الجَاسُوسيَّة وتطوُّرُها

الجزء : الأوَّل

المؤلِّف : أسعَد مفرِّج ولجنَة من الباحثين

قياس الكتَاب : ٢٠ × ٢٨

مكان النَّشر : بيروت

دار النَّشر والتَّوزيع : NOBILIS

تلفاكس : ٥٨١١٢١ _ ١ _ ٩٦١

: ٥٨١١٢١ _ ٣ _ ٩٦١

يُمنع نسخ أو اقتباس أيّ جزء من هذه المجموعة أو خزنه في نظام معلومات إسترجاعيّ أونقله بأيّ شكل أوّ أيّ وسيلة إلكترونيّة أو ميكانيكيّة أو بالنسخ الفوتوغرافي أو التسجيل أو غيرها من الوسائل، دون الحصول على إذن خطّيّ مسبق من الناشر.

مقدّمة

إذا كانت المعرفة تشكّل ضرورة للإنسان كي يواكب عصره كعنصر واع ومؤثّر في دائرة وجوده، فلعلّ معرفة عالم المخابرات تشكّل ضرورة قصوى بامتياز لإنسان العصر، ذلك أنّه ممّا قيل في الجاسوسيّة، عن حقّ، أنّها تقرّر مصائر الشعوب.

إنّ المتداوَل من موادّ إخباريّة في وسائل الإعلام والنشرات التي بمتناول الناس، يبقى، إلى حدّ بعيد، بمثابة القشور لبواطن الأمور التي يجري تقريرها خلف الأبواب المغلقة، في عالم مستتر بعوازل من تسمياتها "الأمن القوميّ" وما شابه. وتبقى تلك القرارات ووسائل تنفيذها من أسرار الدول التي لا يُفشى بعضها إلاّ بعد مرور زمن محدّد، وبعضها الآخر قد لا يُفشى أبدًا للعموم، وتبقى معرفته حكرًا على قلّة من أصحاب الصلة المباشرة به.

علمًا بأنّ الجاسوسيّة لم تعد تقتصر اليوم على عالمي السياسة والدبلوماسيّة والأمن فقط، بل باتت تشمل عوالم العلوم والإقتصاد والصناعة وسائر شؤون الحياة.

في هذه الموسوعة، موسوعة عالم المخابرات، يحاول قسم البحوث والدراسات في دار نوبليس إماطة اللثام عن الكثير من تلك الأسرار التي تعني مباشرة مصير كلّ إنسان، والتي ليس بمقدور من لا يطّلع عليها أن يواكب، على دروب الحياة، بأيّ شكل من الأشكال، أولئك الذين تسنّت لهم معرفتها.

الفصل الأوَّل

في التسميَات والتَعريف

في التّسميَات

الإستخبارات والمخابرات والاستقصاء والجاسوسيّة والمكتب الثاني والشعبة الثانية والأمن القومي ... كلّها أسماء تتشابه في المضمون للدلالة على نشاط يتشابه في الجوهر:

العمل سرًّا في حقل معيّن للاطلاع على أسرار هذا الحقل، ونقل المعلومات المكتشفة بوسائل مختلفة إلى الجهة المكلّفة. وقد يكون هذا الحقل من قبيل العلوم أو التجارة أو الصناعة أو الفنون أو حتّى الشؤون الدينيّة، وبخاصّة من قبيل الشؤون العسكريّة والسياسيّة والأمنيّة، وكلّ ما يتّصل بالحكومات والجيوش والإدارات الرسميّة وشبه الرسميّة في كافّة أنحاء العالم.

وبتحليل معاني التسميات، يتّضح لنا أنّ كلمة استخبارات وكلمة مخابرات متّصلتان من جذر "خبر" ذات المعاني العديدة، المصدر فيها الخُبْر أي العلم بالشيء. ومن هذا المصدر: خَبُر وخبَر خُبرًا وخِبرًا وخُبرَةً وخِبرةً ومَخْبُرةً ومَخبَرةً الشيء وبه: علمَه بحقيقته وكنهه؛ وخبّره وأخبَرَه الشيءَ وبالشيء: أعلمه إيّاه وأنبأه به. أمّا فعل خابَرَ، فيستعمله البعض بمعنى كالمه وباحثه ومنها المخابرة بواسطة الهاتف وسواه. أمّا كلمة تخبَّر الأمر، فتعني علمه بحقيقته، وتخبّره تعني سأله الخبر. واختبر الشيء معناها أيضًا علمه بحقيقته. واستخبره تعني ما تعنيه كلمة تخبّره. أمّا الخَبرُ والخبِر من الرجال، فهو العالم بالخبر. والخبَر وجمعها أخبار وأخابير، فمعناها ما يُنقل وما يُتحدّث

به، كما هو معلوم. والأخباريّ، هو من يدوّن الأخبار ويسردها فهو أشبه بمراسل الصحف وأجهزة الإعلام اليوم. أمّا المخبر، فبلغة اليوم هو المكلّف بأعمال إستخباراتيّة.

أمّا الجاسوسيّة فمصدرها الجَسَس، وإدغامًا الجسّ، ومعناها البحث عن الأخبار والأمور وتفحّصها. والجاسوس، وجمعها جواسيس، هو الذي يتجسّس الأخبار والمعلومات ثمّ يأتي بها. والجاسوسيّة هي مهنة الجاسوس، كما تعني في الوقت نفسه "منظّمة تؤلّفها الدول في بلادها لتتجسّس لها الأخبار وتستطلعها وتأتيها بها". وفي المقابل، هناك منظّمات "ضدّ الجاسوسيّة" التي تُجعل لمعاكسة أعمال الجاسوسيّة.

اعتبر باحثون[1] أنّ التجسّس مهنة قديمة قدَم وجود الجنس البشريّ، وتعتمد على ذكاء الأفراد القائمين بها.

ويفسّر "القرطبيّ" التجسّس بأنّه هو "البحث عمّا يُكتَم عنك"، والجاسوس يُسمّى "عينًا" لأنّ عمله "بعينيه"، أو لشدّة اهتمامه بالرؤية واستغراقه فيها، وكأنّ جميع أعضاء جسده صارت "عينًا".

وورد في دائرة المعارف الإسلاميّة أنّ كلمة "الجاسوس" تدلّ على المعنى المعروف، وهي تَرِد متلازمة مع كلمة "عين" كـ"عين الرقيب"، ومن ثمّ فإنّه لا يمكن في جميع الأحوال أن نميّز بين الكلمتين... ولا يكاد المرء يستطيع أن يناقش إحداهما دون الرجوع إلى الأخرى، على أنّ الظاهر هو أنّ كلمة "جاسوس" تُستعمل بصفة أخصّ للدلالة على الـ"عين" الذي يُرسل بين صفوف العدوّ. وقد عُرّفت الجاسوسيّة بأنّها "مهنة الجاسوس".

---

[1] - صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣) ص٥٤.

وتتحدّث القوانين العسكريّة عن "التجسّس" بمعناه الحديث، حيث أصبحت التسمية تعني نوعًا من أعمال العمل الاستخباريّ، وهدفه البحث والحصول على المعلومات المختلفة في دولة ما، ونقلها "بطرق سريّة" من مكانها إلى مكان آخر بواسطة عملاء دولة أخرى، وهو أحد الأنواع المختلفة من النشاطات المتعلّقة بالأمن الوطنيّ والقوميّ والسياسة الخارجيّة التي تمارسها الدولة، وتنبع أهميّتها من أنّ القرارات تُتّخذ بناء على توافر معلومات معيّنة.

في اللغتين الفرنسيّة والإنكليزيّة، أصل التسمية Espionnage من فعل Espionner الفرنسي و To spy الإنكليزي اللذين يعنيان: مراقبة الآخر بسريّة في أفعاله وأقواله لنقل تقرير حولها أو لغاية شخصيّة. أمّا التسمية الحديثة فأصبحت تقرن بالذكاء، وأصبحت منظّمات التجسّس تحمل أسماء Intelligence وأصبح اسم الجاسوس بالانكليزيّة Intelligencer عوضًا عن Spy. أمّا في اللغة الفرنسيّة فقد أعطي مفهوم الأمن كبديل لكلمة تجسّس، وأصبحت أجهزة الاستخبارات تحمل وصف Sécurité، فيقال: Direction Générale de Sécurité du Territoire واختصارًا .D.S.T أي المديريّة العامّة للأمن الداخلي، ويقال أيضًا: Direction Générale de Sécurité Exterieure, واختصارًا: .D.G.S.E أي المديريّة العامّة للأمن الخارجي.

أمّا تسمية الشعبة الثانية، وهي شعبة الاستعلام والاستخبار العسكري في الجيوش، فقد جاءت مباشرة بعد الشعبة الأولى التي تختصّ بالإدارة والأفراد، وقبل الشعبة الثالثة التي تختصّ بالتدريب والعمليّات، والرابعة المختصّة باللوجستيّة والتجهيز، والخامسة التي تعنى بالإعلام والتوجيه والعلاقات العامّة. ثمّ أطلق مجازًا على الشعبة الثانية إسم المكتب الثاني.

وقد مرّت تسميات دوائر الاستخبارات والجاسوسيّة في العالم بأطوار مختلفة، نورد أمثلة عنها في ما يلي[1].

ففي الاتّحاد السوفياتي السابق أنشئ في كانون الأوّل ١٩١٧ جهاز مخابرات باسم "المجلس الروسي الاستثنائي من أجل المعركة ضدّ الثورة المضادّة والتخريب Tcheka"، وفي شباط ١٩٢٢ أنشئت "الهيئة الشعبيّة للعمل الداخلي .N.K.V.D" التي سرعان ما ألحقت بها الـ"tcheka" وألحق الجهازان في ما بعد بـ"اللجنة الشعبيّة لأمن الدولة .N.K.G.B" سنة ١٩٤١ قبل إنشاء "الوزارة السوفياتيّة لأمن الدولة .M.G.B" سنة ١٩٤٦. وكانت قد أنشئت في تموز ١٩٢٣ "مديريّة أمن الدولة الموحّدة السياسيّة .O.G.P.U" ودمجت بالـ".N.K.V.D" باسم ".G.U.G.B" في تموز ١٩٣٤، كذلك دمجت بنفس الجهاز الـ".N.K.V.D". وفي سنة ١٩٤٧ أنشئت في الاتحاد السوفياتي "مديريّة التجسّس الخارجي" التي حوّلت سنة ١٩٥١ إلى "لجنة الإستعلام .K.I" وضمّت الـ".M.G.B" والـ".G.P.U". وفي آذار ١٩٥٣ دُمجت الـ".K.I" مع "وزارة الشؤون الداخليّة السوفياتيّة .M.V.D". وفي آذار ١٩٥٤ أنشئت "لجنة أمن الدولة" الشهيرة باسم ".K.G.B". وفي الـ".K.G.B" أقسام ملحقة بها مثل "مركز الجاسوسيّة المضادّة والأمن .Ligne K.R"، و"مركز الاستخبارات السياسيّة .Ligne P.R"، و"مديريّة المخابرات العلميّة والتكنولوجيا .Ligne X"، و"الدعم العملاني والتقني .O.T"، و"الموت للجواسيس Smersh"، و"تنسيق المعطيات العملانيّة والتأسيسيّة .S.O.U.D"... كلّ ذلك بإدارة "المديريّة العامّة الشيوعيّة للـ .K.G.B" واختصار تسميتها ".P.D.G".

---

١ - Andrew Christopher & Gordievsky Oleg, *Le KGB dans le Monde 1917 - 1990,* الترجمة العربيّة، دار الحقيقة (بيروت،١٩٩١) ص٧٣٥ ـ ٧٤٢.

وفي إسبانيا دعي جهاز المخابرات "دائرة أمن إسبانيا الجمهوريّة .S.I.M"

وفي أفغانستان كان اسم جهاز المخابرات "دائرة الأمن الأفغانيّة .K.H.A.D".

وفي ألمانيا كان اسمها "دائرة الأمن .S.S.D"، و"دائرة استخبارات رئاسة الأركان الألمانيّة Abeweher". وفي ألمانيا الغربيّة بعد تقسيم الدولة أنشئت "دائرة الجاسوسيّة شبه الرسميّة .Gehlen Org" قبل إنشاء "دائرة الأمن المضادّة للجاسوسيّة .B.F.V"، و"دائرة التجسّس الألمانيّة .B.N.D". وأنشئت في ألمانيا الشرقيّة "دائرة الأمن .S.S.D".

وفي أنغولا "مديريّة الأمن الأنغوليّة .D.I.S.A".

وفي بريطانيا "قيادة الاتّصالات الحكوميّة .G.C. & C.S"، و"دائرة المخابرات السريّة .S.I.S"، ثمّ "دائرة الأمن البريطانيّة M.I. 5"، و"جهاز المخابرات البريطانيّة M.I. 6" التابع لوزارة الخارجيّة، و"العمليّات الخاصّة التنفيذيّة .S.O.E".

وفي بلغاريا "مديريّة الأمن البلغاريّة D.S".

وفي بولونيا في خلال الحرب العالميّة الثانية "الجيش الداخلي البولوني Arma Krajova" واختصارًا .A.K . ثمّ أنشئت "دائرة الأمن البولونيّة .U.B على يد الـ .S.B".

وفي تشيكوسلوفاكيا "دائرة الأمن التشيكوسلافاكيّة .S.T.B".

وفي رومانيا "مديريّة الأمن الرومانيّة .Dispora" و"دائرة التجسّس الرومانيّة .D.I.E".

وفي فرنسا أنشئت دائرة استخبارات تحت إسم "دائرة التوثيق الخارجي والمضادّة للجاسوسيّة . S.D.E.C.E.K "، خلفتها "المديريّة العامّة للأمن الخارجي D.G.S.E"، وقسم تجسّس مضاد تحت إسم "قسم المراقبة الإقليميّة .D.S.T".

وفي الموزمبيق "دائرة أمن الموزمبيق .S.N.A,S.P"٠

وفي هنغاريا "دائرة الأمن الهنغاريّة .A.V.O" قبل إنشاء الـ".A.V.H"٠

وفي الولايات المتحدة "دائرة الأمن العسكريّة A.S.A" ثمّ "وكالة أمن القوّات المسلّحة .A.F.S.A" ، و"مكتب الخدمات الاستراتيجيّة .O.S.S" قبل إنشاء "وكالة الأمن القوميّ .N.S.A"، و"وكالة المخابرات المركزيّة .C.I.A"، و"مكتب المباحث الفدرالي "F.B.I.

وفي يوغوسلافيا "دائرة الأمن اليوغوسلافيّة .O.Z.N.A" قبل إنشائها باسم ".U.D.B.A"٠

وكثيرًا ما يطلق على رجال المخابرات والجاسوسيّة الذين يعملون في الخفاء أسماء تشنيعيّة كالأشباح مثلاً، أمّا تسمية عميل فقد غدت غير مرغوب في استعمالها من قبل أهل المخابرات وإن كانت في الأساس ترجمة لكلمة Agent الفرنسيّة والانكليزيّة، وترجمتها الحرفيّة "وكيل" و"معتمد" و"مأمور السلطة" إضافة إلى "مخبر سرّي" أي جاسوس. ولا تزال كلمة "الجاسوس" إلى اليوم كلمة غير مستحبّة، رغمّ أنّ الدول قد جعلت مؤسّسات التجسّس الوطنيّة المتعدّدة في مرتبة لائقة.

ويُلاحظ أنّ كلمة "عميل سرّي" لا تعني جاسوسًا بالمعنى الشامل. فالعميل السرّي هو من يعمل لحساب دولة بناء على طلب هذه الدولة. وسواء كان موظّفًا أو متطوّعًا، فإنّه في نظر الدولة التي تستعمله "عميل"، حتّى ولو خان بلده من أجلها. الوحيدون الذين يفرّقون بين عميل وعميل هم الإنكليز. فتقاليدهم التي تفرّق دائمًا بين ما هو إنكليزيّ وغير إنكليزيّ دفعتهم إلى تسمية العميل الغريب "مخبرًا". وحده البريطانيّ بنظرهم، يستحقّ لقب عميل.

في التَّعريف بأصل الجاسوسيَّة

التجسّس أسطورة في نظر الكثيرين، أو هو موضوع تندّر وتسلية للبعض الآخر، وسرّ غامض يجتذب فضول البعض الآخر... وهو في أكثر الحالات كلمة سحريّة تحمل أكثر من الرومنطيقيّة واللامعقول. وربّما عاد السبب في ذلك إلى روايات التجسّس التي تمجّد وتجمّل، وتبالغ وتقلّل، من أهميّة هذا الموضوع. على أنّ أخطر أسلحة التجسّس هو انتفاء فكرة وجوده الواقعيّ من ذهن الناس...

عرف الإنسان، منذ وقت سحيق وممعن في القدم، أنشطة المخابرات والجاسوسيّة، وخاصّة جمع المعلومات وتحليلها. ولقد نهضت الشعوب والأمم وقامت وتقوّضت دعائمها اعتمادًا على مدى إتقانها لفنون الحصول على المعلومات التي تحتاج إليها في بقائها وحياتها، ومدى حسن استخدامها لها.

ليس هنالك أيّ شيء جديد بشأن العمل الخفيّ. ويمكن تتبّع واقتفاء آثاره في الزمن الغابر، بدءًا من الفكر العسكريّ والسياسيّ للجنرال الصينيّ "صن تسو" في سنة ٥٠٠ ق.م. مرورًا بالفكر الميكيافيلّي الذي توصّل، في القرن السادس عشر، إلى نتيجة مؤدّاها أنّ ثمّة أسلوبَين للتغلّب على العدو هما: القوّة والخداع.

أصلاً، وجدت الجاسوسيّة في العالم من أجل تمكين جهة من الجهات من الاطّلاع سرًّا على أحوال جهة أو جهات أخرى وأسرارها واستكشاف ما يمكن استكشافه سرًّا من شؤون معيّنة لدى تلك الجهات. ويمكن أن تكون الجهة موضوع التجسّس عدوًّا أو صديقًا أو حليفًا أو على أيّ مستوى آخر من مستويات العلاقات الاجتماعيّة بين

الجماعات والشعوب والمؤسّسات السياسيّة أو العسكريّة أو التجاريّة والاقتصاديّة، أو حتّى العلاقات الشخصيّة بين شخص وآخر، بما في ذلك العلاقات الحميمة منها. إلاّ أنّ أبرز أعمال الجاسوسيّة تبقى تلك المتعلّقة بالشؤون العسكريّة والحربيّة، لذلك تطوّرت تسمية أجهزة الأعمال الجاسوسيّة مع الأيّام إلى تسميات يتلازم معها نعت الأمن. ففي البدء كان التجسّس العسكريّ هو الأهم، وكاد أن يكون محصورًا في الغالب بحقبات الحروب، أمّا تنوّع أعمال المخابرات فقد تطوّر مع تطوّر الحضارات والمجالات وصراعها.

وبالإمكان اختصار كلّ هذه الأنواع من الاستخبار والاستعلام بكلمة واحدة هي: الجاسوسيّة.

غير أنّ أعمال الجاسوسيّة قد تطوّرات في حقبات مبكّرة من التاريخ إلى ما يتخطّى الاستعلام والاستخبار، فأصبحت تطال عمليّات يكلّف الجواسيس القيام بها داخل نطاق الجهة المتجسّس عليها. من تلك الأعمال ما هو تخريبيّ علانيّ كما هي الحال في قصّة حصان طروادة التي سنروي حكايتها على سبيل المثال، ومنها ما هو نقل وثيقة أو غرض معيّن خلسة من نطاق الآخر إلى حيّز الفريق الذي يعمل الجاسوس لصالحه، ومنها أيضًا ما هو من نوع بثّ الشائعات في صفوف الفريق الآخر لمصلحة الفريق المتجسّس...

هذه الأعمال قد عرفتها الجاسوسيّة منذ القديم، قبل أن تتطوّر كثيرًا إلى أعمال متعدّدة المهمّات كما باتت عليه في العصر الحاضر، والتي سيكون لنا عودة إلى دنياها في حديثنا عن الجاسوسيّة الحديثة والمعاصرة. على أنّه مهما تطوّر العلم وتقدّمت التقنيّات، يبقى الإنسان الفرد هو الممارس الأساسيّ لفنون اللعبة.

وفي مطلق الأحوال والعهود والمهام، يفترض بالجاسوس الذي يكلّف القيام بأيّ نوع من تلك الأنشطة أن يتحلّى بمواهب عديدة ليس أقلّها الذكاء، والالتزام، وسرعة الخاطر، وإتقان فنون التمثيل، والمعرفة، والقوّة البدنيّة في أحيان كثيرة، والدراية، والشجاعة، والكتمان، والصلابة، والهدوء، وأن يكون حسن السيرة بحيث لا يثير الشبهات حوله، ومتحرّرًا من القيود العائليّة والاجتماعيّة، وغير ذلك من الصفات والمواصفات التي لا يمكن للإنسان أن يمتهن الجاسوسيّة من دون أن يكون متمتّعًا بها.

النظرةُ الإجتماعيَّة

إلى الجَواسيس والمُخبرين

في الواقع، يُظلم الجواسيس بتعميم الوصف الشنيع عليهم. فصحيح أنّ "التجسّس ليس لعبة القساوسة" كما قال ألين دالاس ذات يوم، وهو مدير سابق لوكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة[1]، وصحيح أنّ هناك جواسيس باعوا أنفسهم ووطنيّتهم وانتماءهم... مقابل حفنة من المال، فأضحوا يعملون ضدّ أوطانهم وأبناء جلدتهم لصالح الأعداء أحيانًا، إلاّ أنّ هنالك آخرون منهم تدفعهم وطنيّتهم والتزامهم بانتمائهم لخوض المخاطر واقتحام غمار الأخطار في سبيل الكشف عن أسرار العدوّ، هؤلاء أيضًا جواسيس، لذلك لا يصحّ تعميم الإساءة إلى كلّ من يعمل في نطاق الجاسوسيّة وتحويل معنى الكلمة إلى شتيمة. غير أنّ العقلانيّة تغيب غالبًا عن معاني المفردات، فيصبح معنى السوء ملازمًا لكلمة أو تسمية أطلقت في الأساس على مضمون ليس فيه أيّ سوء.

وبالرغم من أنّه ليس بمقدور كلّ إنسان أن يكون جاسوسًا، إذ إنّه من المفترض أن يكون المكلّفون بمهامّ الجاسوسيّة الخطيرة أن يتمتّعوا بمزايا خاصّة كالجرأة والشجاعة

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ، ترجمة مصطفى الرز، مكتبة مدبولي (القاهرة،١٩٩٩) ص٩.

والصبر على المكاره والذكاء والحكم الصحيح، إضافة إلى البراعة في الوصول إلى المعلومات من مصادرها الحقيقيّة، والابتعاد عن السكر والمخدّرات وما شابه...، يقول باحثون أنّ الجواسيس، من وقت إلى آخر، يتعرّضون للشتائم والتكريم، والاحترام والتجاهل، والمدح والذم. وهذه مسألة تتصل بوجهة النظر الفرديّة إلى حدّ كبير. وممّا له دلالته في هذا المجال هو أنّ ناثان هيل، الجاسوس الأميركي خلال الحرب الثوريّة، يلقى تكريمًا من أهل بلده بسبب عبارته الشهيرة: "يؤسفني أنّني لا أملك غير حياة واحدة أقدّمها إلى بلدي"، فيقام له احتفال سنويّ بمناسبة إعدامه على أيدي البريطانيّين، ولكنّ وجهة نظر البريطانيّين في أمر ناثان هيل مختلفة تمامًا، وهي ناشئة بالضرورة عن تفكيرهم في عدد الجنود البريطانيّين الذين ماتوا نتيجة المعلومات الاستخباراتيّة التي قدّمها إلى الجنرال جورج واشنطن. وبالمثل، فإنّ الجاسوس السوفياتي العظيم ريتشارد سورغ، جرى تكريمه من خلال إصدار طابع بريد تذكاريّ في موسكو بعد حوالى ٢٥ عامًا من إعدامه على أيدي اليابانيّين. ولكنّ الألمان لم يقدموا على مثل هذا التكريم أبدًا، ذلك أنّ الآلاف من رجالهم الشباب ماتوا في الثلوج حول موسكو في شتاء ١٩٤١ على أيدي القوّات السيبيريّة التي انتقلت غربًا للقيام بمذبحة الألمان، ذلك الانتشار للقوّات السيبيريّة ما كان يمكن أن يحدث لو لم يكتشف سورغ أنّ اليابانيّين قرّروا عدم القيام بهجوم على الاتّحاد السوفياتيّ[1].

أمّا وقد أصبحت أجهزة المخابرات والجاسوسيّة معتبرةً بمثابة العمود الفقريّ لأيّ نظام دولة ولأمنها على كافّة الصعد، فباتت الدول تبذل غاليًا ثمن الوصول إلى حيازة مؤسّسات مخابراتيّة تجسّسيّة على المستوى المطلوب، لتخريج رجال ونساء أكفاء

١ ـ فولكمان، الجواسيس، ص٩.

جديرين بصفة "العميل" أو "الجاسوس"، وبالقيام بمهامهم الخطيرة بالتزام وأمانة تجاه دولتهم. ومنهم من يمضي سنوات طويلة في مدارس ومعاهد ومؤسّسات قبل انخراطه في السلك وتسلّمه مهامّه، ومع هذا، فإنّ بعض الآباء ما زالوا لا يرغبون في أن يكون أبناؤهم جواسيس. غير أنّ هذا لا يمنع من أن يكون كثيرون من خرّيجي مدارس الجاسوسيّة ومؤسّساتها قد تدرّجوا في المناصب الرسميّة حتّى بلغوا أرفعها على الإطلاق.

ومن الملاحظ في العصر الحديث أنّ العاملين في الحقل المخابراتيّ عمومًا قد أصبحوا يتمتّعون بمكانة لائقة في مراتب المستويات الاجتماعيّة. غير أنّه إجمالاً، "نادرًا ما يلقى الرجال والنساء الذين يعملون في العالم السرّي للجاسوسيّة التقدير الذي يستحقّونه"، كما يقول بعض الباحثين في شؤون الجاسوسيّة في العالم[١].

غير أنّ التعريف الكلاسيكي بالعميل، كما يعلّمه مدرّبه، فهو تعريف خال تمامًا من الاعتبارات الإنسانيّة. وفي بعض الأجهزة الاستخباراتيّة يجري تلقين رؤساء العملاء ما يلي:

"يجب أن تمضي معه الساعات وربّما الأيّام، وأن تعلّمه كلّ ما يحتاج إلى معرفته، وتراجع معه تمارينه وتساعده وتبني معه علاقة اجتماعيّة، وتتفرّج على صور عائلته وتعرف أسماء أولاده وأعمارهم. لكنّ العميل ليس إنسانًا ويجب ألاّ تفكّر به هكذا. إنّ العميل مجرّد سلاح، ووسيلة لتحقيق غاية مثل بندقيّة الكلاشنيكوف... هذا كلّ ما في

---

١ - رافيف دان، وميلمان يوسي، كلّ جاسوس أمير، تعريب ممدوح لطفي، دار الكتاب العربي (دمشق،١٩٩١) ص٩.

الأمر. إذا كان عليك أن ترسله إلى المشنقة فلا تفكّر بالأمر. إنّ العميل دائمًا رمز وليس شخصًا"[1].

وعلى العموم، يُنظَر إلى عملاء أجهزة المخابرات المزروعين في الخارج، من قبل الدولة التي أرسلتهم، على أنّهم يقومون بدور وطنيّ مقدّس... بينما يُنظَر إليهم على أنّهم خونة بالنسبة لقوانين الدولة التي يعملون فيها... وعند اكتشافهم يقدّمون للمحاكمة وغالبًا ما تصدر الأحكام بإعدامهم.

وكانت حملة رامية إلى تكريم الجواسيس السوفيات وتعظيمهم قد بدأت جديًّا بعد تنحية خروتشوف عن الحكم بثلاثة أسابيع، وذلك عندما مُنح وسام بطل الاتّحاد السوفياتيّ، بعد الوفاة، في ٥ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٦٤ إلى "ريتشارد سورج"، الجاسوس الشهير للسوفيات في اليابان خلال الحرب العالميّة الثانية.

وحوالى الحقبة نفسها، نشرت صحيفة "كومسومولسكايا برافدا" الناطقة بلسان الشبيبة الشيوعيّة سلسلة من إحدى عشرة حلقة عن مقاومة التجسّس وعن جدارات بعض الشبّان والشابّات السوفيات في المحافظة على سلامة الوطن.

والدعاية للجواسيس العاملين في خدمة الاتّحاد السوفياتيّ انتقلت إلى صناعة الأفلام كذلك. فالفيلم السوفياتيّ الناجح في تلك الأيّام كان "مجرم الدولة" حيث كانت البطولة في القصّة لشاب جميل مقدام ينتمي إلى الاستخبارات السوفياتيّة، فيما كان فيلم آخر برمّته يمجّد قصّة ريتشارد سورج.

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، إغتيالات وأكاذيب وارتزاق، ترجمة د. محمّد معتوق، دار بيسان (بيروت،٢٠٠٠) ص٢٩١.

ثمّ جاء فيلم ثالث لفت الأنظار آنذاك وهو "سرّ الرئيس"، والعبرة التي تركها الفيلم في أذهان السوفيات الذين شاهدوه هي أنّ القوّات السوفياتيّة المسلّحة أصيبت بالانكسارات منذ ١٩٤١ وحتّى ١٩٤٣، لأنّ ستالين تجاهل المعلومات الاستخباراتيّة القيّمة التي كان عملاء الاستخبارات السوفياتيّة يحصلون عليها وسط الأخطار المحدقة بحياة كلّ منهم.

وفق ذلك انطلقت موجة عارمة في الاتّحاد السوفياتيّ من الكتب والقصص الجاسوسيّة منذ العام ١٩٦٥ إلى حدّ أنّ الكاريكاتور في بعض المجلاّت كان عن التجسّس ومكافحة التجسّس[١].

ويقول باحثون إنّه في اللغات الأجنبيّة تسميات متشابهة لفظًا ومعنى لكلمة جاسوس. فهي بالفرنسيّة "Espion"، وبالانكليزيّة "Sppy"، وبالإيطاليّة "seponi"، وبالاسبانيّة "Espion"، وبالروسيّة "Shpion"، وبالألمانيّة "Spion"... أمّا معنى الكلمة، فتتّفق جميع الدول على قول أنّه إسم لشخص يراقب ويكشف أخبار فريق أو شخص، لحساب فريق آخر. على أنّ التعمّق في تفاصيل المعنى يبرز فروقات أساسيّة. فالجاسوس في المفهوم السوفياتيّ، مثلاً، هو من يقوم بعمل ضدّ الدولة، ويُعتبر عمله هذا جريمة كبرى، جزاؤها بالغ القسوة. أمّا الذي يجمع المعلومات من دولة خارجيّة ليرسلها إلى السوفيات، فهو ليس بجاسوس على الإطلاق، وإنّما هو "بطل قوميّ".

ويوجد مثل هذا التحيّز في جميع الدول بلا استثناء. ومطالعة عدد كبير من المؤلّفات والمنشورات الأميركيّة حول موضوع التجسّس تثير الضحك الساخر... فالأميركيّون يصفون الجواسيس السوفيات بأنّهم "بلا أخلاق ولا مبادئ"، وقد يكون

---

١ - وود جان، جواسيس للبيع، ترجمة لطيف الناصر، دار الحسام (بيروت،١٩٩٠) ص٤٣.

الأميركيّون علــى حـقّ، وخصوصـًا أنّ مقـاييس جميـع الأجهـزة السـريّة لا مكـان فيهـا للأخلاق ومبادئ الفروسيّة... لكنّ ما يضحك، هو كون المخابرات المركزيّة الأميركيـة CIA هي الأخــرى لا تقصّـر عـن أيّ مخـابرات أخـرى علـى صـعيد إغفـال "الأخـلاق والمبادئ".

المُخَابَرات: عُنصرٌ وقائيّ

لقد لعبت الاستخبارات دورًا أساسيًا في تأثيرها على السلم كما على الحرب، كما تركت بصماتها واضحة على مجمل الأحداث والتطوّرات الدوليّة في كلّ حقب التاريخ المدوّن، وفي معظم أنحاء العالم. والواقع أنّ الاستخبارات ليست سوى عنصر مساعد في حالات السلم كما في حالات الحرب. ذلك أنّ المعارك على الطبيعة هي التي تقرّر مصير المحاربين، والحقيقة التي أقرّ بها قادة كبار من مختلف الأطراف المتحاربة، هي أنّ الاستخبارات أنقذت حياة الكثيرين من طرفَي النزاع في أيّ حرب كانت، وذلك عن طريق اختصارها للحرب، وضمن ذلك، عن طريق إجهاض العديد من المعارك قبل وقوعها. هنا يكمن الفضل للمخابرات، هذا الفضل الذي لا يسع العالم إلاّ أن يعترف به لأجهزة المخابرات الحقيقيّة[1].

١ ـ كان دايفيد، حرب الاستخبارات، ترجمة عبد اللطيف أفيوني، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، ط٢ (بيروت،١٩٨٢) ص١٠٤.

الفصلُ الثَّاني

الجاسُوسيَّة قديمًا

أقدمُ الجَواسيس

لعلّ أقدم جاسوس في التاريخ المدوّن، هو غراب نوح، ولكنّه كان جاسوسًا فاشلاً، إذ لم يكمل مهمّته، بل راح ولم يعد، حتّى غدًا مضربًا لمثل من يُرسل في مهمّة فيذهب ويغيب معه أثره. أمّا أقدم جاسوس ناجح، كما تخبرنا المدوّنات، فكان أنثى: حمامة نوح. أمّا الرّمز الذي استعملته في نقلها الخبر السعيد فكان: غصن زيتون.

هذا إذا تجاوزنا الشيطان الرجيم الذي أرسل الحيّة جاسوسًا مخرّبًا إلى آدم وحوّاء.

أمّا تجسّس البشر على بعضهم البعض، فلعلّه كان مع بدايات الحياة البشريّة على الأرض، إذ كان الإنسان الأوّل يتربّص متخفّيًا بين المغاور والكهوف والأدغال مراقبًا تحرّكات بني جنسه أو طرائده لاصطيادها. ويذهب بعضهم إلى أنّ التجسّس غريزة في كلّ أنواع الحيوانات الذكيّة، تستعمل من خلالها الرموز والإشارات، كما تفعل الكلاب عندما تترك أثرها بائلة في بعض نقاط، وكذلك الأسود والنمور والذئاب... أو كما تفعل القردة الصيّاحة من على أعلى البواسق في الغابات لتنبئ بني جنسها عبر الرموز الصوتيّة رسالة ما، أو كما تفعل الطيور التي قد تصدح أحيانًا رموزًا لا نفهمها. وتستعمل الحيوانات في عمليّات تجسّسها حواسّها البالغة الرهافة، كحاسّة الشمّ وحاسّة السمع الفائقتي القدرة عند بعضها، والتي يقول علماء الزلازل أنّها تمكّنها من التنبّؤ بحدوث الزلازل قبل دقائق من وصولها إلى سطح الأرض، ذلك بفضل قدرتها السمعيّة التي تسبر أغوار بطن الأرض فتسمع الارتجاجات المقبلة إلى سطحها وهي لا

تزال بعيدة. أو كحاسّة النظر البعيد المدى عند بعضها الآخر، كما هي حال النسر الذي يستغني عن الناضور ليتمكّن من تحديد مكان طريدته مهما صغر حجمها وهو في أعالي السماء، فيحدّد مكانها بدقّة وينقضّ عليها بمخالبه.

أمّا على الصعيد البشريّ، فقد جاء في بعض الأبحاث أنّ التجسّس فنّ قديم، لا يمكن لباحث أن يتكهّن بتاريخ ظهوره وبدايته على وجه الدقّة. فقد وجد منذ خلق الإنسان على وجه الأرض، حيث بدأ الصراع للاستحواذ والهيمنة وفرض قانون القوّة باستخدام شتّى الأساليب المتاحة، وأهمّها الجاسوس الذي يرى ويسمع وينقل ويصف. فقد كان هو الأداة الأولى للنزاع[١].

حتّى أنّ الجاسوسيّة قد عرفت منذ القديم ما نعرّفه اليوم بـ"الحروب النفسيّة"، وهي التي تُعتبر عنصرًا مهمًّا في تاريخ الحروب ونتائجها، وقد استُعملت "الحروب النفسيّة" جنبًا إلى جنب مع سير العمليّات الحربيّة، ومورست بشكل واضح في عهود الرومان والفرس وبعدها في مراحل التاريخ الإسلاميّ. وهي إنّ لم تكن على ما هي عليه اليوم، إلاّ أنّها كانت موجودة تبعًا لمستوى بساطة البيئة التي عاشها الإنسان، فكانت محدودة الجوانب والأهداف[٢].

---

١ - الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣) ص١٥.

٢ - العقيد أبو الطيّب، الاستخبارات الصهيونيّة: العدوّ الأوّل، مكتبة مدبولي (القاهرة،١٩٩٣) ص٢٤٦.

في أرض الهِلال الخَصيب

مع نشوء المجتمعات البشريّة نشأ نوع آخر من الجاسوسيّة شبه المنظّمة. وقد قيل في الجاسوسيّة أنّها ثالث مهنة في العالم بعد الشامان[1] والبغاء[2]. ولا بدّ من أن تكون منطقة شرقي البحر الأبيض المتوسّط قد عرفت أعمال الاستخبار والتجسّس قبل سواها من مناطق الأرض، ذلك بسبب عوامل تاريخيّة وجغرافيّة فعّالة تميّزت بها هذه البقعة من العالم دون سواها.

ذكر مؤرّخون كبار[3] أنّ العوامل الفعّالة في تاريخ سورية وسكّانها ثلاثة هي: أولا وضعها الجغرافي كمجموع لمناطق مختلفة ينعكس في خليط من السكّان والجماعات العرقيّة والمذاهب الدينيّة. وقد تقطّع سطح الأرض بحيث أنّ طبيعة هيئتها لم توجد في أيّ مكان بيئة تتّسع اتّساعًا كافيًا لنشوء دولة قويّة شاملة. والعامل الثاني هو موقعها الستراتيجي كحلقة اتّصال بين القارّات التاريخيّة الثلاث، وهو أمر جعلها معرّضة

---

١ ـ شامان: كاهن يشتغل بالتطبيب والكهانة والسحر مستعينًا بقدرته على التحكّم في القوى الفائقة للطبيعة، كانت التسمية تشير أصلاً إلى تلك الشخصيّة بين قبائل سيبيريا، ولكنّها أصبحت تطلق على كلّ من يقوم بهذه الوظائف عند كلّ الشعوب البدائيّة. وكثيرًا ما يلجأ الشامان في عمله إلى استخدام الحيل ومهارة استخدام اليد والتنويم وما إلى ذلك.

٢ ـ فولكمان، الجواسيس، ص٩.

٣ ـ حتّي د. فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢ج، دار الثقافة بيروت، بالإشتراك مع مؤسّسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر (بيروت ـ القاهرة ـ بغداد ـ نيويورك،١٩٥٨) ٢: ٦٤.

للأخطار والغزوات من جميع الجهات. فالبابليّون والأشوريّون، والمصريّون والحثيّون، والفرس والكلدانيّون والرومان، والعرب والمغول والأتراك، والصليبيّون وغيرهم من الأمم الأخرى هاجموا البلاد في عصور مختلفة واحتلّوها كلّها أو جانبًا منها. والعامل الثالث هو مجاورتها لأقدم مركزين للحضارة الفعّالة وهما الحضارة السومريّة البابليّة في الشرق والحضارة المصريّة في الجنوب الغربي. وفي العصور التالية تعرّضت البلاد من جهة البحر لتأثيرات هندو أوروبيّة من كريت واليونان وروما من جهة البرّ، ولتأثيرات هنديّة إيرانيّة من فارس والهند. وبسبب اتّصال هذه المنطقة بصورة دائمة وسهلة بالعالم الخارجيّ بواسطة الطريق الدوليّ العظيم، فإنّها تعرّضت لتأثيرات عالميّة ولتدفّق بقايا الجماعات المتفكّكة من سائر المناطق.

إنّ هذا الطريق الدوليّ يمكن تتبّعه من مبداه في دلتا النيل وعلى ساحل سيناء حيث يتفرّع إلى مناجم النحاس والفيروز في شبه الجزيرة، كما يتفرّع إلى أراضي البخور في جنوبي الجزيرة العربيّة. ومن سيناء يتحوّل الطريق شمالاً نحو ساحل فلسطين حتّى الكرمل على مسافة من البحر. وهنا يتفرّع إلى طريقين يتّجه الواحد إلى الساحل فيصل صور وصيدا وجبيل وسائر موانئ شرق البحر الأبيض المتوسّط، ويسير الآخر إلى الداخل فيجتاز سهل مجدو ويعبر الأردن في واديه الشماليّ ثمّ يتّجه رأسًا إلى دمشق في الشمال الشرقيّ. ويتفرّع من هنا طريق يعبر بادية الشام بواسطة تدمر ويؤبط مركز سورية مع قلب بلاد الرافدين الذي تمثّله بالتالي بابل والمدائن وبغداد. أمّا الطريق الرئيسيّ فإنّه يتّجه من دمشق نحو الغرب ويعبر لبنان الشرقيّ بواسطة ممرّ الزبداني ويصعد شمالاً عبر سورية المجوّفة متّبعًا نهر العاصي وقادش إلى شماليّ سورية. ويتفرّع في سيره عند قادش باتّجاه الغرب ليتّصل بالبحر المتوسّط بواسطة وادي النهر الكبير. وبعد أن يتفرّع في شماليّ سورية إلى البحر بطريق الأبواب

السوريّة في جبل أمانوس ويتفرّع أيضًا إلى الشمال الغربيّ بطريق الأبواب الكيليكيّة ليصل آسيا الصغرى فإنّه يتحوّل إلى الشرق بطريق الجسر السوريّ نحو الفرات ومن هناك نحو الدجلة وجنوبًا إلى الخليج الفارسيّ.

لقد سلك بعض أجزاء هذا الطريق التجاريّ العظيم سرجون الأكادي الثاني (٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق.م.) وسنحاريب المصري (٧٠٥ ـ ٦٨٠ ق.م.) ونبوخذنصّر الثاني البابلي (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق. م.) والإسكندر المقدوني الكبير (٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق.م.) وبومبايوس الرواني (١٠٦ ـ ٤٨ ق.م.) وعمرو بن العاص (ت٦٦٤م.) ونابوليون الأوّل (١٧٦٩ ـ ١٨٢١م.) والمرشال أللنبي الفرنسي (١٨٦١ ـ ١٩٣٦). وكانت تنقل على هذا الطريق في العصور القديمة والوسطى أحمال العاج والذهب من أفريقيا، والمرّ والبخور والتوابل من الهند وجنوبي بلاد العرب، والكهرمان والحرير من آسيا الوسطى والصين، والقمح والأخشاب من سهول سوريا وجبال لبنان، غير أنّ القوافل كانت تحمل أكثر من ذلك، فقد كانت تحمل معها أحمالاً غير منظورة من الأفكار.

هذه البلاد الغنيّة بأحداثها، وهي مسرح تلاقي الشعوب ومرورها، كان من الطبيعيّ أن تعرف عبر مختلف العصور أنواعًا من الجاسوسيّة كما لم تشهدها أيّ بقعة أخرى من العالم. خاصّة وأنّ هذه البلاد كانت خلال تاريخها، وبالأخصّ في أطرافها الشرقيّة والجنوبيّة، مسرح نزاع متواصل بين البدو والحضّر. وكان تاريخ الشرق الأدنى بكامله حركة كبرى تنطوي على تلك الغزوات والهجمات المتكرّرة التي يقوم بها البدو الطامعون في حياة الرخاء التي تمتّع بها السكّان الحضّر في الأراضي المجاورة.

في خضمّ هذه الحركة التي شهدت موجات متتالية كان يطغي بها سكّان البادية المضطربون الجائعون فيحاولون بطريق التغلغل السلميّ أو بالقوّة احتلال الأراضي

الزراعيّة، شهدت البلاد أنواعًا من التجسّس والتجسّس البدائيّ المضاد، فكان الحضر يتجسّسون على البدو لرصد تحرّكاتهم، وكان البدو يتجسّسون على الحضر تمهيدًا لاختراقهم. وقصّة بني إسرائيل القدماء كما ترويها لنا صفحات العهد القديم في التوراة تعطينا أوفى إيضاح عن هذا الانتقال المتواصل من البداوة إلى الحياة الحضريّة.

غير أنّ بني إسرائيل لم يكونوا أوّل من عرف هذا الانتقال بين الساميّين، وقد مرّ ساميّون كثيرون قبلهم وبعدهم بالمراحل نفسها بالنسبة لمنطقة الهلال الخصيب. هذه الهجرات التي حصلت في عصور يفصل الواحد منها عن الآخر نحو ألف سنة، كانت تبدأ بانتقال أشخاص قلائل كانوا بمثابة مستكشفين أو ما يصحّ عليهم تسمية جواسيس، يتبعهم آخرون ويزداد عدد الذين يلحقون بهم إلى أن تصل الحركة ذروتها ثمّ تأخذ بالتراجع.

وهكذا نجد أنّ الجاسوسيّة البدائيّة كانت ضروريّة في عمليّة التحضّر البشريّ. فعندما دخل الأموريّ الأوّل أرض بابل، وجد الناس يعيشون في رخاء لم يكن يعرفه وسط قومه الذين كانوا يعيشون في الكهوف، فوجد أنّ للبابليّين بيوت، وكان يعيش على الرعي فوجد أنّ لدى البابليّين أهراء، سارع إلى نقل الواقع المكتشف إلى بني قومه الذين ما لبثوا أن اجتاحوا أرض الرافدين[١]. ويردّ مؤرّخون الفضل في تمكّن أوّل شخصيّة كبرى في تاريخ الساميّين: سرجون الأكادي (حوالى ٢٢٥٠ ق.م.) من مدّ سيطرته على شرق البحر الأبيض المتوسّط إلى أولئك الرعاة الساميّين الذين كانوا يتجوّلون في المناطق الشماليّة والبقاع كبدو رحّل وراء قطعانهم، وكانوا ينقلون أخبار تلك البلاد ويصفون أحوالها إلى قادة قومهم. وقد تمكّن سرجون من عزل الفاتح

---

١ - Chierra Edward, *Sumerian Religions Texts* (Upland,1924) pp. 20.

السومريّ "لوغال زاغيزي Luggal - Zaggizi" صاحب "إرِك" الذي ادّعى في إحدى كتاباته الأثريّة أنّه "فتح البلاد من مطلع الشمس حتّى مغرب الشمس"، وأنّه "تقدّم من البحر الأدنى، من الفرات ودجلة، حتّى البحر الأعلى"[1].

١ـ Thureau J Dangin F., Die *Sumerischen und Akkadischen konigsinschriften* (Leipsig,1907) p. 155.

أخبارُ الجاسوسيَّة في التَّوراة

لقد ذكرت التوراة أنّ موسى أرسل جواسيسه للتجسّس على الأرض... وقد ألقت حصون مدن الكنعانيّين القويّة الرعب في قلوب جواسيس موسى. وقد جاء في الكتاب[1] أنّ "موسى أرسل رجالاً يستطلعون أرض كنعان... رجلاً واحدًا من كلّ سبط من أسباط آبائهم" وبعد أن يعدّد أسماء الرجال الذين أرسلوا من كلّ سبط، ينقل قول موسى لهم: "إصعدوا من النقب، تصعدون من الجبل، فتروا الأرض كيف هي، والشعب المقيم بها أقويّ هو أم ضعيف، أقليل أم كثير، وكيف الأرض التي هو ساكنها، أجيّدة هي أم رديئة، وما المدن التي هو ساكنها، أمخيّمات هي أم حصون، وكيف الأرض، أمخصبة أم عقيمة؟ أفيها شجر أم لا؟ وتشدّدوا وخذوا من ثمرها". وكانت إذذاك أيّام بواكير العنب. فصعدوا واستطلعوا الأرض من بريّة صين إلى رجوب، عند مدخل حماة. صعدوا في النقب ووصلوا حيرون. وكان هناك أحيمان وشيشاي وتلماي وهم بنو عناق، وكانت حيرون قد بنيت قبل صوعن مصر بسبع سنين. ثمّ وصلوا إلى وادي أشكول، وقطعوا هناك غصنًا بعنقود واحد من العنب، وحمله رجلان بقضيب مع شيء من الرمّان والتين. فسمّي المكان وادي أشكول، بسبب العنقود الذي قطعه هناك بنو إسرائيل. وعادوا من استطلاع الأرض بعد أربعين يومًا. وساروا حتّى جاؤوا موسى وهارون وجماعة بني إسرائيل كلّها، في بريّة فاران، في قادش. وقدّموا لها ولكلّ

---

١ ـ سفر العدد، ١٣ : ٢٨.

الجماعة تقريرًا، وأروهم ثمر الأرض. وقصّوا عليهم وقالوا: "قد دخلنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها، فإذا هي بالحقيقة تدرّ لبنًا حليبًا وعسلاً، وهذا ثمرها. غير أنّ الشعب الساكن فيها قويّ والمدن محصّنة عظيمة جدًا، ورأينا هناك بني عناق. عماليق مقيم بأرض النقب، والحثّي واليبوسيّ والأموريّ مقيمون بالجبل، والكنعانيّ مقيم عند البحر وعلى ضفّة الأردن"...

كما جاء في التوراة أنّه عندما أمر الربّ يشوع بن نون ليقود بني إسرائيل عبر الأردن إلى كنعان، انتفع يشوع من تجاربه مع موسى، وأرسل رجلين ليتجسّسا على أريحا لمعرفة مدى قوّة العدوّ، وغير ذلك ممّا يجدر بالقائد أن يعرفه قبل الهجوم، وعاونت امرأة ساقطة اسمها راحاب الرجلين في أداء مهمّتهما وخروجهما من المدينة، دون أن يستطيع رجال ملك أريحا اكتشافهما، وكانت تلك أوّل حادثة في التاريخ المدوّن تشير إلى اشتراك امرأة في أعمال التجسّس[١]. وفي هذا الشأن يقول أحد الباحثين في شؤون التجسّس: "منذ بدأ التجسّس في التاريخ قامت الصلة بينه وبين الشرك الجنسيّ. ففي الكتاب الرابع من موسى تنقذ العاهرة راحاب حياة جاسوسَين من جواسيس يشوع من قبضة جهاز مكافحة الاستخبارات في مملكة أريحا. وكان هذا أوّل لقاء مؤرّخ بين أقدم مهنتَين في العالم"[٢].

---

١ ـ زهر الدين د. صالح، موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ١١:١.

٢ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص٢٠٦.

في مصرَ القَديمة

تطوّرت أعمال الجاسوسيّة في بلاد الشرق في شتّى المجالات، وكان لدى المصريّين منذ الألف الثاني قبل الميلاد نظام للجاسوسيّة يعتبر لونًا من ألوان العلم السريّ الرفيع. ففي مصر الفرعونيّة استحسن أعظم ملوك مصر تحوتمس الثالث (حوالى ١٥٠٤ ـ ١٤٥٠ ق.م.) الذي غزا البلاد السوريّة ١٧ مرّة وأنشأ أمبراطوريّة بين الفرات ومصر، استحسن فكرة أحد قادة حربه "توت" القاضية بإخفاء رجال داخل أكياس الدقيق للتجسّس على مدينة يافا المحاصرة، وقد نفّذت الفكرة بنجاح وأتت ثمارها.

وأجمل قصّة عن أعمال التجسّس المصريّ على الهلال الخصيب ترويها لنا المدوّنات، هي قصّة "سنوحي".

كان سنوحي أحد أمراء القصر المصريّ، انتقل من بلاده عندما تسنّم سنوسرت الأوّل العرش حوالى سنة ١٨٠٠ ق.م.، وجاء إلى بلاد الأموريّين حيث عاش بين البدو سنين عديدة قبل أن يعود إلى القصر الملكيّ في مصر. وعندما رجع إلى وطنه كتب تقريرًا بقالب شعريّ. فذكر أنّه عندما وصل إلى أرض الأموريّين أجاره شيخ بدويّ بالقرب من الحدود المصريّة وخلّصه من الموت جوعًا. فكان يعطيه حليبًا ساخنًا، وسمح له بالإقامة بين أعضاء قبيلته. وأخيرًا وصل سنوحي إلى جبيل ومال منها شرقًا إلى داخليّة البلاد إلى سهل البقاع، كما يظهر من وصف الرحلة. وهنا استجار بشيخ قبيلة له اسم أموريّ وأقام عنده وأصبح كواحد من أهل البلاد. ويظهر

أنّه كان بطلاً مغوارًا يحبّ الحرب والغزو فأخذ يقوم بالغارة تلو الغارة على القرى المجاورة فيطارد رعاتها غانمًا أنعامها ويعود بعدد من الأسرى. وكان في صيده يستخدم الكلاب، وكان يضيف الضيوف على طريقة شيوخ البدو. وكان يسقي العطشان، ويهدي ضالّ السبيل. وقد قام سنوحي ضيف البلاد، بدعاية واسعة النطاق لبلاد مصر، ولكن يظهر أنّ مضيفه الشيخ لم يكن على استعداد للتخلّي عن حريّته واستقلاله. وقد تزوّج سنوحي من بنت الشيخ الكبرى فأقطعه حموه أرضًا طيّبة تصلح للزرع والرعي. يقول عن أرضه: "فيها التين والعنب، وخمرها أكثر وفرًا من الماء. فيها العسل الكثير والزيتون الوفير. فيها من جميع الثمار، وفيها الحنطة، وماشيتها لا يعرف لها عدّ". ويصف فارسًا جبّارًا عنيدًا من أهل البلاد دعاه إلى المبارزة، ويقول إنّ الخنجر والرمح والفأس والقوس والنبال استعملت في القتال، وكان الرجال يهتفون لسنوحي، وكانت النساء يزغردن له، فخرج من المبارزة منتصرًا[1].

---

١ ـ حتّي د. فيليب، لبنان في التاريخ، مؤسّسة فرنكلين (بيروت ـ نيويورك،١٩٥٩) ص٨٨ ـ ٨٩، عن:
Pritchard James B., *Ancient Near Eastern Texts* (Princton,1950) p.19.

عندَ اليُونان والرُّومان

قصّة حصان طروادة في التراث اليوناني أجمل بيان عن مفعول ما يشبه الجاسوسيّة في ذلك العصر. وطروادة مدينة قديمة في الأناضول شرقي مدخل الدردنيل من ناحية بحر إيجه. يعرف موقعها اليوم باسم "حصارليك". كانت مسرحًا لحرب طروادة في الأساطير اليونانيّة، وهي حرب بين الإغريق والطرواديّين، جاء الكلام عنها في إلياذة هوميروس وفي الأوديسا. بدأ النزاع عندما قام "باريس" إبن ملك طروادة بخطف "هيلين" زوجة "منيلاس" الإغريقي، وأتى باريس بهيلانة إلى مدينة أبيه طروادة، فلمّا علم منيلاس بذلك شقّ عليه الأمر جدًّا وأخذه القلق، ولم يرَ بدًّا من طلب العون من ملوك الإغريق وقادتهم، فحاصر الإغريق طروادة بقيادة "أغاممنون" أخي منيلاس وملك "ميسان" ومعه "كورنثُس" و"سيسيوم" لمدّة عشر سنوات، وكانت المدينة محكمة التحصين وكانت بقيادة "هكتور" الشجاع ابن "بريام" ملك طروادة، فصمدت. غير أنّ الإغريق قد نجحوا أخيرًا بخدعة، إذ تظاهروا بالرحيل وتركوا حصانًا خشبيًّا عملاقًا أدخله الطرواديّون إلى مدينتهم رغم تحذير "كاسندرا" و"لاوكون"، وقدّموه لـ"أثينا"، ففتح المحاربون المختبئون داخل الحصان أبواب المدينة ليلاً للجيش الإغريقي الذي دمّر طروادة. كان ذلك في حدود سنة ١١٨٤ ق.م[١].

---

١ ـ أبكاريوس يوحنّا، قطف الزهور في تاريخ الدهور، المطبعة الأدبيّة (بيروت،١٩١٢) ص٣١١ ـ ٣١٢.

وسواء كانت أسباب حرب طروادة ناتج خيال شعريّ أو أنّها قد وقعت فعلا حوالى سنة ١٢٠٠ ق.م. بسبب الصراع على سيادة التجارة في الدردنيل كما يذكر المؤرّخون، فإنّ رواية حصان طروادة تبقى معبّرة ومنبئة عن إتقان الإغريق لفنون الخدع الحربيّة في ذلك العصر.

ويروي لنا التاريخ أنّه في العام ١٦٣ قبل الميلاد لمّا علم الرومان بوجود عدد كبير من الفيلة الحربيّة لدى الجيش السلوقي في سوريا أرسلوا "بعثة" للقضاء عليها[١]. وغنيّ عن البيان أنّ الجاسوسيّة الرومانيّة هي التي نقلت إلى قيادتها معلومة وجود عدد كبير من الفيلة المستعلمة من قبل السلوقيّين في الحرب، تلك الفيلة التي كانت تعتبر في ذلك العصر بمثابة دبّابة العصور الحديثة، وكان السلوقيّون قد استقدموا الفيلة لغايات حربيّة من الهند وأفريقيا، فكان استخدامها في الحروب ظاهرة جديدة في الجيش السلوقيّ وأصبح هذا الحيوان شعارًا سلوقيًّا كما ترينا قطع النقود. وقد أثار قضاء البعثة الرومانيّة على هذه الحيوانات الداجنة والنادرة أحد مواطني اللاذقيّة بحيث اكتشف أمر رئيس البعثة الرومانيّة وطعنه طعنة مميتة حين كان يتطيّب في الجمنازيوم بتلك المدينة. وقد كلّفت البعثة الرومانيّة نفسها التي قضت على فيلة الحرب بمهمّة إحراق الأسطول السلوقيّ الذي كان قد زاد عن العدد الذي سمح به لأنطيوخُس الثالث بموجب معاهدة الصلح بين السلوقيّين والرومان.

---

١ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ٢٩٢.

"العُيونُ" عندَ العرَب

يحدّثنا التاريخ العربيّ عن أنّ النبيّ محمّدًا ﷺ قد أرسل اثنين من الصحابة للحصول على معلومات عن قوى المشركين. وعند بئر بدر وجد أحدهما غلامين لقريش يستقيان، فأحضراهما إلى الرسول ﷺ حيث تمكّن من تحديد عدد المشركين بسؤاله الغلامين عن عدد الجمال التي ينحرونها يوميًا، فأجاب الغلامان بأنّهم ينحرون يومًا تسعًا ويومًا عشرًا، فأدرك النبيّ ﷺ أنّ عدد القوم بين التسعماية والألف، ذلك أنّ عادة العرب تخصيص بعير لكلّ مائة شخص[1].

وجاء في بعض الدراسات أنّه في مطالعة السيرة النبويّة نقتفي أثر المخابرات وفنّ الجاسوسية من خلال الدروس والعبر. فإلى جانب أنّه الرسول والنبيّ والذي حمل آخر وأكبر الرسالات السماويّة، فإنّنا نرى عبقريّة الرسول ﷺ وحسمه لكثير من الأمور الدنيويّة، وخاصّة في مجال الحرب والقتال، وبالرّغم من أنّ الرسول ﷺ لم يشارك قبل بعثه في أيّ حروب، كما ظلّ طيلة ثلاثة عشر عامًا في مكّة بعد البعثة بلا حروب أو قتال، وعندما نزل الإذن من الله سبحانه وتعالى بقتال المشركين، أصبح الرسول ﷺ يهدف إلى إعلان الإسلام والدخول في الحروب والمعارك التي كانت سبعًا وعشرين غزوة، حينما كانت السرايا سبعًا وأربعين سريّة، ولم يقاتلْ الرسول ﷺ إلاّ في تسع غزوات، ولكنّه في كلّ الغزوات كان القائد والمخطّط صاحب البصيرة التي لا تخيب

---

١ ـ زهر الدين، موسوعة الأمن، ١:١٢.

أبدًا، فاستطاع أن يبدع ويبتكر في فنون الحروب والقتال، وكذلك في فنون المخابرات والجاسوسيّة التي لم تُعرف إلا بعد رحيله عليه الصلاة والسلام بعدّة قرون.

وقد أورد هؤلاء الباحثون "أهمّ الدروس المستفادة من عبقريّة الرسول ﷺ في الحروب والمخابرات تحت ثلاثة عشر بندًا هي:

أولاً - أهل الخبرة أم أهل الثقة: فقد كان الرسول ﷺ يستعين دومًا بالخبير الحاذق حتّى ولو كان من غير المسلمين. فقد استعمل في هجرته من مكّة إلى المدينة "عبدالله بن أريقط"، وهو غير مسلم، ولكنّه كان خبيرًا بالطرق والأدوية وقد طلب الرسول ﷺ قبل خروجه من مكة أن يأتيه في "غار ثور" بعد ثلاثة أيّام... كما استخدم الرسول ﷺ الأدلاّء في معظم غزواته يدلّونه على مسالك الطرق المؤدّية إلى أيّ جهة يريدها، وكان يختارهم ممّن يعرفون طبيعة الأرض وتضاريسها ومن أهل البلاد التي لهم خبرة بها، أو ممّن اعتادوا زيارتها، فقد استعمل في غزوة خيبر رجلاً يدعى "حيل بن خارجة وعبدالله بن نعيم"، ولذا استطاع الرسول ﷺ أن يصل إلى خيبر دون أن يعلم اليهود، رغم معرفتهم المسبقة، عن طريق منافقي المدينة، بتحركات الرسول ﷺ.

ثانيًا - الاستكشاف وتحليل المعلومات قبل الغزو: فقد كان الرسول ﷺ لا يدخل معركة إلاّ بعد معرفة حالة العدوّ ومعسكراته ومواقعة العسكريّة وطبيعة الأرض، وكان يستقي كلّ هذه المعلومات من خلال بثّ السرايا وطلائع الاستكشاف لمتابعة حركات العدوّ والقبض على جواسيسه قبل أن يوصلوا الأخبار إلى الأعداء. وقد امتدّ هذا الحرص حتّى في الغزوات التي لم يكن الرسول ﷺ يهدف من خلالها إلى القتال والحرب، فقد خرج "عام الحديبية" لا يريد حربًا إلاّ أنّه احتاط فبعث من يستطيع الإخبار لمعرفة تحرّكات العدوّ، وزيادةً في الحيطة والحذر وتنفيذًا لأمر الله تعالى:

" يا أيّها الذين آمنــوا خذوا حذركم ﴾[1]. وقد استخدم الرسول في الحديبية عينًا من خزاعة يخبره عن قريش.

ثالثًا ــ استثمار الموقف: كان الرسول ﷺ واسع الأفق متوقّد الذهن، وقد كان واضحًا أشدّ الوضوح في أصعب المواقف، وعلى معرفة ودراية في كيفيّة استثمار تلك المواقف بشكل إيجابيّ. ففي غزوة الخندق استطاع "نعيم بن مسعود" من خلال حيلته الذكيّة تحقيق قدر كبير من فشل الأحزاب بأن أوقع الفتنة بين اليهود وبين قريش وأعوانها.

رابعًا ـ الحرص والحذر: لقد حرص الرسول ﷺ على ألاّ تتسرّب الأخبار إلى العدوّ، وعمل على مقاومة جواسيس قريش في مكّة والمدينة، فقد بثّ الرسول ﷺ عيونه ودوريّاته لتجوب الدروب حول المدينة كي تحول دون تسرب المعلومات إلى قريش، كما بثّ عيونه في الداخل لمنع أي خبر يمكن أن يصل أو يتسرّب إلى قريش عن طريق عيونها داخل صفوف المسلمين. ولأن الرسول ﷺ كان يعلم مدى أهميّة علم العدوّ بالمعلومات عن حركة المسلمين، فقد كان يدرك جيّدًا أنّ من أهمّ الإجراءات مقاومة جواسيس الأعداء واتّخاذ الوسائل السليمة في الحرص والحذر على ألاّ تتسرّب الأخبار إليهم. ومن أهمّ وسائل مقاومة جواسيس الأعداء الكشف عمّن يقومون بأعمال التجسّس وتعقّبهم ومتابعة نشاطهم حتى لا يتحصّل العدوّ على أيّ معلومات عن طريق أعوانه وجواسيسه في الداخل.

خامسًا ـ أسرار القائد لنفسه فقط حتّى موعد التنفيذ: فقد حرص الرسول ﷺ على السرّيّة التامّة في كلّ غزواته، ولم يكن يعلن الأخبار إلاّ في حينها، وكما يطلق عليها

---

١ ـ سورة النساء، الآية ١٠٢.

"ساعة الصفر". فعند الهجرة لم يخبر أحدًا إلاّ ليلتها عندما أخبر عليًا بن أبي طالب عليه السلام وأبا بكر الصدّيق رضي الله عنه، وعند فتح مكّة لم يخبر الرسول ﷺ حتى السيّدة عائشة رضي الله عنها، عندما ساعدته على ارتداء ملابسه، وبعد الإعلان عن الغزوة كان الحذر لا يفارق الرسول ﷺ. فقد كان يستخدم الحراسات لمنع تسرب المعلومات كما حدث في غزوة حنين، عندما تولى الحراسة "أنس بن مرشد العتوى" كما تولّى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحراسة في غزوة الفتح، ومن قبله تولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه الحراسة في رحلة الهجرة وقد ظفر الحرس في غزوة خيبر بيهوديّ كان له أثر كبير في معرفة كلّ شيء عن حصون اليهود.

سادسًا ـ الابتكار والتجديد: لقد استطاع الرسول ﷺ ابتكار وسائل جديدة لم تكن معروفة من قَبل في عالم المخابرات، ولم تُعرف إلاّ بعده بعدّة قرون وهي "الأوامر المختومة"، وهي رسائل يحملها المكلّف بتنفيذ ما بها ولا يفتحها إلاّ في مكان معيّن وزمان معيّن، وهذا ما حدث في سريّة "عبد بن جحش".

سابعًا ـ شبكة العيون والمعلومات: كان الرسول ﷺ يبثّ عيونه ورجال مخابراته في كلّ مكان بالجزيرة العربيّة، ولذلك فإنّ غالبيّة غزوات الرسول ﷺ كانت على أرض الأعداء بعد حصوله على معلومات من عيونه عن تربّص هذه القبائل واستعدادها لغزو المسلمين. فقبل فتح مكّة كان "العبّاس بن عبد المطّلب"عمّ الرسول ﷺ عينًا له في مكّة، وكان "عبدالله بن حدرد الأسلمي" عينه في هوزان، وغيرهما الكثير وسط كل القبائل.

ثامنًا ـ استعمال الشفرلة: من ابتكارات الرسول ﷺ في عالم الحرب والمخابرات ما يعرف الآن بـ"الشيفرة"، أو "الشعار"، أو "كلمة التعارف"، أو "كلمة السر"، أو "اللحن المصطلح عليه". فقد كان للجيش الاسلاميّ نداءات خاصّة يصدرها القائد للجند في

الحرب، وذلك نتيجة لتنوّع الحركات في الحرب والحاجة إلى إخفاء الحركة عن العدوّ، فكان لكلّ حركة نداء خاصّ يدلّ لفظه على المراد به. واستخدام الشعار أو الشيفرة بين المقاتلين يرفع معنويّاتهم ويضمن لهم عدم معرفة العدوّ لما يقولونه وما يقصدونه من التخاطب بهذه الشيفرة.

تاسعًا ـ معرفة العدوّ: لقد طبق الرسول ﷺ شعار "أعرف عدوك" مع اليهود، فقد تنبّه لغدر اليهود وخيانتهم، وكان يستعمل منهم من يكتب له رسائله، فأمر "زيد بن ثابت" بتعلّم لغة الأعداء من اليهود، فما مضى نصف شهر حتّى تعلّمها وأصبح بالإمكان التعرّف المباشر على كافّة تحركات اليهود.

عاشرًا ـ تحليل المعلومات: إنّ نجاح أيّ جهاز مخابرات ليس بكميّة المعلومات التي يتحصّل عليها، وإنّما يتوقف على مدى القدرة على تحليل هذه المعلومات. وقد كان الرسول ﷺ سبّاقًا في هذا المجال، وكان يمتلك قدرات واسعة على التحليل الدقيق للمعلومات. فمن خلال نقل حديث دار بين الفتاتين على ماء بدر ونقلَه عيونه له علم الرسول ﷺ موعد وصول قريش. وعندما استوجب الرسول ﷺ الغلام الذي جيء به من جيش قريش علم منه عدد مقاتلي قريش، وذلك من خلال معرفته بعدد الذبائح التي ينحرونها يوميًا.

حادي عشر ـ الرجل المناسب لجمع المعلومات: إنّ علماء المخابرات في العصر الحديث يؤكّدون على أنّ الجاسوس الماهر ليس من يجيد فنون التخفّي، ولكنّه مَن لا يحتاج إلى هذه الفنون. وقد كان الرسول ﷺ حريصًا عندما اختار رجال مخابراته على أن يكونوا من أصحاب "المواهب الخاصّة"، وممّن تتوفّر بحقّ فيهم الكفاءة والقدرة على التعامل مع أصعب المواقف، مثلما حدث مع علي بن أبي طالب عليه السلام ليلة الهجرة، و"حذيفة بن اليمان" في غزوة الخندق. وتقديرًا لأهميّة المعلومات كان الرسول ﷺ يسند

أمر الحصول عليها لمن يتمتّع بصفات خاصّة أهمّها الصدق والشجاعة، وكثيرًا ما كان يعتمد على كلّ من "الزبير بن العوام" و"عبدالله بن جحش". ولنجاح النبيّ ﷺ في اختيار رجال مخابراته، فقد كانت المعلومات تصله دومًا صحيحة ودقيقة.

ثاني عشر ـ مساواة رجل المخابرات بالمقاتل: لقد سبق أن تعامل الرسول ﷺ مع رجل المخابرات المبعوث في مهمّة استطلاعيّة على أنّه مقاتل كامل، له كلّ حقوق المقاتل على جبهة القتال. فقد أرسل الرسول ﷺ كلاًّ من "طلحة بن عبيدالله" و"سعيد بن زيد بن عمر" إلى طريق الشام ليجمعا الأخبار عن عير قريش قبل غزوة بدر، وقد رجعا إلى المدينة بعد انتهاء الغزوة مباشرة ولم يشاركا في القتال، ولكن الرسول ﷺ أعطى لكلّ منهما مثلَ ما أعطى للمقاتلين من الغنائم.

ثالث عشر ـ عمليات التمويه والخداع: لقد اعتمد الرسول ﷺ أسلوب السريّة التامّة وعنصر التمويه والخداع والمفاجأة. ظهر ذلك جليًّا في عمليّة الهجرة من مكّة إلى المدينة، فقد تعامل الرسول ﷺ بالسريّة التامّة، فلمّا جاءه الأمر الإلهيّ بالهجرة، أمر الرسول ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام أن ينسجي في بردته وأن ينام في فراشه، وقبل علي بن أبي طالب عليه السلام أن يقوم بهذه المهمّة المحفوفة بالمخاطر الشديدة. وقد خرج الرسول ﷺ في وقت الظهيرة التي لا يخرج فيها أحد من شدّة الحرّ، وخرجا من باب خلفيّ لمنزل أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، واتّجها جنوبًا نحو اليمين في اتّجاه معاكس للطريق المعروف المؤدّي للمدينة، وسلكا طرقًا غير مألوفة، وكان لديه من ينقل له أخبار قريش أوّلاً بأوّل ويأتيه بالطعام. وكان راعي الأغنام يخفي آثار أقدام "عبدالله" و"أسماء بنت أبي بكر" عند حضورهما لغار ثور، وبعد ثلاثة أيّام اتّجه إلى يثرب بطريق غير الطريق الذي اعتاد عليه الناس واستعان "بعبدالله بن أريقط" وهو من أهل الخبرة ولم يكن مسلمًا.

ويخلص هؤلاء الباحثون إلى أنّ الرسول ﷺ قد اهتمّ بأمر الاستخبارات وأعطاها عناية فائقة، فاختار لها أكفأ العناصر واعتبرهم مقاتلين كاملين مثلهم مثل الذين يقاتلون في المعركة تمامًا. وكان يهتمّ بصفات مَن يقوم بأعمال الاستخبارات وأهمّها الذكاء والجرأة وضبط النفس والتدريب الجيّد ومعرفة لغة العدوّ... واهتمّ بعمليّة الانتشار، فقد كان له عيون في كافّة القبائل وهناك بعض من الأدلة التي تفيد عن مدى كفاءة استخبارات الرسول ﷺ ومنها:

أنّه لم ترد في تاريخ السيرة حادثة واحدة انكشف فيها أمر واحد من أمور رجالها؛ وأنّ نيّة الأعداء بالعدوان كانت تبلغ الرسول ﷺ في وقت مبكّر بحيث يمكنه اتّخاذ اجراءات المواجهة حسبما يقتضي الموقف؛ وأنّه لم يضع ﷺ خطّة لغزوة أو سريّة دون أن تكون لديه المعلومات اللاّزمة للتخطيط الناجح؛ وأنّه لم يستطع الأعداء كشف أسرار المسلمين وخططهم ونواياهم؛ وأنّ جيش الرسول ﷺ في أغلب معاركه مع الأعداء كان يعتصر المبادأة والمبادرة، وذلك بفضل كفاءة المخابرات. وقد كانت آخر وصايا رسول الله ﷺ، عندما اشتدّ به المرض، لـ"أسامة بن زيد" قائد جيش المسلمين المتّجه إلى الشام، بأن يهتمّ بعنصر الاستخبارات، قال له: "خذ معك الادلاّء وقدّم العيون أمامك والطلائع"[1].

وفي هجرة الرسول ﷺ كان المشركون في قريش يدركون أن هجرة أبنائهم ورجالهم إلى المدينة تعني خلق محور مضادّ لهم قد يُستخدم ضدّهم يومًا ما...

فقد نام عليّ بن أبي طالب عليه السلام في فراش الرسول ﷺ وتغطّى بغطائه الأخضر المعروف به، وكانت تلك عمليّة تمويه ضدّ مخطط العدوّ الذي قرّر أن يجمع من كلّ

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص١٥ ـ ٢١.

بطن من بطون قريش رجلاً قويًا فيجتمعون عليه ويضربونه بسيوفهم ضربة رجل واحد، فيتفرّق دمه بين القبائل، ولا يعرف بنو هاشم مِن أيّهم يقتصون. فقد كان التمويه يقتضي خروج الرسول ﷺ من بيته متوجّهًا للمدينة في ساعة القيلولة الشديدة الحرّ والتي لم يعتد أن يخرج فيها أحد. وكان الخروج من خلفيّة بيت أبو بكر الصدّيق عبر باب صغير ومنفَذ غير معتاد وليس من باب الدار المعروف والذي يُتوقّع مراقبته ورصده، وكان السير في اتّجاه الطريق المعاكس لطريق المدينة الذي يكون السير فيها أمرًا محتومًا، فاتّجه الركب إلى "غار ثور"، وهو في غير طريق المدينة، وكانت تصله الأخبار أوّلاً بأوّل وكذلك الزاد... وإمعانًا في التأمين أمر أبو بكر الصديق راعي غنم بأن يمرّ بأغنامه كلّ يوم بالقرب من الغار حتّى تختفي آثار ابنه "عبد الله" وابنته "أسماء" عند حضورهما كلّ يوم بالغذاء والأخبار، وقد كانت الخطّة كافية لكي يدرك المشركون أنّ الرسول ﷺ ورفيقه قد أفلتا منهم فتوقّفوا عن مطاردتهما[١].

وتشير المصادر التاريخيّة إلى أنّ العرب قد استفادوا من الجاسوسيّة منذ أجيال طويلة. وكانوا يطلقون على الجواسيس إسم "العيون". فقد كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب (ت٢٣ هـ/ ٦٤٤م) ثاني الخلفاء الراشدين (١٣ ـ ٢٣ هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٤م) رضي الله عنه إلى قائده سعد بن أبي وقّاص وصيّة هامّة تعتبر حتّى الآن من أهمّ وأصدق ما قيل عن التجسّس من الأعداء وعلى الأعداء وهي تقول:

> بسم الله الرحمن الرحيم. من أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب إلى القائد سعد بن أبي وقّاص. أمّا بعد إذا وطئت أرض العدوّ فاذك (فأرسل) العيون بينك وبينهم ولا تخفِ عليك أمرهم وليكن عندك من العرب أو أهل

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٥٦.

الأرض مَن تطمئنّ إلى نصحه وصدقه فإنّ الكذوب لا ينفعك خبرة وإن صدقك في بعضه والغاش عين عليك وليس عينًا لك.

وكان قادة الفتوحات الاسلاميّة يلجأون إلى معرفة أحوال العدوّ بدقّة قبل الهجوم. وكان بعض القادة يتخفّون في ملابس الرعايا العاديّين ليستطلعوا بأنفسهم شؤون الاعداء، وليجمعوا الأخبار، حيث كانت المعلومات تشتمل على الكثير من التفاصيل الخاصّة بالطرق، والآبار وصلاحيّتها، والمؤن، والاستعداد لحالات الدفاع والهجوم، وعدد الجنود وتأييدهم أو رفضهم للحاكم، وكيف يعيّن الحاكم مستشاريه، وعاداته، ومستوى ثقافته ومعرفته، وإنجازاته، ومدى اهتمامه بالفقراء والأغنياء، وهل يستأنس برأي مَن حوله، ومدى إدراك هؤلاء بالعلم والثقافة والذكاء، وحالهم الاجتماعيّة والقواعد الشعبية التي يستندون إليها.

وإنّ معاوية بن أبي سفيان (ت٦٠ هـ/ ٦٨٠م) قد كانت له في جيش الإمام علي بن أبي طالب ﷺ عيون في معركة صفّين سنة ٣٧ هـ/ ٦٥٧م، تنقل إليه أخبار الجيش واختلافه وانقسامه... ومن هذا نفذ معاوية إلى الخلافة وظفر بها.

وكان المهلّب بن أبي صفرة (ت٨٣هـ/ ٧٠٢م) الذي حارب الخوارج، يرسل عيونه إلى معسكر الخوارج لينقلوا إليه أخبارهم وحركاتهم ومعلومات عن مددهم وسلاحهم وغير ذلك من الشؤون، وكما حارب المهلّب الخوارج بالسيف والرمح، كذلك حاربهم بالتكيدة والخفاء حتّى قضى عليهم ومزّقهم.

أمّا الوزير العبّاسيّ إبن الفرات علي بن محمّد (٨٥٥ ـ ٩٢٤)، الذي كان أشهر وزراء الدولة العبّاسيّة في عهد الخليفة "المقتدر"، فقد مرّت حياته بألوان من التيّارات السياسيّة العارمة حيث كثرت الوشايات في عهد المقتدر، وكان ابن الفرات يكره "السعاية" و"السعاة" أي "المخبرين"، لشدّة ما عانى زمنه منهم ولكثرة من ذهبوا ضحيّة

لهم، فاتّخذ القوم السعاية حرفة حتّى كانت هي الأصل والجوهر في حياة كثيرين منهم، وما عداها من الأعمال على هامشها، وهي دأبهم في النهار وسمرهم في الليل وتدبيرهم إذا خلوا إلى شياطينهم... فأراد ابن الفرات أن يقضي على هذه العادة السيّئة وهو المسؤول عن التحقيق في السعايات، أي الإخباريّات، فكانت إذا رُفعت إليه سعاية خرج من عنده مناد ينادي في الناس المحتشدة أمام ديوانه: "أين فلان ابن فلان الساعي"... فيشهر سعايته ويفضحه بأن يجمع بينه وبين من سعى به... فلمّا عرف الناس منه ذلك كفّوا عن سعايتهم.

وحين عاد ابن الفرات إلى الحكم كرئيس للوزراء، أي حين ألّف وزارته الثانية، حمل إليه صندوقان فيهما أسماء من يعاديه ومن يكيد له ومن يعمل لخصومته ومن يحاربه ومن يجاريه ومن يعمل معه، فقال: لا تفتحوهما. وأمر بنار مستعرة وطرح الصندوقين فيها، فلمّا احترقا قال: "لو فتحتهما وقرأت ما فيهما لفسدت نيّات الناس بأجمعها علينا واستشعروا بالخوف منّا، وبما فعلنا من إحراق الصندوقين هدأت القلوب وسكنت النفوس وعاد الناس إلى أعمالهم مطمئنّين"...

ويعتبر باحثون[1] أنّ "إبن الأثير"، مؤلّف "الكامل في التاريخ"، كان يمارس فنون المخابرات كمراسل حربيّ. ويروون أنّ ابن الأثير نشأ في أسرة عريقة تملك القصور والبساتين، تبوّأ أفرادها المناصب الرفيعة في الدولة، وكان لها في البلاط الموصلي مراكز مرموقة.

كان السائد لدى تلك الأسر، أن يهيّئوا أولادهم لتولّي المناصب الحكوميّة، وكان لهم في ذلك أسلوب لا يتغيّر، أشار إليه الشقيق الأصغر لابن الأثير بطريقته الفنيّة

---

١ ـ الجزائري سعيد، ملفّ التسعينات عن أعمال المخابرات، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧) ٢: ٥٢٤ ـ ٥٢٩.

الرائعة في كتابه "الوشي المرقوم في حلل المنظوم"، فقال: "كان من عادة أهل البيوتات إذا نشأ لهم ولد، أحضروه إلى ديوان المكاتبات ليتعلّم فنّ الكتابة، ويتدرّب ويسمع، وكان رئيس ديوان المكاتبات يتولّى امتحانهم في ما أتقنوه من حفظ القرآن، ويناقشهم في ما قرأوه من كتب، ويحاورهم في ما يحفظونه من شعر". وكان ذلك كافيًا لكي يتمّ تعيين المرء في الوظيفة، ولكي تتفتّح له بعدها أبواب الترقّي في المناصب حتّى يصل إلى مرتبة الوزارة، وكان هذا الأسلوب، بطبيعة الحال، مقصورًا على أبناء عليّة القوم فقط، الذين كانوا يحتكرون الوظائف الحكوميّة لهم ولأولادهم من بعدهم...

وابن الأثير، واحد من أقطاب المؤرّخين العرب، وعَلم من أعلام البلاغة وصاحب رؤية نقديّة نافذة ذات قيمة فنيّة عالية، وصاحب "الكامل في التاريخ"... إنّه عزّ الدين أبو الحسن علي بن محمّد الشهير بابن الأثير الجزري، واحد من إخوة ثلاثة هو أوسطهم. أمّا أكبرهم فهو مجد الدين، وأصغرهم ضياء الدين.

ومع أنّ والده كان من كبار الأغنياء المصدّرين والمستوردين، إلاّ أنّ هذا لم يمنعه من أن يتبوّأ منصبًا حكوميًّا رفيعًا، قد يكون الحرص على شغله من باب الوجاهة التي يحرص عليها أبناء هذه الطبقة حين يجمعون بين الثراء والسلطة والجاه.

ولهذا كان الأب حريصًا على أن يتّجه أولاده نفس الاتّجاه، يكسبون الألوف من ممارسة التجارة، لكنّ مركزهم الأدبيّ المرموق، يكمن في وظيفة حكوميّة محترنة.

ما أن انتهى مجد الدين، الشقيق الأكبر، من حفظ القرآن ودراسة الحديث والنحو حتّى عيّنه أبوه في وظيفة طيّبة في ديوان الأمير "قايماز"؛ أمّا ضياء الدين، فقد تمّ تعيينه في وظيفة طيّبة في ديوان "سيف الدين غازي"، صاحب الموصل؛ أمّا الشقيق الأوسط عزّ الدين، وهو صاحب هذه السيرة، فقد أعرب لوالده عن أنّه لا يطيق الوظيفة، ويرغب في شقّ طريقه في مجالات الأدب والحديث والتفسير، فوافق الأب

على مضض وكره منه، مطمئنًا إلى أنّ ريع ما يملكه عزّ الدين من بساتين وضياع سوف يحقّق له رغدًا من العيش.

وُلد إبن الأثير سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م في جزيرة "إبن عمر" القريبة من الموصل، فاتّصل بفقهائها وعلمائها وعظمائها، ممّن كانوا يتردّدون على ديوان بيت الأسرة... استمع... وحفظ... وهضم... وشارك... وربّما كان نبوغه المبكّر سببًا في موافقة والده على أن يتّجه هذا الاتّجاه الحرّ في حياته من دون أن يتقيّد بوظيفة أو يربط حياته بعمل منتظم... ومع هذا، فقد بلغ أخواه بعض ما بلغه ابن الأثير من شهرة أدبيّة عريضة، حقّقاها وهما متمسّكين بوظيفتيهما، فلم يتخلّيا عنهما.

فقد حقّق الشقيق الأكبر، مجد الدين، شهرة عريضة، بمؤلّفاته عن تفسير القرآن، وفي البديع وغريب الحديث، وغيرها من المصنّفات. أمّا شقيقه الأصغر، ضياء الدين، فقد عرف كأديب وشاعر وصاحب باع طويل في صناعة الإنشاء. ويشاء حظّ ابن الأثير أن يرحل والده ومن بعده أخواه، لتتمركز رئاسة الأسرة في يديه، فظلّ على نهجهم فاتحًا مقرّ الأسرة الكبيرة في الموصل على مصراعيه لاستقبال العلماء والأدباء والشعراء والمحدثين.

وسعيًا وراء العلم والمعرفة، تنقّل ابن الأثير بين العراق ودمشق ومصر، فكوّن لنفسه شهرة ومكانة مرموقة في كلّ مكان ذهب إليه، ولم يكن حرصه على التعرّف على كبار العلماء والمسؤولين وتأكيد صلاته وصداقته بهم، لمجرّد الرغبة في الاستزادة من علمهم، ولكن، كان له في ذلك مآرب أخرى... فقد كان ابن الأثير يهيّء نفسه وعقله لكي يكون مؤرّخًا، ولكن بشكل مختلف عمّن سبقوه...

فالتاريخ عنده ليس مجرّد سرد للوقائع... ولكنّه في اكتشاف المقدّمات وإبراز نتائجها.

كان لا يعتمد على ما يسمعه أو ينقله إليه الرواة، أو غير ذلك من أساليب اعتماد المؤرّخ على المصادر والرواة، ولكنّ منهجه اعتمد أساسًا على صدق الواقعة...

كان إذا سمع عن حادث أو أزمة انطلق إلى موقعها، وبحث في أرضيّة واقعها ليرى كلّ جوانبها رؤية العين، ثمّ يتحرّك ويتقصّى حتّى يصل إلى لبّ الحقيقة، فلا يكتفي بتدوينها، بل يتناولها أيضًا بالتحليل والنقد والتعقيب.

وليس من قبيل المبالغة، القول بأنّ ابن الأثير كان ينهج أسلوب المحقّق الصحافيّ بمنطق العصر الحديث...

وفي حياة ابن الأثير الكثير من الأسئلة التي تؤكّد على المعنى السابق، إلاّ أنّ واقعتين منهما، على جانب كبير من الأهميّة، تستوقفان الباحث، وربّما كانتا كافيتين للتأكيد على ذلك الاعتبار الذي أُعطي لإبن الأثير:

الواقعة الأولى، حين التحق بقوّات "الناصر صلاح الدين"، ورافقه في كثير من غزواته، وهو عمل أشبه بما نسميّه اليوم "المراسل الحربيّ"... ومع هذا، فقد يسّرت له هذه الرفقة وصف المعارك التي شاهدها وعايشها ليدوّنها في مؤلّفه "الكامل في التاريخ"، بل وجعلته يتوقّف عند بعض عثرات صلاح الدين نفسه لينقدها ويناقشها. وقد كشف هذا الواقع، لا عن شجاعة لابن الأثير وجرأته في النقد فحسب، بل كشف عن أشياء مهمّة في صميم عمق ثقافة ابن الأثير، والتي جعلته يلتفت إلى تلك العثرات من قائد كبير مثل صلاح الدين، مشهود له بالقيادة الحكيمة على الدراسة والعلم والتخطيط... ومع أنّ الكثيرين من خصوم ابن الأثير وحسّاده، فسّروا نقده لصلاح الدين، وكشفه بعض الأخطاء الحربيّة التكتيكيّة، إنّما لأنّه يكره الأيّوبيّين، ولم ينس أنّ عساكرهم أذاقوا أهله العذاب والتنكيل وأخرجوهم من ديارهم... وهذا يتنافى تمامًا، بل ويتناقض مع حياة ابن الأثير الكاملة، كناقد

ومؤرّخ وصديق لصلاح الدين، ائتمنه على أسراره الحربيّة، ووافق على مصاحبته له في غزواته...

وكثيرًا ما كان ابن الأثير يتسلّل إلى صفوف الصليبيّين ليعرف أخبارهم ولينقلها إلى صلاح الدين. ليس هذا فحسب، بل كان يُكثر من التنقّل في كلّ مكان ليأتي بأخبار غاية في الأهميّة والخطورة، مستخدمًا كلّ وسائل الاتّصال التي كانت متاحة في ذلك الوقت وأهمّها بريد الحمام الزاجل.

ومن أشهر "خبطات" ابن الأثير، معرفته الكاملة بخطّة الغزو التتريّ للموصل قبل وقوعها، فقد كان يتّخذ له موقعًا على الحدود ليلتقي بالقادمين... فالتقى ذات يوم بشيخ قادم من بخارى فسأله ابن الأثير عن أخبارها، فقال الشيخ: "أسرني التتار بعد غزوها، وأخذوني إلى سمرقند، ولكنّني تمكّنت من الهرب، وتعرّضت لأهوال لا توصف، حتّى وصلت بسلامة الله إلى الموصل"...

ويتفرّس ابن الأثير في الشيخ، فيكتشف أنّه يتنكّر في هيئة غير هيئته، فيعرف من الشيخ أنّه اضطرّ إلى التنكّر في صورة تاجر يحمل بريد التجّار حتّى يهرب من عيون التتار، ويجدها ابن الأثير فرصة لا تعوّض، فراح يفرغ مخلاة الشيخ من كلّ ما احتوته من مراسلات، ولم يترك رسالة واحدة إلاّ بعدما قرأ سطورها وما بين سطورها، حتّى عرف كلّ أخبار التتار وزحفهم القادم، فترك الشيخ الهارب من أسر التتار، ليتجوّل وسط القادمين ويسأل، ويتقصّى ما حصل عليه من حقائق، ولمّا تأكّد له الخبر بأنّ التتار لا محالة قادمون، أسرع إلى صديقه القائد صلاح الدين ليقدّم له التفاصيل الكاملة لكي يتّخذ أهبته...

ويُعتبر قيام ابن الأثير بكلّ هذه الأمور والتحقيقات عن أخبار التتار واستخلاص نيّة التتار في غزو الموصل، في حينه، وتقديم النتيجة المخابراتيّة عن ذلك إلى صلاح

الدين الأيّوبيّ، يُعتبر ذلك عملاً مخابراتيًا حربيًّا كاملاً. ويستولي نشاط ابن الأثير وحيويّته ودأبه وتحرّكاته على كلّ وقته، وتمتصّ كلّ اهتماماته، فلا يلقى بالاً لما يحاك من حوله من مؤامرات.

الواقعة الثانية: في عهد "العزيز" و"الناصر" الأيّوبيّين، وكان يتولّى رئاسة الديوان أديب ومؤرّخ مصريّ، وُلد في "قفط" في محافظة "قنا" المصريّة، إسمه "علي بن يوسف الشيباني" وشهرته "القفطي".

ولمّا كان ابن الأثير يتردّد على كلّ الدواوين والمصالح الحكوميّة لينقّب ويبحث عن الأخبار، فقد تعرّف إلى القفطيّ في إحدى زياراته لديوان العزيز، وانبهر القفطيّ من اللحظة الأولى بشخصيّة إبن الأثير المتوثّبة المتحفّزة المفعمة بالحيويّة، الزاخرة باللياقة الجسديّة والنفسيّة وسرعة البديهة، ولكنّ هذا الانبهار ما لبث أن تحوّل إلى حسد في نفس القفطيّ وإلى كراهية.

لم يكن إبن الأثير مهتمًّا بالالتفات إلى مثل هذه الصغائر، بل لعلّه لم يتصوّر أنّ القفطيّ وهو يزعم صداقته، يكنّ له هذه الضغينة والإحقاد، حتّى كان اليوم الذي دعاه ابن الأثير لتناول الطعام في قصره، وما أن دخل القفطيّ القصر حتّى لمح الغلمان والجواري والفخامة وأساليب مبتكرة حديثة في إعداد الشواء بجوار مأدبة الطاعمين، ولم يستطع القفطي أن يكتم دهشته لما يراه من يسر باذخ في حياة ابن الأثير، فأفصح في وقاحة عن كلّ مكنون حسده وغيظه، ومع هذا، أكرم ابن الأثير وفادته، ولم يعاتبه عمّا بدر منه من الغيرة والحقد...

ومع أنّ الذين عاصروا ابن الأثير وأرّخوا لحياته، أجمعوا على أنّه رجل فاضل مشهور بالتقوى والصلاح، إلاّ أنّ القفطيّ خرج عن هذا الاجماع. فقد حدث بعد أيّام من دعوة القفطيّ إلى قصر ابن الأثير، أن التقى الرجلان، فباغت القفطيّ ابن الأثير

باتّهامه بخيانة الأمانة، إذ إنّ "ياقوت الحمويّ"، أحد أقرب الأصدقاء إلى ابن الأثير، كان أوصى قبل وفاته، بتسليم أوراقه ومجموعته الموسوعيّة إلى ابن الأثير، لكي يقوم هذا بتوصيلها وتسليمها إلى وقف الزيدي في بغداد، وقام ابن الأثير بالمهمّة وسافر بنفسه إلى بغداد منفذًا كلّ ما أوصى به ياقوت الحمويّ... ولكنّ القفطيّ لم يقتنع بهذا، بل اتّهم إبن الأثير بأنّه احتجز لنفسه من الكتب ما شاء وسلّم ما تبقّى منها إلى وقف الزيدي، وهنا لم يطق إبن الأثير صبرًا فصاح في القفطيّ: "يبدو أنّك مصمّم على اتّهامي بالسرقة وأنا بدوري لا أسمح لك، لإنّني أدركت الآن أنّك تحقد عليّ وازدادت أحقادك، لأنّ ياقوت الحمويّ اختارني أنا وليس أنت لتنفيذ وصيّته... فالحمويّ، كان يعرف معدنك الرخيص حقّ المعرفة، وما كان ليكلّفك بوصيّة كهذه، وهو يعرف حجم أمانتك"...

حسم المؤرّخون القضيّة، وأثبتوا براءة إبن الأثير من هذه التهمة لأنّ الثابت أنّه لم يكتف بتسليم مكتبة الحمويّ إلى وقف الزيديّ فحسب، بل أجرى بعض ماله على أيتام الوقف.

وقد حظي كتاب ابن الأثير "الكامل في التاريخ" باهتمام واحترام العالم كلّه، واعتبره الباحثون، بل والمؤرّخون أيضًا، أصدق وأدقّ وأعمق ما كُتب عن تلك الحقبة المحفوفة بالأحداث التاريخيّة المهمّة، والتي من أبرزها الحروب الصليبيّة والغزو المغوليّ، وقد صوّرهما إبن الأثير وسجّل دقائق وقائعهما، بأسلوب لم يسبقه إليه أحد.

الأمنُ ودَولة المَدينة في عَهدِ الرَّسول ﷺ

يقول باحثون إنّ الأمن في المفهوم الإسلاميّ، هو تحقيق ونفاذ الشرائع القرآنيّة وقوانين وأدبيّات وأخلاقيّات الإسلام في المجتمع، حيث يُعتبر الأمن واحدًا من غايات الاسلام الكبرى، بل هو الغاية التي تتحقّق بها مفاهيم العبادة للّه الواحد الأحد علىالأرض بشتّى الصور.

وكان المثال التطبيقيّ لمفهوم الأمن في الإسلام، في دولة المدينة، عندما أسّس الرسول ﷺ نموذجًا يُحتذى به، حيث كان هناك تمايز عرقيّ ودينيّ وصراع قبَليّ بداخل المدينة وحولها، وكان هناك مسلمون ومشركون ويهود، منهم من حالف وعاهد وواثق الرسول ﷺ مجذّرًا القواعد الأخلاقيّة للأعراف الإيجابيّة، ومنهم من تمرّد على العهود والمواثيق وأنكر التعامل بها، في محاولة خداع وتضليل للإنقضاض على الإسلام ومنع انتشاره، وكانت مواجهتهم بالقوّة ضرورة لتوحيد الصفّ حيث تتساوى الحقوق والواجبات.

وقد عاهد وواثق الرسول ﷺ يهود المدينة. وأُدخل في المعاهدة المشركون باعتبار وجودهم في المدينة. كما تمّ التعاهد بمواثيق "أمان" مع بعض القبائل المشركة قبل أن تدخل الاسلامَ. ثمّ عكف الرسول ﷺ على تمكين البناء الداخليّ للمسلمين أنفسهم. فآخى بين المهاجرين والأنصار كأفراد، ثمّ عقد عهدًا بين مجموع المهاجرين والأنصار كجماعتَين تعبّران عن المجتمع المسلم بالمدينة، وبدأت عمليّة التآخي بين المهاجرين أنفسهم.

ونُظّمت العلاقات داخل المدينة وحولها وفق شريعة الإسلام السماويّة التي تعمل على تنظيم حياة الناس في المجتمع وفق قواعد أساسها العدل والمساواة، بالرغم من محاولات قريش واليهود والمشركين ضرب دولة الإسلام الناشئة والقضاء عليها، فكانت وسيلتهم إثارة الفتن باستخدام التناقضات القبليّة والعشائريّة والدينيّة والاقتصاديّة لبلبلة الاستقرار المنشود، واغتيال التجربة الإسلاميّة الوليدة، واستمرّت المؤامرات في كلّ اتّجاه حيث جرت عدة محاولات من قبل اليهود والمشركين بهدف الانتقام من الرسول ﷺ عن طريق قتله غيلةً ودسّ السمّ له وقتله عمدًا، إلاّ أن الله سبحانه وتعالى قد حفظ نبيّه ورسوله ﷺ.

ويضيف هؤلاء الباحثون أنّه كانت الدعاية السوداء المضادّة للإسلام والموجّهة ضدّ الرسول ﷺ من أعداء الإسلام بأن قذفوا بعض الاتّهامات الباطلة التي كانوا يوجّهونها بحسب مقتضى الموقف، وقد فشل أعداء الإسلام فشلاً ذريعًا في كشف أسرار المسلمين ونواياهم. إلاّ أنّه لم ترد في تاريخ السيرة النبويّة الكريمة حادثة واحدة انكشف فيها أمر واحد من رجالها، مع أنّ كافّة أسرار وخطط أعداء الإسلام كانت تُبلّغ للرسول ﷺ في وقت مبكّر، ممّا كان يمكّنه من اتّخاذ إجراءات المواجهة وفقًا لطبيعة المسألة وتقدير مهدّداتها ومخاطرها، بالإضافة إلى أنّ الرسول ﷺ كان يهتمّ بالحصول على كافّة المعلومات المختلفة السريّة والعلنيّة عن العدوّ، سواء كان ذلك قبل الاشتباك والقتال في المعركة أو في خلال الحرب.

وكانت المدينة ذات طبيعة وتركيبة خاصّة تحتاج لأمن داخليّ قويّ ومستتير، وفقًا لتعاليم الشريعة الإسلاميّة وتوجيهات الرسول ﷺ حتّى تُحقّق الأهداف ويتمّ الحفاظ عليها، ومقاومة كافّة أنواع الحيل والخدع والتآمر التي تهدف لعرقلة المسيرة.

وهناك ما يستدعي التأمّل واستيعاب دروس الأمن والتأمين في دولة المدينة، وكيف كان يتمّ اكتشاف المؤامرات والأحقاد والمواجهات المسلّحة وأنواع العقوبات والجزاءات التي تُفرض، وهل هي ذات طبيعة ذاتيّة أو أحقاد شخصيّة أو ممارسة روتينيّة للعنف والقسوة، أم أنّها كانت مجموعة من الإجراءات تُفرض حسبما يقتضي الموقف، مع الالتزام التامّ بالوفاء بالعهود والمواثيق.

ويرى هؤلاء الباحثون أنّه يتّضح من القرآن الكريم، وهو دستور الإسلام في المدينة، بأنّه لا توجد في القرآن آية تدلّ أو تشير إلى أنّ القتال قد شُرّع لحمل الناس على اعتناق الإسلام، إنّما سبب القتال دائمًا هو لردّ العدوان وحماية الدعوة وحريّة الدين، فإذا ما شرع القتال نأى عن جوانب الطمع واتّخذ طريقًا إلى السلم والإطمئنان. فإنّ الحرب هي لردّ العدوان والدفاع عن النفس والأهل والمال والوطن والدين. فقد رُوي عن رسول الله ﷺ قوله: "من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد".

ومن عدالة الإسلام أنه اشترط بأن يكون الدفاع وردّ العدوان بمثل ما حدث من الاعتداء به، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿الشهرُ الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمَن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتّقوا الله واعلموا أنّ الله مع المتّقين﴾[1] وأيضًا: الكفّ عن القتال إذا كفّ عنه الأعداء.

ويقول هؤلاء الباحثون إنّه من أجل استحكام التأمين والحيطة عندما حدث غدر اليهود بالرسول ﷺ، تمّ إجلاؤهم عن المدينة. فقد كان النبي ﷺ يستخدم رجلاً من اليهود ليكتب له رسائله بالعبريّة والسريانيّة، وقد خشي النبيّ ﷺ أن يستعمل على أسراره

---

١ - سورة البقرة آية ١٩٤.

يهوديًا، فأمر "زيد بن ثابت" أن يتعلّم السريانيّة والعبريّة فتعلّمهما وبرع فيهما، وأصبح كاتب سرّ النبيّ ﷺ في كلّ شؤونه. وكان الرسول ﷺ في سيره إلى "دومة الجندل" يسير ليلاً ويكمن نهارًا كخطّة للإختفاء والتمويه، حتّى فاجأ القبائل وفرّت هاربة. وكان دور "نعيم بن مسعود" في كتم إسلامه حيث تحرّك وسط قبائل "بني قينقاع" و"بني النضير" و"بني قريظة" و"بني غطفان" وقريش. ونجح نجاحًا باهرًا في تشتيت القبائل التي تجمّعت لمقاتلة المسلمين، وتفرّق شمل الأحزاب ضد الرسول ﷺ. وعند فتح مكّة أصدر الرسول ﷺ العفو العامّ عن قريش وأهل مكّة جميعًا وهو المنتصر، وأمر بإزالة الصور من الكعبة ونظر إلى الأصنام وقال قول الله سبحانه وتعالى:

﴿وقُل جاءَ الحقّ وزُهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقًا﴾[1].

ويلفت هؤلاء الباحثون إلى أنّ مجرّد قراءة السيرة النبويّة برؤية تقتفي أثر علم الأمن والمخابرات وفن الجاسوسيّة، يتمّ الوصول إلى دروس وعبر ومنهج حياة يُستفاد منه إذا تمّ السير على هديه، فاستطاع الرسول ﷺ أن يبتكر الكثير من فنون الحرب والقتال والمعارك، وأيضًا فنون الأمن والمخابرات والجاسوسيّة التي تصلح لكلّ دولة في كلّ زمان ومكان، بما تُقدّم من التجارب والخبرات والدروس والعبر، فقد كان الرسول ﷺ يستعين بأهل الخبرة الحذّاق وأصحاب المعارف الواسعة، حتّى لو كانوا من غير المسلمين. وقد استعمل في هجرته من مكّة إلى المدينة "عبدالله بن أريقط" كما أسلفنا، وفي غزوة خيبر "حيل بن خارجة" و"عبد الله بن نعيم"، وهم من غير المسلمين. وكان الرسول ﷺ لا يدخل معركة إلاّ بعد معرفة حالة العدوّ ومعسكراته ومواقعه العسكريّة وطبيعة الأرض بما يُعرف بالاستكشاف وتحليل المعلومات، قبل

---

١ ـ سورة الاسراء الآية ٨٩.

دخول المعارك الحربيّة. وكان الرسول ﷺ متوقّد الذهن واسع الأفق، فقد أرسل "نعيم بن مسعود" أثناء غزوة الخندق بحيلة ذكيّة لمّاحة ومتقنة حقّقت قدرًا كبيرًا من فشل الأحزاب، بعدما وقع الانشقاق بين اليهود وقريش وأعوانها. وكان الرسول ﷺ يتّخذ الاجراءات السليمة في الحرص على ألاّ تتسرّب الأخبار إلى أعداء الإسلام، ومقاومة جواسيس الأعداء وتعقّبهم ومتابعة نشاطهم لأنّ الرسول ﷺ كان يدرك جيّدًا مدى أهميّة علم العدوّ بالمعلومات عن حركة المسلمين. وكان الرسول ﷺ حريصًا على سريّة أمور الحرب وإدارة المعارك وخطط القتال. وكان يتعامل بأسلوب الرقابة الدقيق لمنع تسرّب المعلومات، وقد استطاع الرسول ﷺ اختراع وابتكار أسلوب "الأوامر المختومة" في رسائله التي كان يحملها المكلّف بما فيها ولا يفتحها إلاّ في مكان معيّن وزمان معيّن، وهذا ما حدث في سريّة "عبدالله بن جحش". وكان الرسول ﷺ يهتمّ كثيرًا بأسلوب الرصد وجمع المعلومات عن العدوّ. وكان استعمال الرسول ﷺ للشيفرة لإخفاء الحركة عن العدوّ. وكان حسن اختياره الرجال المكلّفين بمهمّة الحصول على المعلومات، فقد كانت المعلومات، وبشكل دائم، تأتيه صحيحة ودقيقة.

وينهي هؤلاء الباحثون بالقول بأنّ عمليّة إدارة الأمن في دولة المدينة كانت عمليّة متكاملة تجمع كلّ ما يختصّ بأمن المواطنين وسلامتهم داخل إطار الدولة، التي كانت أيضًا مركز جمع المعلومات والتجسّس على العدوّ، وكذلك العمل المستمرّ لاكتشاف جواسيس أعداء الإسلام ومحاصرتهم. وكان الرسول ﷺ يقود هذا العمل ويوجّهه لصالح الإسلام والمسلمين وفقًا لقواعد من العدل، وبعيدًا عن الظلم والقسر والاضطهاد، حيث أصبحت إدارة دولة المدينة نموذجًا إنسانيًّا رائعًا يهدف للوصول إليه كل الذين يريدون البحث عن الحياة الآمنة المطمئنّة المسالمة التي تدار وفق شريعة سماوية لها السموّ الذي يفوق القواعد القانونيّة التي يضعها الإنسان، لتمكّنه من أداء

مصالحه وقهر الآخرين، لأنّ تلك القوانين السماويّة تتّصف بالعدل والمساواة، وهي غير قابلة للنقص أو الزيادة أو التصحيح أو التعديل أو التصويب والتحريف، حيث القرآن شريعة المجتمع والمسلم وينظّم حياة الناس فيه[1].

والجاسوس بالنسبة للمسلمين إمّا أن يكون مسلمًا مجاهدًا في سبيل الله يجمع المعلومات عن العدوّ لصالح المسلمين، ويخلص لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين فيستحقّ التقدير والمكافأة من القادة والمسؤولين، وإمّا أن يكون عدوًا لهم سواء أكان أجنبيًّا أم من بين المسلمين، حيث أنّ الجاسوس المسلم الذي ينقل أخبار المسلمين للعدوّ أشدّ خطورة من جاسوس الأعداء.

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٣٧٧ ـ ٣٨٠.

جواسيسُ المغُول

التجسّس واقع، وهو موجود منذ وجدت الإنسانيّة. أقدم الكتب يذكر الجاسوس ونشاطه... وأقدم مؤلّف عن فنون الحرب كتاب لـ"سون تسو" الصينيّ... وكان سون تسو أوّل من حدّد تعريف التجسّس، ونظم قوانينه. ويخصّص جزءًا كبيرًا من مؤلّفه للعملاء السريّين، وأساليب عملهم، والأسلحة التي كانوا يستعملونها...

وتحفظ لنا المدوّنات أسماء لامعة لجواسيس مغول كبار لعبوا دورًا مهمًّا إلى جانب قائدهم جنكزخان (١١٦٧ ـ ١٢٢٧) منشئ الأمبراطوريّة المغوليّة التي انتشرت في العالم أجمع وهزّ بفتوحاته أركان الدول جميعًا في ما بين الصين والبحر الأسود. ومن أبرز تلك الأسماء قائده "نويون"، الذي كان على رأس قوّة من الفرسان أرسلها جنكزخان إلى أمبراطور الصين بحجّة مساعدته، ولكنّها في الواقع كانت عاملاً فعّالاً في سيطرة جنكزخان على المملكة الصينيّة.

وجاء في بعض الأبحاث أنّ المغول استخدموا الرجال والنساء والأطفال كي يخترقوا قوى جيوش الأعداء لجمع المعلومات، وأشار الصينيّون إلى أهميّة عمليّات التجسّس الجيّدة التي تستبق الحرب وفنونها.

واعتبر باحثون أنّ جنكزخان كان يفهم شيئًا أساسيًّا في الحرب: "لا قتال بلا غدر، ولا نصر في الحرب إلاّ عن طريق الغدر"... فمنذ سبعة آلاف سنة من التاريخ، وقبل جنكزخان بكثير، لم يُذكر أنّ المعارك وقعت والحروب ازدهرت على أنغام الموسيقى الحالمة وعلى رقص الملائكة المتّشحين بالنسيج الأبيض...

والغدر بدايته بسيطة... جنكزخان لم يتقدّم قدمًا واحدًا من قلب مونغوليا على حدود سيبيريا... ولم تصل جيوش حفيده تيمورلنك بعد ذلك إلى أسوار دمشق، إلاّ بعد استكشاف الأرض والمواقع وبعد التوسّع في معرفة قوّة الخصم عددًا وعدّة، وبعد تفهّم الأمكنة التي ترابط فيها جيوش العدوّ، وبعد دراسة نقاط الضعف ومجالات التفريق والتقسيم في صفوف هذه الجيوش...

بتعبير أكثر حداثة، جيوش التتر المغول لم تحارب إلاّ بعد تأمين الاستخبارات الكافية عن العدوّ، ولم تنتصر إلاّ لأنّها مارست قوّة الفكر قبل أن تمارس قوّة البدن. المعرفة والتخابر في خدمة الغدر، والغدر هو أساس القتال... أمّا الحقّ والعدل والشهامة والمروءة.وكلّ هذه الأقوال من الكلام المعسول لا تؤمّن أيّ انتصار في الحرب.

في هذه الأيام، ونحن في بداية الألفيّة الثالثة، وفي عصر احتمالات الحرب النوويّة، لا يزال الغدر هو الأساس... الغدر، بتعبير مبسّط، هو أخذ المبادرة، وفي اللحظة المناسبة، لإنزال الضربة الأولى[١]...

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧) ٥: ٤٦ ـ ٤٧.

الجَاسوُسيَّة في الغَربِ القَديم

وكما في الشرق كذلك في الغرب حيث كانت أعمال الجاسوسيّة تتطوّر مع تطوّر الحروب واتّساعها. وفي القرون الوسطى عرفت أوروبّا مثلاً شعبيًّا كان شائعًا، وهو يقول: "حين تعرف ما سوف يفعله عدوّك تصبح قادرًا على التغلّب عليه". وأشهر إنجازات الجاسوسيّة في الغرب خلال القرون الوسطى تمكّن الجاسوس "بيير كوشون" العامل لمصلحة الإنكليز من تزويد أسياده بالمعلومات التي مكّنتهم من أسر المناضلة الفرنسيّة الكبيرة جان دارك (١٤١٢ ـ ١٤٣١) وإحراقها في روان.

وكان أحد كبار رجال السياسة الفرنسيّين الكاردينال "ريشليو Richelieu" (١٥٨٥ ـ ١٦٤٢) يغري جواسيسه ليعملوا لحسابه داخل الفاتيكان وانكلترا، حيث أصبحت الجاسوسيّة فنًّا من فنون الحرب والمؤامرات من خلال جمع المعلومات واستخدامها من أجل إحداث انتصار على الخصم، وهذا ما كان شائعًا على مرّ العصور ووسط كافّة الشعوب.

وفي القرن السادس عشر، طوّر السير "فرنسيس والنغهام" وزير خارجيّة انكلترا شبكة من عشرات العملاء والجواسيس في الخارج، وأرسل بهم عبر أوروبّا والشرق الأوسط، وقام بتجنيد معظم العملاء من الذين لديهم القدرة على التحدّث باللّغات الأجنبيّة والاستعداد للمعيشة في الخارج بدون مساعدة من جانب الحكومة، وممّن لديهم المهارة والخبرة في اختراق الحكومات الأخرى، وقام بتدريبهم على الأنشطة السريّة وعلّمهم فكّ رموز الشيفرات والمهارات الأساسية الأخرى، لذا فإنّه يعتبر مؤسّسًا

لأركـان أوّل منظّمـة مخـابرات حديثـة فـي العـالم، حيث اعتُبرت الجاسوسيّة "العمـود الفقريّ" لأيّ دولة تسعى للحفاظ على وجودها وتطوّرها وتقدّمها.

وتستمرّ الجاسوسيّة متطوّرة عبر التاريخ، وتضحي شيئًا فشيئًا مـن أهـم عنـاصر الجيوش المنظّمة، وإنّ فردريك فيلهام الأول (١٦٨٨ ـ ١٧٤٠) ملك بروسيا ١٧١٣ ـ ١٧٤٠ ومنشئ الجيش النظاميّ القويّ وواضـع الأسـس العسـكريّة التـي انطلقت منهـا دولة بروسيا، يقول مفاخرًا: "إنّ زميلي قائد جيش العدوّ يذهب إلى الحرب يتقدّمه مائـة من الطبّاخين، أمّا أنا فيتقدّمني مائة من الجواسيس"[1].

قيل عن حروب نابوليون إنّ التجسّس فيهـا كـان مـن أهمّ عنـاصر نجاحهـا. حتّى اليوم لا تـزال كتب التـاريخ تشـدّد علـى الإشـارة إلـى دور رئيـس أركـان نـابوليون الماريشال "لويس ألكسـندر برتييـه" الـذي كـان لا يخـوض المعـارك إلاّ إذا حـاول قـدر الإمكان جمع المعلومات الكافية عن جيوش الأعداء.

فـي جيـوش نـابوليون، بـرز إسـمان: "جوزيـف فوشيـه"، و"رينيـه سـافاري". كانـا بارعين في التزوّد بالأخبار عن الأعداء وفـي إقامـة شبكة منتظمـة مـن الجواسـيس أو الكشّافين العسكريّين وبالشكل الذي جعل من شبكة كهذه دائرة قائمة بذاتها.

ومع ذلك فقد وقع كبار القادة عند نابوليون في خطأ فادح ومصـيريّ ذات مـرّة... قبل وقوع معركة "واترلو" بثمـان وأربعين سـاعة، وبعـد موقعتـي "لينيـي" و"كـاتربرا"، انسحب الجنرال فلدمارشال البروسي "غيبهارت بلوشر" إلى مكان لم يعرفه الفرنسيّون، وبعد ثمان وأربعين ساعة، فـي ١٨ حزيـران ـ يونيـو ١٨١٥، وقعت معركـة واترلـو الفاصلـة... وانحـدر مـن انحـدر، وارتفـع مـن ارتفـع. والإنكليز أيضًـا أورد التـاريخ

---

١ ـ زهر الدين، موسوعة الأمن، ١:٩.

اهتماماتهم بالتجسّس العسكريّ الواسع منذ زمن بعيد. في القرن السابع عشر كان كلّ همّهم أن يعرفوا مدى قوّة الأسطول الإسبانيّ الذي ينازعهم السيطرة على المستعمرات في العالم. خاضوا معركة تجسّس طويلة النفس وركّزوا جواسيسهم حتّى في قلب البلاط الإسبانيّ وخرجوا بالنتيجة التي كانوا يسعون إليها، وهي تحطيم الأسطول الإسباني والقضاء على شوكة إسبانيا[1].

---

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ص١٩ ـ ٢٠.

الجاسوسيّة القديمة والرّموز

بما أنّ الأعمال الجاسوسيّة ترتدي طابع السريّة التامّة في مهامّها، فقد كان لا بدّ لها من استعمال الرموز في مخابراتها. وقد تعدّدت الرموز عبر التاريخ وتنوّعت. ومثلما ربطت الجاسوسيّة بالشامان بوصفهما أقدم المهن في العالم مع مهنة البغاء، كذلك ارتبطت الكتابات السريّة والمرمّزة بالسحر والشعوذة. ذلك أنّ الرمز كان يعني أمرًا سريًّا يحيطه المجهول.

ومن الرموز التي استعملت في القديم لنقل الرسائل بين الجيوش، الإشارات الناريّة التي كانت تستعمل من قبل الأموريّين في حوالى الألف السابع عشر قبل الميلاد كتدبير دفاعيّ وطنيّ أو كوسيلة سريعة للأنباء، كما كشفت لنا محفوظات مدينة ماري[1].

ويروي باحثون[2] أنّه ذات يوم منذ أربعة آلاف سنة، وفي مدينة تدعى "منية خوفو" على ضفاف النيل، قصّت إحدى المخطوطات الهيروغليفيّة تاريخ أحد فراعنة ذلك الزمان، وكانت تلك المخطوطة أوّل كلمات تسطّر في تاريخ حلّ الرموز الطويل، فقد ظهر أنّ تلك الكتابة كانت أولى كتابة هيروغليفيّة مختلفة عن سواها من الكتابات الهيروغليفيّة المألوفة والمعروفة آنذاك، وهذا ما يفسّر علاقتها بلغات الرموز وما آلت إليه اليوم بعد تطوّر مستمرّ تعود بداياته إلى ذلك العصر

---

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ٧٣.

٢ - الجزائري سعيد، تاريخ التجسّس في العالم، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧) ص٥.

الغابر[1]. وإذ تبيّن للدارسين أنّ تلك المخطوطة لم تكن تهدف إلى إخفاء معلومات حتّى توضع بلغة مختلفة عن السائد في عصرها، بل إلى إضفاء طابع من الرسميّة على المكان، كما لو كانت قرارًا حكوميًّا أو تشريعًا صادرًا عن أعلى سلطة في الدولة، تلك هي الأسباب التي أعطتها قيمتها التاريخيّة المميّزة كأوّل نصّ وجد مكتوبًا في تاريخ المخطوطات السريّة. وهذا يعني أنّه منذ أربعة آلاف سنة كان الفراعنة يستعملون نوعًا من الشيفرة في بعض كتاباتهم، أي أنّ الجاسوسيّة كانت موجودة عندهم بامتياز. كذلك استعمل المصريّون كتابات رمزيّة بصيغ متنوّعة في المدوّنات الجنائزيّة التي حواها كتاب الأموات الخاص بالفرعون ستهي الأوّل في الأقصر، بهدف تدوين معلومات سريّة لإضفاء الطابع السحريّ عن طريق الغموض، بغية استجلاب الهيبة والبركة وإحاطة مَن نقشت المخطوطة على قبره بهما. غير أنّ هذه المخطوطات السريّة تعتبر، على الرغم من شحّها، بداية تاريخيّة لعالم المخابرات. ويكفي لارتباطها بهذا العالم، إحتواء نصوصها على العنصرين المكوّنين لها وهما: الاستبدال والسريّة.

تحتمس، الذي قام بتنظيم أوّل جهاز تجسّس حكوميّ رسميّ في التاريخ، وهي فكرة جديدة احتال عليها في الكتابات الهيروغليفيّة التي سجّلت الانتصارات في عهده، وحرص على تصنيف أعماله البطوليّة في التجسّس تحت عنوان "العلوم السريّة"، وجاءت أعمال تحتمس الثالث في التجسّس على هيئة ملاحظات ثانويّة إلى جانب بعض الانجازات التي اعتبرها كبرى، مثل بناء المدن وتعبئة مخازن الحنطة لتوفير الطعام لشعبه. ويعتبر باحثون أنّ تحوتمس الثالث الذي استعمل الجاسوسيّة المبكّرة بشكل رسميّ ومنظّم، قد يكون اعتبر أنّ هناك أمرًا رديئًا في عمليّة الاستطلاع المتطفّل حتّى

---

١ ـ نقشت هذه المخطوطة في العام ١٩٠٠ ق.م. على قبر خوفو موتب الثاني إلى جانب ٢٢٢ عمودًا كانت تحيط بالمقبرة، لم يبق منها سوى عشرين فقط.

لو كان ذلك استطلاعًا على أعدائه، ففضّل أن يخلّد اسمه من خلال تسجيل سوى ذلك من الانجازات من فنون وإدارة وشؤون دولة[1].

ويستمرّ اكتشاف الأبجديّات المصريّة البديلة في مصر في خلال القرن السابع، إذ اكتشف في دير "أبيفان" العائد إلى ذلك العصر، في منطقة الشيخ عبد الضرنة بمصر العليا، لوحة خشبيّة في حجرة راهب إسمه الياس، طولها ثلاثون سنتمترًا وعرضها عشرة، كتب عليها بالحبر الأسود نصّ من سطرين بأبجديّة يونانيّة ـ قبطيّة بديلة. هذه اللوحة التي نقلت إلى متحف نيويورك، تعتبر أقدم أبجديّة بديلة في العالم، باعتبار أنّ اللوحات العائدة إلى حقبات أقدم، والتي استعملت فيها كتابات مرمّزة، تدخل في نطاق الترميز السريّ المبنيّ على الأحرف الرموز لا على الأبجديّة[2].

وفي الهند تتحدّث المدوّنات العائدة إلى الألف الرابع قبل الميلاد عن "كتابات سريّة" كان على السفراء تعلّم فكّ رموزها.

أمّا في الصين فقد كانت الكتابة الصينيّة بحدّ ذاتها رموزًا يمكن استبدالها ببساطة من خلال اتفاق بين المرسل والمرسل إليه.

وفي بلاد ما بين النهرين ظهرت أقدم عمليّة فكّ رموز على لوحة من الآجر مساحتها ٤٠ سم٢، يعود تاريخها إلى أواسط الألف الثاني قبل الميلاد. هذه اللوحة التي وجدت في سيلوسيا على ضفاف دجلة، كانت مطليّة بمادّة هي الأولى من نوعها في التاريخ. وقد استخدم الطلاء على ما يبدو بهدف إخفاء الرموز المدوّنة على اللوحة،

---

١ ـ فولكمان، الجواسيس، ص١٠.

٢ ـ الجزائري، تاريخ التجسّس في العالم، ص١٠.

وهي رموز لم يتمكّن العلم فكّها حتّى اليوم. ويؤكّد أهل الاختصاص على أنّ تلك اللوحة كانت رسالة سريّة مرمّزة مستعملة في أغراض تجسّسيّة.

وفي التقليد العبريّ استبدالات ثلاث في كتابات العهد القديم، ما يعني اتّباع السريّة لأسباب أمنيّة دون شك، وإن كانت الكتابات المعنيّة تختصّ بالدين. ذلك أنّ العبرانيّين كانوا يحجبون ما في كتبهم عن الأمم الغريبة مخافة أن تتّضح معتقداتهم التوسعيّة على حساب سائر شعوب المنطقة.

ومن أقدم الرسائل الرموز تلك التي ذكرتها الألياذة إشارة من هوميروس إلى رسالة مرمّزة بعث بها الملك "بروتس" إلى عمّه "أيوباتيس" مع "بيليروفون" وفيها إيعاز سرّي مرمّز إلى "إيوباتيس" بقتل حامل الرسالة لأنّه راود زوجة الملك عن نفسها كما ادّعت الزوجة. هذه الإشارة، وإن كانت قد جاءت في قالب شعريّ على لسان هوميروس، من شأنها أن تفيد عن أنّ الكتابات المرمّزة كانت معروفة في ذلك التاريخ، وأنّ تعزّز المقولات التي تفيد بأنّ الرسائل المرمّزة قد استعملت في الحروب التي جرت قديمًا بين الفرس واليونان، وأنّ تلك الرسائل كانت تنقل في أحشاء الطرائد، أو تكتب على جلدة رأس حلق شعرها وأرسل صاحبها إلى المرسل إليه بعد أن يكون شعر رأسه قد نبت من جديد وغطّى الكتابة السريّة.

ويذكر "إيناس" في كتاباته أن هيرودوت كانت تستبدل في بعض كتاباتها السريّة الأحرف بالنقاط أو الثقوب، وقد اكتشفت حديثًا إحدى هذه الرسائل وتبيّن أنّها تحوي ثقوبًا بواسطة دبّوس على الأحرف التي تؤلّف بتسلسلها الرسالة المطلوب إيصالها، وذلك في كتاب مضمونه بعيد عن الشبهة. وقد دامت هذه الطريقة مستعملة في أعمال التخابر السريّ حتّى عهد قريب.

كما استنبط الكاتب اليونانيّ بوليب جدولاً لاستبدال الكلمات بالحروف، شبيه بلوحة الكلمات المتقاطعة، توضع عليه الأبجديّة متسلسلة في الخانات أفقيًا، ويأتي ترقيم الحروف من الرقمين الأفقي والعمودي اللذين يقع في خانتهما الحرف المعيّن. ويقال أنّ أوّل من استعمل جدول بوليب في الأمور العسكريّة كان يوليوس قيصر في حرب الغول، وذلك ضمن رسالة بعث بها إلى شيشرون. وإنّه كان لهذه الرسالة فضل كبير في انتصار الرومان في تلك الحرب، إذ جعلت شيشرون يصمد بعد أن قرأ أنّ النجدة آتية خلال وقت قصير.

والمقول أيضًا إنّ يوليوس قيصر قد أدخل تعديلات على جدول بوليب، فكان أوّل من استعمل الأبجديّة البديلة من خلال استبدال الحرف في الجدول بالحرف الثالث الذي يليه، أي أنّ الباء تستبدل بالجيم، والتاء بالحاء... وقد عُرفت هذه الطريقة بأبجديّة يوليوس قيصر.

أمّا الفرس، فقد استخدموا الكتابات السريّة لأهداف دبلوماسيّة في خلال الألف قبل الميلاد. وقد عرفت هذه الكتابة باسم "شاه دابيريا" ومعناها لغة الملوك، إذ إنّها كثيرًا ما كانت تستعمل في المراسلات الملكيّة. وهناك كتابة رمزيّة فارسيّة أخرى اقتصر استعمالها على مراسلات الملوك دون سواهم، عرفت باسم "راز سهريا".

كما اكتشفت في "سوز" الواقعة اليوم في إيران، لوحات تحمل رموزًا مبنيّة على قاعدة واضحة بالمقابلة بين الأصل والرمز، استعملت فيها بدائل الرموز، وهي الطريقة التي لا تزال مستعملة إلى اليوم على القاعدة عينها.

وتتحدّث المدوّنات عن أنّ بعض الرهبان قد ابتدعوا أبجديات بديلة في أوروبا في خلال الألف الأوّل للميلاد.

ويعتبر باحثون[1] أنّ العرب هم أوّل من أوجد علمًا منهجيًّا للرموز بالمعنى الصحيح للكلمة. ففي العام ٢٤١هـ/ ٨٥٥م، أشار العالم أبو بكر بن وحشيّة إلى عدّة أبجديّات سريّة تقليديّة تستعمل في خدمة السحر وذلك في كتابه "شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام"، كما يعتبرون أنّ الـ"أبجديّة الداوديّة" كما سميّت آنذاك، والتي عرفت أيضًا بالـ"أبجديّة الروحانيّة"، ليست سوى أبجديّة عربيّة محرّفة، وقد كانت تعتبر الأبجديّة السحريّة الأفضل. أمّا في الأمور السياسيّة، فلم تمارس الدول الإسلاميّة في البداية إلاّ نادرًا فكّ الرموز، وقد يكون مردّ ذلك إلى عدم اعتماد سفراء بين تلك الدول والدول الأجنبيّة لحقبات متمادية من الزمن.

غير أنّ القلقشندي الذي وضع مؤلّفه الموسوعي "صبح الأعشى" سنة ١٤١٢م، قد كتب في الجزء المعنون "إخفاء المعلومات السريّة في الرسائل"، متحدّثًا عن قسمين: القسم الأوّل يختصّ بالرموز والاصطلاحات، والثاني بالحبر السرّي وفكّ الرموز، مستندًا في ذلك إلى كتابات علي بن الدويهم (١٣١٢ - ١٣٦١) الذي شغل مناصب عدّة في الإدارة والتدريس لدى المماليك في سوريا ومصر.

يبدو واضحًا من تلك الكتابات أنّها كانت هذه المرّة مستعملة في شؤون إستخباراتيّة وحربيّة وتجسّسيّة، وليس في شؤون سحريّة وتعويذيّة. فقد جاء فيها أنّ "العدوّ يسعى لزرع أيّ عائق بين المرسل والمرسل إليه، بين سلطتين أو شخصين". وجاء أيضًا أنّه "يُلجأ إلى السريّة والرمزيّة في الكتابة عندما تكون الطرق غير آمنة بسبب مراقبة البريد عليها". ثمّ يشرح طرقًا في الاستبدال، وفي فكّ الكتابات المرمّزة، فيقول إنّ محلّل الرموز يجب أن يكون ضليعًا في اللغة التي كتبت بها.

---

١ - الجزائري، تاريخ التجسّس في العالم، دار الجيل، ص١١.

الفصل الثَّالث

الأجهزَة والعنَاصر

الإستخبَاراتُ عالَم قَائم في ذَاته

في البدء كان التجسّس العسكريّ، وكان التجسّس العسكريّ هو الأهمّ، وكان محصورًا في الغالب بالحقبة التي تقع فيها الحرب.

اليوم، تنوّعت الحروب وتنوّعت الاستخبارات.

اليوم، صار يهمّ كلّ دولة مهتمّة بمصيرها أن تعلم ماذا يجري في الدول الأخرى في الحقول الاجتماعيّة والصناعيّة والزراعيّة والتطويريّة عامّة والسياسيّة وحتّى النقابيّة والطالبيّة.

اليوم، صار من تعابيرنا ما يسمّى الحرب الحامية والحرب الباردة وما يسمّى الهدنة بين دولتين وما يسمّى عدم وجود معاهدة صلح بين دولتين وما يسمّى عدم اعتراف هذه الدولة بوجود تلك...

الحرب الحامية هي وحدها الحرب "الممتازة" التي تقارَن بأيّ حرب ماضية بالمعنى المعروف. ولكن ماذا من أمر الأصناف الباقية؟ أليست حروبًا بشكل أو بآخر؟ الدولة التي هي في هدنة مع دولة أخرى، والدولة التي ليس بينها وبين الدولة الأخرى معاهدة صلح، والدولة التي لا تعترف بوجود دولة أخرى: أليست هذه التصنيفات كلّها دليلاً على وجود حال من العداء أو من الحرب بتصنيف أو بآخر؟

على هذا الأساس، ينصّ "منطق الدولة" هذه الأيّام على القول إنّ المخطّطين العسكريّين صاروا يضعون برامجهم في التحصّن والتسلّح والتدريب

والهجوم ارتكازًا على معرفتهم بعناصر متجمّعة لديهم عمّا لدى الدولة العدوّة في جميع الحقول.

رئاسة الأركان في الدولة التي تحترم نفسها هي التي تسعى إلى معرفة أوضاع كثيرة، غير تلك العسكريّة الصرفة، لدى العدوّ المباشر. مثلاً: كيف هي أوضاع الصحّة العامّة؟ ما هو مقدار تفشّي الأمراض الوبائيّة أو الجلديّة؟ ما هو مقدار توافر المياه؟ ما هي الزراعات التي يعيش عليها العدوّ؟ ما هي مصانعه؟ إلى أيّ حدّ تصل القدرة الإنتاجيّة عند العمّال؟ ما هي أوضاع العمّال المعيشيّة؟ هل يمكن تحريكهم لإعلان الإضراب في الوقت اللازم لدحرجة إنتاج البلاد إلى الهوّة؟ ما هو الوضع النفساني في البلاد؟ هل المواطنون مطمئنّون إلى سلامتهم؟ هل يؤيّدون حكومتهم؟ هل يفضّلون أيّ حكم ولو احتلاليّ على حكمها؟...

إلى أيّ حدّ يستعدّ الأفراد للخيانة بسبب نقمتهم على الحكم القائم؟ إلى أيّ حدّ، رغم الخيانة، يتقبّلون هجوم جيش أجنبيّ وتمركزه عندهم كمحتل؟ ما هي مشاكلهم المعيشيّة التي يمكن أن يحلّها لهم جيش محتلّ حتّى يتعايشوا ويتعاونوا معه؟

ثمّ وكذلك: ما هو معاش الجنديّ؟ ما هي ترتيبات حكومته لتجعله يطمئنّ إلى عيلته إذا جُرح أو أُسر؟ مع أنّ صحّته جيّدة وأعصابه ممتازة، هل تمكن خلخلته نفسانيًّا حتّى لا يقاتل؟ ما هو نوع سلاحه ومبلغ ذخيرته؟ هل يطمئنّ إلى الشعب الذي يقاتل من أجله؟ هل بينه وبين سائر الشعب تجاوب؟ هل يقاتل من أجل شعب بلاده؟ هل أصبح جنديًّا للاعتياش أم أنّه جنديّ في سبيل الحفاظ على الوطن؟ هل له عقيدة سياسيّة أو وطنيّة عامّة ثابتة؟ هل يثق بالضابط الذي يقوده؟ ما هي الهوّة النفسانيّة التي يمكن حفرها بينه وبين ضابطه؟

الأسئلة لا تنتهي، لكنّها كلّها تطرحها على نفسها أيّ هيئة أركان محترمة في هذا العصر. كلّ الأجوبة على هذه المتطلّبات لا تأتي إلاّ بعمل إستخباريّ شامل.

خريطة عن المجاري الصحيّة لها أهميّتها... خريطة عن إمدادات الكهرباء لها أهميّتها. خريطة عن قساطل المياه الرئيسيّة والفرعيّة لها أهميّتها. خريطة عن شبكات الطرق لها أهميّتها. لائحة بأسماء مخاتير القرى لها أهميّتها. دراسة عن مدخول الفرد في المدينة ومدخوله في القرية لها أهميّتها...

مسائل من هذا النوع هي دائمًا مفيدة لكلّ خصم. إنّها لا تهمّ رئاسة الأركان وحدها، بل تهمّ الوزارات المتعدّدة في الدولة.

المسائل الصناعيّة تكاد أن تكون كافية وحدها كدافع لإنشاء الاستخبارات. كلّ الدول في هذا العصر تريد أن تتقدّم صناعيًّا. الصناعة صارت أشبه بعقدة النقص عند بعض الدول نصف المتقدّمة أو شبه المتقدّمة أو حتّى المتقدّمة كليًّا. كلّ دولة، مهما كان تصنيفها صناعيًّا، تريد في العصر الحاضر أن يزداد تقدّمها الصناعيّ، ومع التقدّم الصناعيّ يكرج التقدّم العلميّ والعكس بالعكس. ومع التقدّم الصناعيّ تُحلّ مشاكل كثيرة تتعلّق بتشغيل الناس ورفع مستواهم المعيشيّ وزيادة تقدّمهم الاجتماعيّ وتنسيق إدارتهم النقابيّة والحكوميّة.

من التجسّس الصناعيّ والعلميّ وحده هذه الأيّام، قد تصل أيّ دولة إلى معرفة ما لدى الدولة الأخرى من إمكانات القوّة الدفاعيّة أو الهجوميّة. الجائع والمحتاج والعاطل عن العمل والمهترئ عصبيًّا ليس، ولا يمكن أن يصبح، جنديًّا بقياسات ومتطلّبات حروب القرن الحادي والعشرين. الفلاّح لا يمكن بين ليلة وضحاها أن يقف وراء الدماغ الإلكترونيّ.

الإحصاءات جزء من الاستخبارات. الدراسات العلميّة جزء آخر من الاستخبارات. معرفة أيّ تطوّر طبّي في جراحة الكلية، مثلاً، جزء ثالث من الاستخبارات...

الاستخبارات، ما الذي لا تشمله أو يمكن أن يبقى بعيدًا عن ميدانها في هذا العصر الذي وصلنا إليه؟

الاستخبارات باتت جزءًا أساسيًا من هيكل الإدارة الحكوميّة، وفعلاً تمارسه الدول الكبرى في جملة الأفعال التي تمارسها عن طريق الوزارات القائمة في حكوماتها.

الاستخبارات عالم قائم في ذاته، وهي تحتاج إلى جهاز تنفيذيّ. وما كان منها في ما وراء حدود أيّ بلد، فهو ما تقوم به السفارة المعنيّة في ما وراء هذه الحدود. كذا، شرعًا وقانونًا وضمن حصانة في نطاق المعقول[١].

---

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ص٢٥ ـ ٢٧.

الجَاسوسيَّةُ والمخَابَرات

للتجسّس أشكال متعدّدة: عسكريّ، سياسيّ، إقتصاديّ، استراتيجيّ، قوميّ، تكتيكيّ قتالي، تكنولوجيّ... بالإضافة إلى التجسّس المضادّ.

والجاسوسيّة في وصفها القانونيّ هي العمل سرًّا وبإدّعاء كاذب ليستولي شخص، أو يحاول الاستيلاء على معلومات سريّة وحيويّة بغرض إيصالها إلى الأعداء.

وقد نصّت إتفاقيّة "لاهاي" الدوليّة المعقودة عام ١٩٠٧ على محاكمة المتّهم بالجاسوسيّة والحكم عليه بما يتناسب مع ما قام به من جرائم التجسّس بما في ذلك حكم الإعدام... ولا يُعدّ من الجواسيس، الجنود الذين يُقبض عليهم في مناطق الأعداء ما داموا لا يخفون شخصيّاتهم ولو كانوا يحاولون الاستيلاء على معلومات، أو الجنود الذين يُقبض عليهم وهم يعملون في نقل المعلومات أو المراسلات، أو الذين يهبطون بالمظلّات.

أمّا في زمن السلم فيُعدّ "جاسوسًا" كلّ من يحاول الاستيلاء على معلومات خاصّة بالقوّات المسلّحة والذخائر أو التحصينات أو أيٍّ من الوسائل الدفاعيّة بقصد إيصالها إلى دولة أخرى.

يُستنتج مما سبق أن التجسّس هو البحث والتفتيش عمّا يُخفى من الأخبار والمعلومات السريّة الخاصّة بالعدوّ بواسطة أجهزة التجسّس بقصد الإطّلاع عليها والاستفادة منها في إعداد خطّة المواجهة.

أمّا مصطلح المخابرات، فكثيرًا ما يُستخدم استخدامًا مزدوجًا، فهو يعني أحيانًا "عمليّات المخابرات نفسها"، وأحيانًا أخرى "نتائج وثمار هذه العمليّات" التي تعرّف على أنّها "المعرفة والعلم بالمعلومات التي يجب أن تتوفّر لدى كبار المسؤولين من المدنيّين والعسكريّين حتى يمكنهم العمل لتأمين وسلامة الأمن القوميّ"، وأيضًا "الحصول على كلّ الأمور التي يجب أن تُعرف قبل البدء في العمل، ومقدّمةً لتنظيم خطّة العمل". فإنّ توافر المعلومات لواضع القرار، ضروريّ للغاية، ومن شأن المخابرات الجيّدة أن تقلّل من متاعب اتّخاذ الرأي وصنع القرار وصياغته.

وجاء في "قاموس المصطلحات العسكريّة الأميركيّة" أنّ "المخابرات هي نتيجة جمع وتقييم وتحليل وإيضاح وتفسير كلّ ما يمكن الحصول عليه من معلومات لها صلة بدولة أجنبيّة، أو بمناطق العمليّات، وهي المعلومات التي تكون لازمة لزومًا مباشرًا للتخطيط".

وتعرّف مفاهيم اللغة المخابرات بأنّها "المعلومات المنقولة التي لا تبقى في ذهن شخص واحد، ولكنّها تُنقل منه إلى غيره". كما توصف المخابرات أيضًا بأنّها "المعلومات المقدّرة للقيمة، والبيانات ذات المعنى التي تمّ اختيارها وتفسيرها بطريقة تجعل هناك أهميّة بما يخصّ مشكلة السياسات القوميّة"

وتعرّف دائرة المعارف البريطانيّة المخابرات بأنّها "الحصول على المعلومات عن خصم أو حتّى عن حليف أو عن دولة محايدة"، والمخابرات المضادّة بأنّها "عبارة عن تأمين الأسرار الخاصّة بالدولة ذاتها".

وتهتم المخابرات أساسًا بمسائل الحرب والدفاع وجمع المعلومات الدبلوماسيّة والاقتصاديّة والصناعيّة وتأمين تلك المعلومات. وهناك اتّفاق على أن المخابرات تتعامل مع المعلومات في مراحل متعدّدة، وتضعها في الشكل الذي يجعلها ذات فائدة.

كما أنّ هناك وجهة نظر توضح أنّ مسألة الحصـول علـى المعلومـات وجمعهـا شـيء، وتصنيف وإيضاح هذه المعلومات شيء آخر، أما مسألة استخدامها فأمر ثـالث يخضـع لقواعد وأسس تقدّر أهميّتها حسب رؤية النظام السياسيّ للدولة[1].

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٥٤ ـ ٥٨.

جهازُ المخابَرات

كلّ دولة في هذا العالم لها جهاز أو أجهزة مخابرات أو استخبارات. منها ما هي كبيرة، ومنها ما هي صغيرة، لكنّها على أيّ حال قائمة.

جهاز الاستخبارات يستهدف بالدرجة الأولى الاستعلام الخارجيّ، أي خارج حدود بلاده. أيّ جهاز داخليّ مشابه يصبح جهاز أمن. التسميات تتغيّر من بلاد إلى أخرى لكنّ التفريق الأساسيّ يبقى قائمًا.

كلّ جهاز استخبارات يقسم إلى دوائر أو مصالح. فهناك المكتب الرئيسيّ أو المركزيّ الذي يعجّ بالموظّفين ذوي التخصّص، وهناك العملاء والجواسيس الموزّعون خارج البلد.

في المكتب الرئيسيّ موظّفون متخصّصون في علوم كثيرة، منهم خبراء في السياسة وآخرون في الاقتصاد ثمّ الشؤون العسكريّة أو النقابيّة أو الجيولوجيّة أو الطبيّة أو الصناعيّة أو الفيزيائيّة أو النفطيّة... وحتّى في الإدارة والمحاسبة. هؤلاء كلّهم يعملون حسب الاختصاص وفي الفروع المقرّرة لأعمالهم. منهم من يتولّى تصفية الأخبار الواردة إلى المراكز ومقارنتها وتصنيف قيمتها وإبداء الرأي فيها، ومنهم من يتولّى إجراء الدراسات في ضوء المعلومات المصفّاة في المركز... منهم من يعمل في المختبرات العلميّة على تفكيك المعلومات والآلات التقنيّة العسكريّة والمدنيّة الواردة من العملاء، ومنهم من يلاحق أحداث منطقة معيّنة، ومنهم من يدير شبكات التجسّس الخارجيّة أو يترأس بعض العمليّات الخطيرة... وإنّ التصنيفات في هذا المجال كثيرة.

مثل هذه الإدارة المركزيّة تشرف على أعمال الجواسيس والعملاء في الخارج. تعطي الأوامر وتتلقّى المعلومات، تقرّر ما يجب أن يتمّ وما يجب ألاّ يمسّ، وكلّ ذلك في ضوء المصلحة العليا حسبما يفهمها رئيس الجهاز من خلال اتّصالاته بكبار المسؤولين في الدولة وأخذ التوجيهات منهم.

الأشخاص الذين يوظّفون في الإدارة المركزيّة للاستخبارات هم في العادة أصحاب كفاءات واختبارات. يؤتى بهم، مع بعض التفريق البسيط بين دولة وأخرى، من الجيوش والجامعات والمختبرات ودوائر الدولة، كما يؤتى بهم في بعض الحالات بالتعاقد. هؤلاء الموظّفون فيهم الطبيب والمهندس والمحامي وعالم الذرّة والخبير في السلاح والعالم الفيزيائيّ والعالم الكيميائيّ والعالم الجيولوجيّ والخبير في اللغات والعالم الاجتماعي... كما أنّ فيهم الخبير في وضع الرموز وحلّها والخبير في عالم المعلوماتيّة والخبير في التخريب والتدمير والخبير في استخدام الأجهزة المرسِلة واللاقطة والخبير في كلّ حقل من حقول الحياة اليوميّة التي يعيشها البشر.

ليس ضروريًا بين موظّفي الاستخبارات الاعتماد على القوّة الجسديّة ولا على الرماية بالمسدّس أو الرشّاش أو أيّ شيء من هذا القبيل المطلوب في دوائر الشرطة العاديّة. صحيح أنّ لدى بعض دوائر الاستخبارات في العالم فروعًا للقتل والاغتيال، لكن مثل هذا النوع من الفروع ليست رئيسيّة على الإطلاق[1].

تعتمد عمليّة بناء جهاز للمخابرات على أسس مهمّة، تتعلّق بالعنصر البشريّ والتدريب والعميل مصدر المعلومات.. وكذلك بالإمكانات الماديّة بكافّة أركانها... وتُعتبر عمليّة الاهتمام بالمؤسّسة الاستخباريّة من أهمّ مسؤوليّات الدولة الحديثة، إذ إنّها

---

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ص٢٨ ـ ٢٩.

تخشى، من دون الاستعانة بالمعلومات التي من شأن جهاز المخابرات أن يوفّرها لها، أن تُبتَلع أو أن يتقلّص نفوذها وتتحصر مصالحها وتختفي من دائرة الصراع على المسرح الدوليّ، هذا بالإضافة إلى أطماع بعض الدول في أن تحقّق مصالح أوسع ونفوذًا أشمل، خاصّة وأنّ الحروب التقليديّة تراجعت أمام قدرات عناصر المخابرات في إحداث أضرار ودمار وتخريب بواسطة أفراد قلائل في الدولة المعادية، أكثر ممّا كان يحقّقه أيّ غزو عسكريّ في السابق، وبإمكانات أقلّ وبخسائر محدودة.

يدار جهاز المخابرات بشكل مركزيّ، ومن خلال سلطة مركزيّة، بحيث تكون تبعيّة كافّة الدوائر والشعَب والإدارات لرئاسة الجهاز، ضمانًا للسرعة والكفاءة والفاعليّة والقدرة على المتابعة ولتدابير الأعمال الرقابيّة، وغالبًا ما يكون رئيس الجهاز على اتّصال برئيس الدولة مباشرة، لأنّ هناك إجراءات عاجلة وسريّة تستدعي قرارًا من الرئيس.

ومن الممكن اعتبار أنّ جهاز المخابرات هو الآليّة التي تُحدث عمليّة التنسيق المدروسة والموجّهة لاستخدام كلّ الوسائل المتيّسرة مع كافّة أنواع المعلومات، وتصنيفها، وتقريرها، لامداد المسؤولين بالحقائق في الوقت المناسب، لوضع استراتيجيّة الدولة، ولرسم سياساتها، ولاتّخاذ القرارات السليمة التي تكفل حماية أمنها القوميّ، والعمل ضدّ عمليّات المخابرات المعادية لمنعها من الحاق الضرر بالدولة.

وهناك تقسيمات عدة للأعمال المخابراتيّة حسب نوع المهمّة ومنها:

المخابرات الإيجابيّة: وهي الجهود التي تقوم بها إدارات المخابرات ضدّ الدول الأخرى.

المخابرات الوقائية: وهي الإجراءات والعمليّات التي تكفل للدول الحفاظ على أسرارها وعدم تعرّضها للاختراق، وقد تُطلق عليها تسمية "المخابرات المضادّة".

المخابرات العسكريّة: وتهتمّ بالمعلومات الخاصّة بشؤون القوّات المسلّحة والأمن والدفاع ومتابعتها.

المخابرات الجغرافيّة: وتهتمّ بالمعلومات الخاصّة بطبيعة الأرض والبرّ والجوّ والمياه من أجل الخطط العسكريّة.

المخابرات التكنولوجيّة: وتختصّ بالمعلومات المرتبطة بالتفجير الذرّي وصناعة القنابل النوويّة والصواريخ والالكترونيّات والاتّصالات والأسلحة البيولوجيّة والكيماوية....

المخابَرات المُضادَّة

يصوّر بعض الباحثين[١] المخابَرات المضادّة على الشكل التالي:

عندما تقوم أجهزة المخابرات في الدولة (أ) بشن حرب مخابرات ضدّ الدولة (ب) فهي في هذه الحالة تمارس أعمال مخابرات هجوميّة بهدف اختراق الدولة (ب) والحصول على المعلومات بشتّى الطرق والوسائل، علاوة على إمكانيّة تنفيذ عدد من الأنشطة الهدّامة داخل الدولة المستهدفة بغية التأثير السياسيّ أو الاقتصاديّ عليها. وإنّ الاجراءات الوقائيّة التي تقوم بها الدولة (ب) في هذه الحالة، تسمّى "المخابرات المضادّة"، التي يمكن تعريفها بأنّها "مجموعة الأنشطة التي تقوم بها أجهزة المخابرات في الدولة لوقاية أسرار الدولة ومواطنيها ومنشآتها الحسّاسة من اختراقها بواسطة أجهزة المخابرات الأجنبيّة"، أي أنّها أنشطة دفاعيّة توجّه لمنع وعرقلة جهود

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٥٩ ـ ٦١.

المخابرات الأجنبيّة وعدم تمكينها من تنفيذ أنشطتها داخل الدولة. ومن الملاحظ أنّ كافّة أجهزة المخابرات العالميّة تمارس أعمال المخابرات الهجوميّة والدفاعيّة ضد بعضها البعض وبشكل مستمرّ وبدرجات متفاوتة...

تنقسم أنشطة "المخابرات المضادّة" أو "المخابرات الوقائية" إلى: ١) الأمن؛ ٢) مقاومة الجاسوسيّة؛ ٣) مكافحة الأنشطة الهدّامة.

فالأمن: هو عبارة عن مجمل الجهود والاحتياطات والأنشطة التي تهدف إلى حماية ووقاية المعلومات والأنشطة ذات الطبيعة الحسّاسة من أنشطة المخابرات الأجنبيّة. ويلعب وعي وإدراك المواطنين ومدى التزامهم ومعرفتهم للإجراءات والاحتياطات دورًا أساسيًّا لنجاح أجهزة المخابرات العاملة في مجال "المخابرات المضادّة"، أو "المخابرات الوقائية". ويعرّف الأمن بأنّه جملة من الجهود التي تُبذل لإخفاء أسرار السياسات القوميّة والمعلومات العسكرية والاقتصادية والقرارات الدبلوماسيّة وغيرها من المعلومات ذات الطابع السرّي التي يؤثّر إفشاؤها على أمن الدولة وسلامتها. وكذلك منع تسرّب هذه المعلومات إلى أشخاص غير مسؤولين، أي إلى أشخاص ليس من ضمن مهامّهم معرفة هذه الأسرار. أمّا الإجراءات الأمنيّة في هذه الحالة، فتعني الإجراءات التي تحول دون وصول المعلومات لأشخاص غير مسؤولين، وتضمن وصولها إلى الأشخاص المسؤولين فقط، وهم الذين يجب أن يعلموا بها، وبالتالي حرمان أجهزة المخابرات الأجنبيّة من الحصول عليها.

أمّا "مقاومة الجاسوسية"، فهي عبارة عن كافّة الإجراءات التي تستهدف كشف شبكات التجسّس وتحديدها والتعامل معها.

و"مكافحة الأنشطة الهدّامة" هي الإجراءات والأنشطة التي توجّه لمقاومة الأنشطة المتعارضة مع العقائد السياسيّة والتربويّة الاجتماعيّة والاقتصاديّة السائدة في الدولة،

والتي تتّخذ أساليب غير قانونيّة وغير شرعيّة وإرهابيّة وتخريبيّة أحيانًا لتنفيذ مخططاتها. وواجبات مكافحة الجاسوسيّة تتعدّى متابعة الأنشطة التخريبيّة للعملاء الأجانب إلى أعوانهم في داخل الدولة من الجواسيس الذين يكون قد تمّ استقطابهم لجمع المعلومات والأسرار وتقديمها للعدوّ. كما تتحمّل مسؤوليّة وقاية وحماية نظام الحكم من الأعداء داخل البلاد بصرف النظر عن شخصيّات هؤلاء الأعداء ومراكزهم في الحكومة ووضعهم الاجتماعيّ. وهذا ما يجعل بعض أجهزة مكافحة الجاسوسيّة تتجاوز دورها ومهامها أحيانًا في متابعة واكتشاف أعداء البلاد وأوكارهم وشبكات تجسّسهم، إلى التحوّل لعمق العمل السياسيّ الداخليّ وإلى العلاقة بين الحكومة ومعارضيها، وهذا ما لا يجوز حصوله حتّى لا يُعامل السياسيّ المعارض للحكم أسوة بالجاسوس والعميل، فيتعرّض لاستجوابات تلك الأجهزة ويدخل سجونها، فيفقد المواطن بذلك حقّه في اختيار موقعه وحريّة قراره بين أن يكون من بين من هم موالين للسلطة أو معارضين لها، حيث كثيرًا ما يوصف المعارضون السياسيّون، في هذه الحالة، بالخونة بدون مبرّر، ذلك أنّ الجهة التي كُلفت بإعتقالهم، هي نفس الجهة التي تقوم باعتقال الجواسيس والخونة الحقيقيّين للبلاد.

الإستخبارات المعاكسةُ الهجوميَّة

"الإستخبَارَات المعَاكسَةُ الهجوميَّة" هي الإجراءات الأمنيّة التي تعترض أعمال المخابرات الخارجيّة أو المعاديّة من خلال تدمير نشاطات العدوّ في التجسّس والتخريب المادّي والفكري والمعنوي من خلال متابعة عملاء العدوّ وكشفهم وإحباط نشاطاتهم، ويشمل هذا الجانب من الاستخبارات:

مقاومة عمليّة التجسّس: وتشمل هذه العمليّات الإجراءات الأمنيّة التي يقوم بها عناصر الاستخبارات المعاكسة من أجل متابعة وكشف أيّ نشاطات غير شرعيّة تقوم بها شبكات عملاء العدوّ، وكذلك معرفة تنظيم تلك الشبكات وأساليبها في العمل، والأهداف التي تحاول معرفتها، وذلك بإلقاء القبض على عناصرها ومنعهم من الوصول إلى أهدافهم.

مقاومة عمليّات التخريب: حيث تشمل الإجراءات التي يقوم بها عناصر الاستخبارات المعاكسة من أجل ملاحقة الخلايا التخريبيّة التي ينظّمها العدوّ وملاحقتها والقضاء عليها قبل أن تحقّق أهدافها.

مقاومة النشاطات الهدّامة: وتشمل الإجراءات التي تهدف إلى متابعة وكشف أيّ نشاطات هدّامة يحاول العملاء المعادون القيام بها لدى قطاعات الدولة المستهدفة، لتقويض الروح المعنويّة إو إضعاف الثقة بين الأفراد وقادتهم أو بين الأفراد وسلاحهم.

مقاومة عمليّات استطلاع العدوّ: وتشمل كافّة الإجراءات التي تهدف إلى منع العدوّ من الحصول على معلومات حول قوّة الدولة المستهدفة من خلال الاستطلاع الأرضيّ والكشف الجوّي، ويتمّ ذلك بالتصدّي لدوريّات العدوّ والقضاء عليها أو منعها من تحقيق أهدافها، وكذلك عدم إتاحة المجال للعدوّ من أجل القيام بعمليّات كشف جوّي لقوّات الدولة المستهدَفة من خلال التصدّي لوسائل كشفه الجوّيّ ومنعها من تحقيق مهامّها.

مقاومة الإجراءات الإلكترونيّة المعادية: وتشمل الإجراءات التي تقوم بها وحدات الاستطلاع اللاسلكيّ من أجل مقاومة عمليّات الاتّصالات الإلكترونيّة المعادية التي يوجّهها العدوّ، ومقاومة عمليّات العدوّ الهادفة إلى منع وسائل اتّصالات الدولة

المستهدفة من العمل بحريّة. كما تشمل القيام بإجراءات تشويش للحدّ من كفاءة وحدات الاستخبارات اللاسلكيّة المعادية[1].

المُخَابَرات العسكريَّة

ليس لأجهزة المخابرات علاقة بأيّ شأن يخصّ القوّات المسلّحة، لا في خططها ولا في استراتيجيّتها ولا في أمنها، فهناك "جهاز المخابرات العسكريّة"، وهو المختصّ بشؤون القوّات المسلّحة. ويطلق على هذا الجهاز تسمية "الشعبة الخامسة" أو "المكتب الثاني". ويضمّ هذا الجهاز عادة، "أفراد الاستخبارات العسكريّة"، و"وحدات أمن الميدان"، و"وحدات العمليّات النفسيّة"، و"وحدات الهندسة والمساحة"، و"الشرطة العسكريّة" أو "وحدات الأمن العسكريّة".

يُعتبر أفراد "الاستخبارات العسكريّة" مثل المحقّقين وقارئي الصور الجويّة والوثائق وأفراد الاستخبارات المعاكسة وقسم بحث وتحليل الاستخبارات الاستراتيجيّة وكالات لجمع المعلومات للجيوش.

وتُعتبر وحدات "أمن الميدان" في الفرقة أو الألوية المستقلّة، بما لها من إمكانات في حقول الاستخبارات اللاسلكيّة وأمن الاتّصالات، وسائل جيّدة لتأكيد أو نفي المعلومات المحصّلة من مصادر أخرى، وكذلك لتقديم الإرشادات لعناصر جمع المعلومات.

---

١ ـ العقيد أبو الطيّب، الاستخبارات الصهيونيّة: العدوّ الأول، ص٢٤٩ ـ ٢٥٠.

تحصّل "وحدات العمليّات النفسيّة" المعلومات النفسيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة المتعلّقة بالعدوّ لتُستخدم من قبل القيادة التي تعمل معها، ويشارك أفراد "العمليّات النفسيّة" في التحقيق المفصّل مع أسرى الحرب لأنّ تحليل الآراء المعتمد على مقابلات أعدّت ونفّذت بعناية مع أسرى الحرب والموقوفين المدنيّين واللاجئين يمكن استخدامه لمعرفة مواقف هذه المجموعات، وخاصّة في عمليّات الأمن، ويمكن استخدام نتائج هذا التحليل عادة كمرجع لمعرفة مدى فعاليّة القوّات الصديقة.

وتقوم "وحدات الهندسة والمساحة" بجمع وتقييم وتوزيع المعلومات المتعلّقة بطبيعة الأرض، كما تقوم بإجراء الدراسات حول هذه المواضيع وتقدّم الحصيلة الناتجة من المعلومات الجيولوجيّة والمائيّة لدعم برامج وتقديرات ضبّاط الاستخبارات في القيادات المعنيّة.

وتُعتَبر "وحدات الأمن العسكريّة"، بالنظر إلى مميّزاتها وطبيعة عملها ضمن منطقة العمليّات وسائل قيّمة لجمع المعلومات من خلال:

١) معاملة أسرى الحرب واللاجئين؛ ٢) الهندسة، حيث يقدّم ضبّاط الهندسة المعلومات حول طبيعة الأرض بنا فيها الأنهار ومناطق الإنزال وقابليّتها للسير والموانئ والمطارات والقنوات والجسور وغيرها، إضافة إلى تحصينات العدوّ، ووحدات العدوّ الهندسيّة وإمكاناتها وأساليبها؛ ٣) الخدمات الطبيّة التي تقدّم معلومات حول الموادّ المستخدمة لدى الخدمات الطبيّة في الدول الأخرى، وأيّ تحديدات حول المهمّات والمنشآت الطبيّة المدنيّة والعسكريّة في الدول الأخرى، وتقديم المعلومات حول الإصابات والخسائر الناتجة عن استخدام العدوّ للأسلحة البيولوجيّة والكيميائيّة والمشعّة، وتمييز عوامل العدوّ الكيميائيّة والبيولوجيّة، ودراسة المعلومات المتعلّقة بالشؤون الطبيّة المستخلصة؛ ٤) القوّات الجويّة، وتستطيع تقديم المعلومات حول

مميّزات طائرات العدوّ المقاتلة وطائرات النقل والطائرات المروحيّة وكفاءتها، وحول أساليب التنقّل الجوّي للعدوّ، وحول أساليب العدوّ في استخدام معدّات المراقبة المحمولة جوًّا، وحول حالة التدريب الجوّي للعدوّ؛ ٥) الوحدات الكيميائيّة التي تقدّم المعلومات حول مكان ووقت ومدى هجوم العدوّ النوويّ أو البيولوجي أو الكيميائيّ؛ ٦) العناصر المتمركزة خلف خطوط العدوّ، وهي عناصر مقاتلة تتمركز في المناطق التي يسيطر عليها العدوّ في عمليّة جمع معلومات عن نشاطاته، وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه المفارز التي تختار لهكذا مهمّات تتلقّى تدريبًا خاصًّا وتزوّد بمعلومات خاصّة أيضًا.

مواصَفاتُ العَميل أو رجُل الأمن وواجبَاته

من المتعارف عليه دوليًا أنّ عمل المخابرات هو استقصاء المعلومات عمّا يخطّط ضدّ سلامة الدولة وأمنها. واستقصاء المعلومات يكون إمّا بعمل الجواسيس والعملاء كما هو معروف، وإمّا عن طريق "المخبرين"، وهم أناس تتعامل معهم المخابرات، ويسمونهم في مصر "المرشدين"، لكي يكشفوا لها بعض خفايا الأعمال التي تُرتكب ضدّ أمن الدولة وسيادتها، وهؤلاء يقومون بتقديم ما يصل إليهم من المعلومات للمخابرات بشكل تقارير يذيّلونها عادة باسم مستعار، أو رقم رمزيّ يُتّفق عليه عند بدء التعامل معهم، حيث يُفتح لكلّ عميل ملفّ في مقرّ المخابرات توضع فيه تقاريره، بعد أخذ ما فيها من معلومات، واتّخاذ الاجراءات المناسبة.

وقد اتُّفق على مدى السنين أن لا يقدَّم المخبر إلى محكمة أو يدلي بشهادة، وأن تبقى المعلومات التي يقدّمها سريّة، وأن يبقى هو نفسه مجهولاً، أي ألاّ يعلن عنه أنّه يتعامل مع المخابرات لأيّ سبب، وذلك حفاظًا على حياته من التهديد من قبل الذين يخبر عنهم، وحفاظًا على مصادر معلوماته.

ومكان عمل المخبر غالبًا ما يكون منطقة عمل قيادة المخابرات أو مكان عمل فروعها في المحافظات والأقاليم، إذ يحقّ لكلّ رئيس فرع مخابرات أن يكون له مخبرون محليّون، كما يحقّ للسفراء أو الملحقين العسكريّين أن يكون لهم مخبرون في الدول التي يعملون فيها، وتكون رواتب المخبرين من مخصّصات تلك السفارات.

وإنّ الصفة الرئيسيّة التي يجب أن يتمتّع بها المخبرون هي "الضمير الحيّ"، فلا يبلّغون عن أمور وهميّة أو يكتبون وشايات كاذبة لإلحاق الضرر ببعض المواطنين بسبب عداء شخصيّ.

يحدث في بعض بلدان العالم أنّ الدولة تفتح مجالاً واسعًا للمواطنين ليقدّموا شكواهم عن طريق مكتب متخصّص بهذا الغرض، ويسمّى "مكتب الشكاوى"، أو "مكتب التظلّم"، وغالبًا ما يكون هذا المكتب ملحقًا بالقصر الرئاسيّ، أو يتمّ إنشاؤه بأوامر عليا... غير أنّ هذا المكتب غالبًا ما يتحوّل إلى مركز دسائس ووشايات مغرضة يقدّمها المواطنون ضدّ بعضهم البعض للتشفّي والأذى، وليس حبًّا في إظهار الحقّ أو المنفعة للمصلحة العامّة[1].

يتطرّق أحد قدامى المسؤولين العرب في أجهزة الأمن[2] إلى واجبات رجل الأمن ومواصفاته فيقول:

يجب أن يغمر رجل الأمن شعور عميق، بأهميّة وبقدسيّة عمله في خدمة الوطن والمواطنين، من خلال تفهّمه الكامل لطبيعة ما يؤدّيه من واجبات جليلة، هدفها حماية الدولة والحفاظ على سيادتها الوطنيّة، واضطراد نموّها في كافّة المجالات، وصيانة أجهزتها العسكريّة والسياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، مع إحساس يمتزج فيه الفكر والعاطفة الوطنيّة النبيلة بأنّه ذو شأن من خلال أعماله الممتازة، الأمر الذي يحتّم عليه أن يكون دائم اليقظة، قويّ الملاحظة، نظراته ثاقبة وتحرّكاته مرسومة بدقّة وهادفة بدون توقّف، شعاره "أنا إنسان مهمّ، يؤدّي عملاً أكثر أهميّة في خدمة الدولة". وانطلاقًا

---

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٨٨) ٢: ٥٧ ـ ٥٨.

٢ ـ العقيد أبو الطيّب، الاستخبارات الصهيونيّة: العدوّ الأول، ص٢١٨ ـ ٢٢٠.

من هذا الشعور، يجب أن يكون رجل الأمن مخلصًا لوطنه من الدرجة الأولى، بضمير حيّ واستقامة ونزاهة، مستعدًّا للتضحية في أيّ وقت يُفترض فيه التضحية، ذلك أنّ رجل الأمن قد يتعرّض لشتّى المغريات أثناء عمله من مال ونساء رائعات الجمال ووعود بمنصب أو بمستقبل زاهر، وغير ذلك كثير... وإذا لم يكن ذا مناعة ذاتيّة ضدّ كلّ المغريات انغمس في الملذّات وغاص في أوحال الشهوات والأطماع، وأهمل واجبه، وتعامى عن طريق الحقّ، وأصبح شرًّا على أمّته لكونه حرمها من جهوده الممتازة وعرّضها للخطر.

لهذا يجب أن تُعطى "المناقبيّة الأخلاقيّة" بالذّات عناية فائقة لدى اختيار الرجال للعمل في حقل الأمن، إذ يجب على المسؤولين في القيادات العليا أن يولوا رجل الأمن الأهميّة البالغة من حيث زيادة مخصّصاته ليعيش في مستوى لائق يعصمه من السقطات والإغراءات تبعًا للحاجة، وبالتالي منعًا للانحراف والرضوخ للعروض المغرية.

كما يتحتّم على الرؤساء المباشرين أن يولوا كلّ واحد من رجال الأمن أهميّة خاصّة كلاً على حدة، تبعًا لتفهّم حالته النفسيّة ووضعه الاجتماعيّ والمادّي، والإحاطة بمشاكله وهمومه القديمة والآتية، أي الإحاطة بكلّ جوانبه عبر دراسة موضوعيّة متكاملة مع الجديّة في مساعدته وحلّ كلّ مشكلاته ليكون رجلاً قادرًا على أداء واجباته كاملة بعيدًا عن أجواء الإرهاق النفسيّ والمادّيّ والاجتماعيّ وغير ذلك.

وعلى القيادة العليا كذلك أن تعمل على تقدير رجل الأمن ومنحه المكافآت المعنويّة والماديّة تقديرًا لما بذله من عمل جليل في إطار حماية الدولة والكشف عن أعدائها سواء كان ذلك في كشف عملاء العدوّ وإحباط عمليّات تجسّس أو عمليّات تخريب أو القيام ببثّ إشاعات من شأنها تصديع الوحدة الوطنيّة والتأثير على روح الصمود.

وهناك صفات وواجبات ضروريّة لرجل الأمن عليه أن يتحلّى بها ويتقيّد بمناقبها تلقائيًا وبدون طلب، وهي أن يكون مثالاً للأدب والأخلاق الرفيعة في التعامل مع المواطنين ليعطي انطباعًا محبّبًا للآخرين عن نفسه وعن الأمن بشكل عام. وعليه أن يحافظ على سريّة عمله، وذلك بعدم البوح بشيء عن طبيعة عمله حتّى أمام زوجته وأقربائه وأعزّ أصدقائه، ولو بكلمة حول المهمّة التي يكلّف بتأديتها، إمّا بقصد المباهاة أو التعالي على الناس أو غير ذلك.

وعلى رجل الأمن أن يتفادى قدر الإمكان كشف الناس لحقيقة أنّه من رجال الأمن، إذ من شأن ذلك أن يفوّت عليه العديد من فرص النجاح والإحاطة بالأخطار التي تهدّد الدولة.

وعلى ضابط الأمن المسؤول أن يجمع في شخصه بين مؤهّلات "الجاسوس" وطبيب الأمراض النفسيّة وكاهن الاعتراف...

ويتطرّق بعض الباحثين[1] إلى مواصفات العميل فيقول إنّه لمّا كانت أعمال جهاز المخابرات متشعّبة وتتّسع لمجالات عديدة ولأنواع كثيرة من المواهب، فلا يُعتمد على صفات ثابتة عند اختيار العناصر العاملين فيها، فهناك ضرورة لمتطلّبات معيّنة لا يمكن بدونها لأي من عناصر المخابرات أن يؤدّي واجبه بنجاح، وهناك بعض المؤهّلات الرئيسيّة الواجب توفرها في عنصر المخابرات الناجح وأهمّها: أن يكون تمييزه للناس حادًّا؛ أن يكون قادرًا على أن يعمل مع الآخرين تحت ظروف شاقّة؛ أن يتعلّم كيف يميّز بين الحقيقة وبين الخيال، وأن يكون قادرًا على التفرقة بين ما هو ضروريّ وما هو غير ضروريّ؛ أن يكون لديه حبّ استطلاع وأن يتنبّه للتفاصيل

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٣٨ ـ ٤٤.

وأن يكون على شيء كبير من البراعة والمهارة؛ أن تكون له القدرة على التعبير عن الأفكار بوضوح واختصار وتشويق؛ أن يعرف متى يلزم الصمت؛ أن يكون متفهّمًا لوجهات النظر الأخرى وطرق التفكير الأخرى وطرق السلوك الأخرى، حتّى ولو كانت أجنبيّة بالنسبة له؛ ألاّ يكون مغاليًا في طموحه الشخصيّ ولا قلقًا من حيث الجزاء الشخصيّ أكان ذلك ثروة أو شهرة، وذلك ما قد لا يحصل عليه غالبًا في عمل المخابرات؛ أن يبذل كلّ جهده في الحصول على المعرفة؛ أن يجمع بين مواهب الثقافة والإدراك وأن يكون على وعي سياسيّ؛ أن يكون صاحب مرونة في التفكير؛ أن تكون له القدرة على الموازنة بين الجرأة وإجراءات الأمن؛ أن يكون صاحب دراية بالعوامل السيكولوجيّة التي تحدّد سلوك الإنسان كفرد في المجتمع؛ أن يكون دافعه للمهنة إيمانه بالرسالة التي يؤدّيها...

ولما كان اختيار عناصر المخابرات يُعتبر من الإختيارات النوعيّة، فإنّ مواجهة مشكلة الإختيار تكون في الاعتماد على: إجراء عمليّة تحرٍّ عن الفرد؛ إجراء اختبارات شخصيّة ونفسيّة له. والغرض من دقّة الاختيار وحسن الإعداد هو اختيار عناصر ملائمة لتكوين البنيان الصلب لأجهزة الأمن، التي يقع عليها عبء الحفاظ على الأمن الوطنيّ والمصالح القوميّة العليا.

وتتمّ عمليّات المراقبة لمعرفة العادات الملتزم بها، وفقًا للقواعد التالية: ميوله نحو الجنس الآخر؛ إهتمامه بتعاطي الخمور؛ إستقراره من الناحية الماديّة؛ إتّزانه ومدى ميله للثرثرة؛ مدى إدراكه لمراعاة الدقّة في تنفيذ عمليّات الأمن.

ويتمّ اختبار عناصر المخابرات إمّا عن طريق تقدّم الأفراد للحصول على وظائف في الأجهزة الأمنيّة، أو من خلال استهداف أفراد تنطبق عليهم المواصفات من حيث الأهليّة والتخصّص وسائر الصفات. وغالبًا ما تَستهدف أجهزة

المخابرات الموهوبين وتبحث عنهم في الجامعات التي تؤهّلهم بالعلوم المختلفة واللغات الأجنبيّة.

وتعتمد الأجهزة برامج تدريب يُعَدّ من خلالها المتقدمّون، وتتمّ متابعتهم، ويخضع الأفراد لفترة تجريبيّة يُطبّق فيها الفرد كلّ ما ناله من تدريب، وهذا ما يحدّد صلاحيّة الفرد للتعيين في جهاز المخابرات.

تقوم أجهزة المخابرات بوضع "خطّة خدمة" تحدّد فيها سنوات العمل التي يجب أن يقضيها العنصر في كلّ وظيفة وفي كلّ منصب، وتستند الخطّة على رغبة العنصر وميوله، ويساعد برنامج التدريب والتوجيه الجيّد في تزويد العنصر بتقييم حقيقيّ لمستقبله.

تتّبع معاهد تدريب ضبّاط المخابرات طرقًا كثيرة بقصد إعطاء ضابط المخابرات المستقبليّ، لا المعلومات فحسب، بل الخبرة والثقة أيضًا. وتعدّ معاهد المخابرات برامج كثيرة تشمل المناطق واللغات... وترتكز على الأمور التي تهمّ ضباط المخابرات بصفة خاصّة. كما تنظّم البرامج حول المخابرات نفسها، تشمل كيفيّة عمل أجهزة المخابرات، وشؤون تحليل، والمعلومات، وكتابة التقارير... وسوى ذلك ممّا لا بدّ من إتقانه من قبل ضابط المخابرات. وعلى الدارس أن يلمّ بالتفاصيل الدقيقة لمعظم الحالات المشهورة في تاريخ المخابرات، مع دراسة أسباب النجاح والإخفاق في كلّ منها. كما يطالع دراسات المقارنة لنواحي الضعف والقوة في أجهزة المخابرات العالميّة المختلفة.

ويرى الباحث أنّ هناك فرق شاسع بين العميل وبين ضابط المخابرات الذي يعتبر مواطن ينتمي للدولة، ويقوم بعمله في مكان ما، كأيّ موظّف آخر في الدولة، سواء كان هذا العمل داخل الدولة أو خارجها؛ أمّا العميل فيتمّ اكتشافه وتوجيهه لجمع

المعلومات بطرق سريّة، وقد لا يكون العميل متمتّعًا بجنسيّة الدولة، وقد يحصل على المعلومات بنفسه أم عن طريق آخرين يمدّونه بها. واستمرار العميل في العمل مرهون برضا الطرفين من حيث العلاقة والجزاء. ذلك أنّ مهمّة العميل هي مهمّة "جزئيّة"، وعليه أن يخفي عمله بأن يعمل تحت "ساتر" أو "غطاء" لاخفاء طبيعة مهمّته.

ولمّا كانت عمليّة تعيين واستخدام العملاء والجواسيس تتمّ وفقًا للحاجة إلى تأدية مهمّة معيّنة، بمعنى أنّه ليس هناك نظام ثابت ومستديم للجاسوسيّة، فلا بدّ من الاستعانة بعناصر ذات خبرة سابقة وقدارت لا تحتاج لتدريب مكثّف. ومن هؤلاء: أصحاب القدرة والخبرة في مجال تزييف الخطوط، وبالأخص التواقيع، ومعرفة الكتابة بمختلف الخطوط؛ القادرون من خلال تجاربهم السابقة على وصف المدن المطلوب العمل في داخلها، والعارفون بكلّ ما يتعلّق بتفاصيلها، والقادرون على العيش فيها كمواطنيها العاديّين؛ المتمتّعون بالقدرة على "التقمّص" للقيام بالدور المطلوب؛ القادرون على استعمال أفراد لديهم سابق معرفة بهم، من أصحاب العلاقات مع المطلوب إفشاء أسرارهم؛ التجّار ورجال الأعمال المتجوّلون والمتميّزون بالذّكاء وقوّة الملاحظة؛ المتمتّعون بالإخلاص الوطنيّ المدفوع بالمثل العليا؛ المعروفون بالشدّة والقوّة والحزم والعزيمة التي لا تلين، وبعدم مراعاتهم شعور الآخرين، والقادرون على جعل كلّ شيء مقصورًا على "أداء الواجب على أكمل وجه"؛ المتمتّعون بالحذر الشديد لتجنّب الوقوع في الأسر.

وتتمثّل الصعوبة التي تواجه عمليات تجنيد العملاء بوجه عام في ضرورة تحقيق نوع من التوازن، في معظم الأحيان، بين ضمان دقّة وصحّة المعلومات التي يتمّ الحصول عليها عن طريق العميل المجنّد، وبين قدرة العميل في الحرص على إخفاء نواياه الحقيقيّة وطبيعة النشاط الذي يمارسه.

ويمكن تجنيد العملاء عن طريق مخاطبة واستشارة معتقداتهم الإيديولوجيّة، أو بإغوائهم بالمال، أو عن طريق الإبتزاز... ومن الواضح أنّه يتعين إخضاع العملاء الذين يعرضون أنفسهم لكي يتمّ تجنيدهم "لنطاق السيطرة"، بمعنى أن يمتلك جهاز المخابرات زمام السيطرة تمامًا على علاقته بعميله دون أن يسمح له بإدارة دفّة الأمور أو توجيه مسار تلك العلاقة بنفسه.

ومن الممكن رصد المرشّحين للعمل كجواسيس وعملاء من خلال معرفة: ما إذا كان المرشّح يعاني صعوبات ماليّة؛ إذا كان لديه زوجة مسرفة؛ نوع ملذّاته الشخصيّة؛ ما إذا كان لديه نقطة ضعف في شخصيّته مثل حبّ الشهرة والمال أو الجنس أو حتّى الشذوذ الجنسيّ، كي لتتمكّن المخابرات المعادية من اسغلال مكامن الضعف فيه، وهذا ما يتطلّب دراسة مجمل تاريخ حياة الشخص المرشّح بكلّ تفاصيلها ودراسة ظروفه العائلية والماليّة والعاطفيّة والوطنيّة؛ أيّ نوع من المعلومات يستطيع الحصول عليها؛ أيّ نوع من المهمات يصلح للقيام بها؛ في أيّ دولة يمكن زرعه؛ قدرته على مواجهة وتحمّل الصدمات والمواجهات؛ قدرته على إجادة التمثيل بكلّ أنواعه، وعلى التظاهر بوجه مختلف وشخصيّة مختلفة يلبسها ساعة الضرورة؛ ما إذا كان صاحب سجلّ نظيف وسيرة حميدة فلا يثير الشبهات أو يلفت الانتباه؛ مدى قدرته على الانتاج في الوسط الذي اختير له، كأن يتمكّن العسكريّ من جمع معلومات عسكريّة بعد تغلغله في صفوف الجيش، وأن يتمكّن السياسيّ من جمع المعلومات من دوائر الدولة حسب الطلب... ومن الأفضل ألاّ يكون المرشّح متزوّجًا أو أبًا لأولاد، لأن عاطفة مَن يُعيل أسرته أرقّ من عاطفة العازب الذي بوسعه إعطاء جلّ وقته لعمله.

ولمّا كان من أهداف المخابرات الحصول على المعلومات ذات الطبيعة السريّة، فإنّ المرأة الجميلة تكون مؤهّلة وقادرة على إغراء الرجال للحصول على ما تريده.

كما أنّ المعارضين لأنظمتهم السياسيّة، يتفانون بالخدمة ويُظهرون حقدهم على نظام دولتهم السياسيّ في ما يقدّمونه للبلد الآخر، على عكس المتعاملين بدوافع ماليّة، وهم الذين ينغمس كثير منهم في ألاعيب تجاريّة تعرّضهم للطرد، وأحيانًا التصفية الجسديّة.

وغالبًا ما يكون التركيز على تجنيد العسكريّين، لأنّهم هم الذين يتحكّمون بمقدّرات بعض البلدان. وعلى الطلاّب باعتبارهم سيرتقون المناصب الحكوميّة مستقبلا...

بعد أن تتمّ عملية الاختبار ويتقرّر اختيار العميل، يتمّ الاتّصال به. وتفضّل أجهزة المخابرات أن يكون المتّصل بالعميل الجديد شخصًا غير الذي رشّحه للعمل، فيوضّح له شكل العمل ونوعيّته. وفي هذه المرحلة تؤخذ في الاعتبار تدابير الحيطة والحذر، ويتمّ توثيق وقائع مقابلة التعارف بالصورة والصوت أحيانًا، ويوقّع العميل تعهّدًا بالالتزام والتقيّد بالتعليمات والأوامر الصادرة إليه وعدم إفشاء الأسرار. وغالبًا ما يتمثّل العميل بعد ذلك شخصيّة زائفة، ويراعي السريّة التامّة في كلّ نواحي عمله.

بالرغم من كلّ هذه التدابير، فإنّ تاريخ التجسّس حافل بعملاء حمقى غير متّزني التفكير والقوى العقليّة، فمنهم من عُرف بحبّ الذات، وآخرون بحبّ المغامرة حيث وجدوا في هذه المخاطرات ما يرضي نفوسهم دون النظر إلى الغاية أو الهدف من وراء هذه الأعمال. إضافة إلى آخرين اندفعوا للعمل كعملاء نتيجة الكراهية أو الشعور بالاضطهاد أو بسبب مركّبات نقص، أو أنّ دافعهم لهذا العمل كان الاطماع والحقد العميق أو الرغبة في الثراء أو الحاجة الماسّة للمال. وقد أثبتت الدراسات والتجارب العمليّة أنّ غير المتّزنين عقليًّا ليس بوسعهم أن يكونوا جواسيس ناجحين. وأنّ العميل الذي يعمل بدافع إيديولوجي، غالبًا ما يكون مخلصًا، وهو ليس مثل أولئك الذين يعملون من أجل الحصول على المال تلبية لحاجة نفسيّة تولّد فيهم الرغبة في المخاطر

والمغامرات. علمًا بأنّ الدافع الإيديولوجي يـأتي فـي قمّـة الدوافـع التـي تجعـل البعض يعرضون خدمـاتهم فـي العمـل السـرّي، وغالبًـا مـا يكـون لـدى هـؤلاء العلـم بقدراتهم ومواهبهم المميّزة التي تجعلهم أصلح ما يكون لهذا العمل.

ويوجز باحثون الشروط التي يجب أن تتوفّر بـ"العميل الصالح" بما يلي:

أن تكون روحه المعنويّة عالية، وأن يكون راغبًا في العمل الذي سيقوم بـه؛ أن يكون نشطًا ميّالاً للقيام بالأعمال التي تتطلّب الجرأة والجسارة متحمّسًا لعمله؛ أن يكون عمليًّا في التفكير، سريع البديهة، تتوفّر لديه دقّة الحكم مع صواب الـرأي، وأن يعرف كيف يعامل الناس والأشياء، وكيف يناقش الآراء؛ أن يكون متمتّعًا بالقدرة العمليّـة فـي المسائل التي تحتاج إلى المهارة الفنيّة؛ أن يكون متمتّعًا باتّزان العاطفـة؛ أن تتوفّر فيـه الطاقة الحيويّة والقدرة على الاحتمال؛ أن يكون صبورًا هادئ الطبع وموفور الصحـة؛ أن تتوفّر له القدرة على ملاحظة كلّ شيء، وعلى دقّة تذكّر التفاصيل؛ أن يكون قـادرًا على إعداد التقارير بمهارة ودقّة وبيسر وأن يقدّر قيمـة ملاحظاتـه وأن يسردها فـي وضوح مهما كثرت؛ أن يكون قادرًا على الخداع والتضليل عندما يكون هذا ضروريًّا؛ أن يكون على درجة متقدّمة من الذكاء والجرأة وضبط النفس.

ويرى خبراء مجرّبون في أعمال المخابرات أنّ التجسّس تنظيم كامل، ذكيّ، دقيق، علميّ، ولا يتحمّل أيّ انحراف مع التسلية والطرافة. والرجال الذيـن يختـارهم التنظيم كعملاء له، يجب أن يتحلّوا بالحذر البالغ، والقلب البارد، أي أن يكونوا من نوع الرجل الآليّ. وهم رجال فوق المستوى العاديّ... وقد تلقّوا تدريبًا بالغ القسوة.

وصـف "روجولـف لآبيـل" عميـل المخـابرات فـي "الميلـودي كوموتيسـت"، بقولـه: "عميل المخابرات يعيش حياة خطرة ومملّة في الوقـت نفسـه. ظـروف عملـه تضطـرّه لأن يكـون مـاهرًا خبيثًـا ومتنبّهًـا باسـتمرار، وعليـه أن يخضـع خضوعًـا تامًّـا لقوانيـن

المهنة، وأن يخلص لبلده إخلاصًا كاملاً، وأن يكون شريفًا ومنضبطًا، وعليه أن يضحّي كثيرًا ويأخذ المبادرة الصحيحة في الوقت المناسب، ويتغلّب على جميع أنواع الصعاب، ويتحمّل الحرمان ونمط حياته المتواضع... فالعمل في المخابرات، ليس مغامرة رومانسيّة، ولا هو وسيلة للسياحة في الخارج... إنّه عمل دؤوب وقاس، يتطلّب قوّة هائلة وقدرة على الاحتمال والمقاومة، وضبط النفس، وإرادة صلبة، وثقافة واسعة وعميقة".

ولو أضاف آبيل إلى هذا الوصف للجاسوس صفات مثل "تعصّب أعمى لبلاده أو لقضيّته، وأعصاب من حديد، وانعدام الإحساس والثأر"، لكان أعطى صورة كاملة عن الجاسوس في أيّ بلد وتحت أيّ سماء.

ويجب أن تتوافر برودة الأعصاب والانضباط لدى عميل المخابرات أكثر ممّا تتوافر لدى عميل التنفيذ، الذي يكلّف بمهمّة خطرة ولمدّة قصيرة. فالقاتل أو المخرّب، وهو ما يُسمّى بـ"التوربيد"، قد يقوم بالقتل ويتعرّض للقتل. وهو يعرف حدود مهمّته من منطلقها وحتّى نهايتها. أمّا الجاسوس العصريّ، أو عميل المخابرات، فإنّه يمشي باستمرار على رمال متحرّكة. فإذا تساءل المرء: أيّ من هذين الصنفين هو أجدر بالاحترام، أو بالاحتقار، من الآخر، فيصعب على الإنسان أن يملك الجواب على مثل هذا السؤال...

ويقول باحثون: كان "ستاجينسكي" يقتل بأساليب المجرم العاديّ وبنفسيّة الجنديّ، وكان "كيم فيلبي" البريطاني والعميل السوفياتيّ، يفضح عملاء كثيرين ويساهم في خطفهم إلى المعسكر الاشتراكي، حيث كانوا يعذّبون ويُقتلون... فهل نتساءل أيّهما يستحقّ الاحتقار أكثر من الآخر؟ الرجل الذي يقتل بيده أم الذي يتسبّب بالقتل؟

يقول أحد ضبّاط مكافحة التجسّس البريطاني: "أحقر الجواسيس هم الخونة الذين يستسلمون للضغوط أو يطمعون بالمال... أمّا أخطر الجواسيس، فهم الذين يخونون بلدهم ليخدموا إيديولوجيّة".

والجدير بالملاحظة هو وجود مقاييس أخلاقيّة خاصّة بالتجسّس. وترتكز هذه المقاييس على فكرة أنّ العميل يخوض حربًا. وجميع الأساليب مشروعة في سبيل ألاّ يتوقّف ولا يتراجع. إذا كان ضميره مرتاحًا، فقد يتعب قلبه. لكنّه مجبر على متابعة السير، محتقرًا جميع القوانين البشريّة وكلّ أنواع الضعف...

والتجسّس عمل يمرّ بثلاث مراحل: جمع المعلومات، وإعدادها، ونقلها. ونادرًا ما يقوم العميل الواحد بالعمل الكامل. فالذي يتولّى جمع المعلومات وحفظها، ولا يعني هذا حفظها في الذاكرة فحسب، بل تعليبها وإعدادها للحفظ في السجلاّت، ونقلها، فسوف تكون مهمّاته معقّدة ومرهقة. وقد يعرّضه تنوّع هذه المهمّات وتكاثرها، للخطر. وباستثناء "الأبطال" الذين انكشفوا للجماهير من أمثال "آبيل" و"فيلبي"، يبدأ العميل عادة قطعة صغيرة في آلة ضخمة، يؤدّي مهمّة محدّدة ضمن مستواه المهنيّ والاجتماعيّ المتواضع. وغالبًا ما يكون تابعًا لممثّل رسميّ لبلاده، أي دبلوماسيّ، أو للشخص الذي استقطبه، أو لعميل آخر يتولّى مهمّة الاتّصال به ونقل معلوماته لآخرين. وأوّل مهمّات العميل هي دخوله مكانًا محدّدًا يمكّنه من الحصول على المعلومات. وهذا أساس التجسّس. ويتمّ ذلك عمليًّا بالتقرّب من جوّ معيّن أو الاتّصال بشخص معروف، أو الوصول إلى وثائق هامّة سريّة. ولا بدّ لجامع المعلومات من أن يكون بالغ الحذر لا يوقظ الشكوك.

والجاسوس الناجح هو من استطاع دخول أجواء العدوّ والارتقاء فيها إلى مراكز الإدارة العليا حيث تُحفظ الأسرار. وتتمّ عمليّة "زرع العميل السرّي" خلال زمن جدّ

طويل. ولا يحدَّد له هدف واضح في البداية. بل يُعمل على إدخاله البلاد، ثمّ يُترك له المجال الكافي ليعيش ويتأقلم ويركّز أوضاعه، وتبعًا لاختصاصه، يتحرّك في جوّ أو في آخر، ويطالب بمركز مهنيّ، ويقيم علاقات محدّدة. أمّا إذا صدف واحتلّ مركزًا أفضل ممّا كان يتوقّع، فيُترك له أمر اكتساب ما يشاء من امتيازات لشخصه. وكثيرون هم العملاء الذين انتسبوا إلى فريق، ولم يبدأوا عملهم الحقيقيّ إلاّ بعد عدّة سنوات، حين لا يعود واحد من أعضاء هذا الفريق قادرًا على اكتشاف هويّتهم الحقيقيّة أو على الشكّ بهم. وكثيرًا ما يُستقطب العميل من بين المواطنين أنفسهم الذين يخونون بلادهم بدافع عقائديّ أو تحت التهديد والابتزاز، أو طمعًا منهم بالأموال. وأيًّا كان نوع العميل، فإنّ عمله في البداية هو جمع المعلومات، إمّا بصورة عشوائيّة، دون تمييز أو غربلة، أو بناء على توجيهات محدّدة.

أخيرًا، فإنّ العميل مثل محترف الصيد، يلجأ إلى أسلوبَين أساسيّين: الملاحقة والترقّب، فإذا كان قد ثبّت أقدامه في المركز الهام، فإنّه يطّلع على البرقيّات والتقارير والوثائق السريّة فيسجّلها وينقلها. وهذا أسهل أنواع النشاطات. وبقدر ما تكون شخصيّة العميل قويّة وجذّابة، بقدر ما يتمكّن من توسيع نطاق عمله وصداقاته، وبالتالي من الاطّلاع على العدد الأكبر من الأسرار والوثائق.

والعميل بصفته "آلة لجمع المعلومات"، بضاعته أثمن من أن تُترك بلا حماية. لذلك تُحاك من حوله شبكة متماسكة، مهمّتها تقديم المساعدة له ووقايته من الأخطاء. وأحيانًا يتمّ ذلك دون أن يدري به العميل نفسه.

و"العميل المدسوس"، هو الذي يدخل مجتمعًا ما أو بلدًا أجنبيًّا، وقد تكون حالة الزوجين "كروغر" مثالاً نموذجيًّا عليه. فهما من صنف العميل الذي يتغلغل في جوّ غريب تدريجيًّا، ويحتلّ مركزًا ثابتًا بعد سنوات طويلة، بحيث يصبح تحديد هويّته

وأصوله أمرًا مستحيلاً. فحين أوقف الزوجان كروغر في بريطانيا كانا مزوّدَين بمجموعة التجسّس الكاملة: كاميرات تصوير، مكبّرات للصوت، شيفرة سوفياتيّة مصغّرة، راديو... وكانت بحوزتهما مجموعة كبيرة من جوازات السفر أكثرها حقيقيّ لا أثر للتزوير فيه... وكان الجاسوسان كروغر قد وصلا بريطانيا علم ١٩٥٤، قادمين من فرنسا، بعدما أقاما في النمسا وهونغ كونغ ونيوزيلاندا وأوستراليا، وكانا من قبل في الولايات المتّحدة الأميركيّة، ولم يُعرف مكان سكنهما خلال المدّة الواقعة بين إقامتهما في أستراليا ومن ثمّ في أميركا. ويرجّح أنّهما استراحا خلال تلك المدّة أو تدرّبا في الاتّحاد السوفياتيّ. وقد أوقف الزوجان بتهمة تعاونهما مع الكولونيل آبيل، أحد أبرع العملاء السوفيات الذين قُبض عليه في الولايات المتّحدة الأميركيّة.

أمّا انكشاف آبيل، فحدث بسبب هفوة قد يراها العامّة بسيطة، ولكنّها بالنسبة إلى التجسّس بالغة الخطورة. فقد أخطأ آبيل حين أدخل أحد عملائه إلى محترفه الخاص، وكان مستعجلاً في تسليمه بعض الوثائق. وكان أن استسلم العميل للإدمان على شرب الكحول، حتّى تخوّفت موسكو من نتائج ذلك، فاستدعته. وخاف العميل، وكان اسمه "حايانيم"، وانتهز فرصة مروره بباريس في طريق عودته إلى بلاده، ليسلّم نفسه للسفارة الأميركيّة هناك. وكانت النتيجة الحتميّة أن كشف أسماء رفاقه... وعُرف في ما بعد أنّ آبيل كان على علاقة مع أميركيّ يدعى موريس كوهين، اكتشفت المخابرات المركزيّة الأميركيّة أنّه وُلد في نيويورك، وتعلّم في أحد معاهد ولاية ميسيسيبّي، وأنّه شارك في الثورة الإسبانيّة في صفوف كتيبة أبراهام لينكولن باسم مستعار. وأيضًا أنّ موريس كوهين خدم في الجيش الأميركيّ ثمّ تزوّج من بولونيّة. واختفى كوهين بعد توقيف "روزنبورغ"، العالم الأميركيّ المتّهم بنقل أسرار ذريّة إلى السوفيات ولم تتمكّن المخابرات من اقتفاء أثره بعد ذلك.

ويتكهّن الباحثون بشأن علاقة كوهين بكروغر. فمنهم من يقول إنّ كروغر هو كوهين نفسه، ومنهم من يقول إنّ كوهين قُتل في الحرب الأهليّة في إسبانيا وإنّ كروغر أخذ هويّته، وهذا كثيرًا ما يحصل في عالم التجسّس. وقد تعطينا حكاية آبيل - كوهين - كروغر فكرة عن تعقيدات وتداخل شبكات التجسّس، وعن علاقة كلّ عميل كبير من العملاء المحليّين أو المدسوسين في بلد ما[1].

---

١ ـ الجزائري سعيد، ملفة التسعينات عن أعمال المخابرات، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧) ٢: ١٣٠ ـ ١٣٥.

كَيفيَّة التَّعامُل مع العَميل

تستخدم تسمية "عميل"، في العادة، للدلالة على الأشخاص الذين يعملون في أسفل الهرم المخابراتيّ، وهم عادة من الأجانب، ويُعتَبرون أدوات تنفيذ لعمليّات جهاز المخابرات في الخارج، ولا يستخدَم مصطلح "عميل" مطلقًا لوصف المحترف بجهاز المخابرات، لذلك فإنّ السيطرة على العميل تُعتبر ذات أهميّة قصوى، لأنّها تعني تقيّد العميل بتعليمات جهاز المخابرات الذي قام بتجنيده ويعمل لحسابه.

يختلف العميل عن الآخر. وليس جميع العملاء على استعداد دائمًا لأن يفعلوا ما يؤمرون به من دون اعتراض... بل يتطلّب الأمر في بعض الأحيان ملاطفة العميل، وأحيانًا تملّقه، أو تهديده...

وهناك، في هذا المجال، عمليّات تجرى تحت قيادة عميل واحد يتبعه ويطيع أوامره عملاء آخرون. وهناك عمليات تجري بمعرفة مجموعة يعمل أفراها معًا، أو يعمل كلٌّ منهم على حدة في أنشطة تخصّصيّة مختلفة ومستقلّة. فالعميل الذي يدير شبكة من العملاء يُعرف بـ"العميل الرئيسيّ" ويُعرف الآخرون بـ"العملاء الثانويّين" أو "الفرعيّين". وهناك "عميل معاون" يقوم بمهامّ مرتبطة بالعمليّة ولكنّه لا يكون مصدرًا للمعلومات، مثل الشخص الذي يستأجر شقة لعقد الاجتماعات بين العميل المنفّذ وضابط المخابرات..

ويصبح من الضروريّ أحيانًا، من أجل استمراريّة العمل، البحث عن عملاء جدد لتحسين مستوى العمليّات الجارية أو للقيام بعمليّات جديدة أفضل منها، ومن ثمّ فإنّ

عمليّة "رصد العملاء" تُعتبر نشاطًا لفحص ودراسة العملاء الجدد. أمّا عمليّة "تطويع العميل" فهي الطريقة التي تتمّ بها رعاية العميل وتشجيعه واختباره. ويكون "تقييم العميل" في هذه الحالة تقدير ما إذا كان العميل يمكن أن يُستخدم المحتمَل بفاعليّة، وتقدير كيفيّة تحقيق ذلك، فإذا تمّ الوصول إلى قرار إيجابيّ بشأن تجنيد العميل المحتمَل بعد مراعاة كافّة البيانات المتوفّرة، يتمّ استكمال الإجراءات الرسميّة لاستصدار التصريح الخاصّ عن طريق جهاز التصديق من قبل الرئاسة. ويمكن لإجراءات تجنيد العملاء أن تأخذ أشكالاً متعدّدة تحدّد غالبًا حسب العمليّة المطلوب تنفيذها.

وفي أحوال معيّنة تتمّ عمليّات التجنيد من مواطنين تابعين لدولة جهاز المخابرات، ومقيمين في الخارج، وخصوصًا عندما تكون العمليّة المنفذة على مستوى عال، كعمليّات الحرب النفسيّة وشبه العسكريّة، حيث يُفترض أن يدرك "المجنَّد" أنّ الدولة التي ينتمي إليها ترعى عمليّة التجنيد. وفي أحوال أخرى يكون من الأنسب إجراء التجنيد باسم جنسيّة أخرى "مزيّفة"، وإيهام "المجنَّد" بأنّ الجهة التي ترعى العمليّة هي مخابرات دولة أخرى.

في كيفيّة التعامل مع العميل، يطرح بعض أصحاب الخبرة[1] وجهتَي نظر لأفضل الوسائل في هذا المجال.

وجهة النظر الأولى تقضي بإقامة علاقة شخصيّة متينة ووثيقة مع العميل وبإقناعه بأنّه يعمل مع المسؤول لتحقيق هدف سياسيّ مهمّ، ومثل هذا الأسلوب يوفّر قوّة دافعة مهمّة تشجّع العميل على ركوب الأخطار في سبيل إرضاء صديقه، بيد أنّ لهذه الطريقة مخاطرها، وذلك حين يفقد العميل الموضوعيّة التي تتطلّبها مهنته في حال

---

١ ـ أبو الطيّب، الاستخبارات الصهيونيّة، ص٢٢٠.

وصول العلاقة مع العميل إلى وضعيّة متينة. ويرى بعضهم أنّه في كثير من الحالات، تتوطّد العلاقة الشخصيّة بين العميل وضابط المخابرات المسؤول عنه، ذلك نظرًا لأنّ السيطرة على العملاء تكون أكثر فعالية بالاستمالة أكثر منها بالتهديد، ويتمّ التأكيد باستمرار على أهميّة تنمية المودّة الشخصيّة من جانب ضابط المخابرات نحو العميل، ومن ناحية أخرى يتعيّن على الضابط أن يتعامل مع العميل على أساس أن يكون له اليد العليا عليه دائمًا، وأن يتجنّب مخاطر الوقوع تحت تأثيره وتحقيق رغباته، كوقوع الضابط في حبّ عميلته والهيام بها...

أمّا وجهة النظر الثانية فتقول بأنّه في الوقت الذي يتظاهر فيه الضابط المسؤول بالاهتمام شخصيًّا بعميله، فإنّ عليه أن يعامله معاملة بعيدة عن الرحمة والتساهل، إذ إنّ ما يهمّ الضابط المسؤول هو النتيجة والنتيجة فقط، فهو يدفع بالعميل إلى أقصى الحدود بأمل الحصول منه على أكبر قدر من المعلومات.

ويخلص هذا البعض إلى أنّه على الضابط أن يستعمل أسلوب التملّق وأسلوب الإيديولوجيّة والمال والارتباط العاطفيّ والقسوة، لكي يظلّ العميل نشيطًا في عمله.

وتستخدم الوسائل الماليّة بلباقة كعنصر دائم للسيطرة على العميل، وخاصّة بالنسبة للمستغلّين من العملاء في الحرب النفسيّة وشبه العسكريّة، حيث لا بدّ من توفّر عنصرَي السيطرة والمودّة الشخصيّة، وعندما لا تعود هناك حاجة للعميل أو لا يعود مرغوبًا فيه، يتمّ إنهاء عمالته واستبعاده بالرغم من حساسيّة الموضوع بالنسبة لقطع العلاقة بشكل ودّي أو عدائيّ، ومنذ أن يتقرّر مبدأ إنهاء علاقة العمل مع العميل، تكون الاجراءات عادة عبارة عن عمليّة تفاوض لتسوية المسائل الماليّة وتخلّيه عن المطالبة بأيّ شيء بعد ذلك، ويبدو ظاهريًّا أنّ التسوية الماليّة تتوقّف على الخدمات السابقة التي أدّاها العميل، إلاّ أنّها في الحقيقة تكون على أساس تفادي الضرر الذي يمكن أن يسبّبه

العميل الساخط إذا لم يكن إنهاء العمل معه بناء على طلبه، وهنا تظهر أهميّة السيطرة على العملاء ومناورات الحديث عن الوفاء والاخلاص ووحدة الهدف... عندما تريد أجهزة المخابرات إعطاء العميل ظهرها.

ويرى باحثون أنّ هناك إرتباط عاطفيّ بين جهاز المخابرات وعملائه، فاهتمام ضابط المخابرات بالعملاء الذين يعملون معه، وبأسرهم في أثناء غيابه، ومواصلة الإنفاق عليهم، يعكس حالة من الإرتياح النفسي لدى العميل، خصوصًا وأنّه يعمل في مجال لا مساومة فيه: الموت أو السجن مدى الحياة في حال انكشاف أمره. وهو يحتاج لضمانة قويّة تساعد أسرته على مواجهة الأعباء الإقتصاديّة ومستقبل تربية وتعليم أبنائه.

وغالبًا ما تهتمّ أجهزة المخابرات بعناصرها الذين تنتهي مدّة عملهم للحفاظ على سريّة العمليّات التي قاموا بتنفيذها، مهما كان تاريخها بعيدًا، وكذلك لإمكانيّة الإستفادة من هؤلاء العملاء في مهمّات جديدة، أو الاستفادة من خبراتهم السابقة ومن الوسائل التي أتيحت لهم في خلال عماهم. وغالبًا ما يكون الإعتراف بالجميل من قبل الأجهزة لهؤلاء العملاء الذين اضطرّتهم ظروفهم المعيشيّة السيّئة لقبول التعامل معها. وهذا ما يطلق عليه تعبير "الرابط العاطفيّ" بين المخابرات وعملائها.

أنواعُ العُملاء

تتطلّب دوائر الاستخبارات من موظّفيها، تحت القسم، الاعتصام بالصمت حول جميع ما يسمعونه ويرونه في نطاق مهنتهم، كما يُطلب منهم عدم الكشف عن هويّة عملهم. وفي بعض البلدان تعطى دوائر الاستخبارات أسماء غريبة أشبه بأسماء الشركات التجاريّة، وفي بعضها الآخر يكون الإسم صريحًا ومعروفًا.

موظّف الاستخبارات عرضة هو نفسه لمراقبة زملائه، علنًا أو سرًّا. كلّ دائرة استخبارات لها الحقّ في أن تشكّ بموظّفيها مخافة أن يضعفوا أمام الظروف وأن يقعوا فريسة هيّنة في أيدي الاستخبارات المعادية. وقد وصل الأمر بالاستخبارات الألمانيّة الغربيّة قبل أن تتّحد الألمانيتان، مثلاً، أنّها حتّمت إبقاء سير عمل أيّ موظّف فيها محصورًا بزميل واحد وأن يكون عليهما رئيس يعرف وحده ما عندهما. هذا التسلسل يستمرّ صعودًا حتّى الرئيس الأعلى، وبذلك لا يدري ألوف الموظّفين بما يجري عند كلّ واحد منهم إلاّ في النطاق الضيّق جدًّا.

هذا بالنسبة للموظّف الرسميّ في الدائرة المركزيّة. أمّا الموظّف غير الرسميّ فهو العميل أو الجاسوس... وهذا له عالم آخر.

الجاسوس العامل لحساب الاستخبارات هو الذي يكون عمله في صفّ العدوّ. قد يكون في جيش العدوّ وقد يكون في أحد مصانعه وقد يكون موظّفًا في إحدى شركاته التجاريّة وقد يكون موظّفًا في دوائره الحكوميّة وعلى مستويات متفاوتة... هذا الجاسوس قد يكون موظّفًا من موظّفي الدائرة المركزيّة لاستخبارات بلاده أُرسل للقيام

بمهمّته، وقد يكون شخصًا من البلد ذاته الذي يجري فيه التجسّس. في هذه الحال يكون ابن البلد جاسوسًا ضدّ بلاده وعميلاً للغريب.

والحصول على الجاسوس أو العميل ليس بذلك الأمر الصعب خاصّة بالنسبة إلى رجال الاستخبارات المتخصّصين في فهم النفس البشريّة والضعف الإنسانيّ.

المسألة ليست صعبة لأنّ عناصر الاقناع أو الضغط فيها كثيرة.

بعض الأشخاص لديه رغبة عمياء في الحصول على المال بالوسيلة الهيّنة ويبدي استعداده ليكون عميلاً للاستخبارات ضاربًا عرض الحائط بمصلحة بلاده، شخص من هذا النوع لا يهتمّ ببلاده ومجتمعه بقدر اهتمامه بنفسه، هو في جميع الظروف بلا ضمير أو وجدان.

بعض الأشخاص يكون في حاجة إلى المال فتضطرّه ظروفه الحياتيّة أو الصعبة إلى القبول بالمال الذي يعرض عليه مقابل الخدمات التي يقدّمها للاستخبارات الأجنبيّة. بعضهم يعلم تمامًا أنّه يقوم بدور العميل، وبعضهم الآخر لا يعتبر أنّ ما يقوم به إنّما هو العمالة بعينها.

الجنس الثالث من العملاء أكثر تعقيدًا. في كلّ بلدان العالم منحرفون جنسيًّا ذوو حياة غريبة وتصرّفات غير مرتكزة على المنطق السليم المتعارف عليه اجتماعيًّا ومعنويًّا وأدبيًّا. هؤلاء يقدمون في بعض الظروف على تصرّفات غير طبيعيّة ويصبحون معقّدي النفسيّة بسبب أوضاعهم الجسمانيّة. لذا، فالمنحرف الجنسيّ كان، في السنوات الخمسين الماضية على الأقلّ، من أفضل ضحايا رجال الاستخبارات الذين يبحثون عن العملاء، خاصّة إذا ما كان هذا المنحرف ذا مركز إجتماعيّ أو ماليّ أو أدبيّ مرموق.

تضع الاستخبارات عينها على هذا المنحرف وتوقع به في ورطات متعدّدة لها علاقة بوضعه الشاذّ، أساسها تصويره في أوضاعه الشاذّة ثمّ تهديده بنشر هذه الصور وتوزيعها بالألوف على من يهمّهم الأمر. في الغالب يرضخ المنحرف جنسيًّا للضغط ويقبل العمل لمصلحة الاستخبارات من غير أن يتقاضى على ذلك مالاً.

هذه الطريقة لجأت إليها الاستخبارات السوفياتيّة بصفة خاصّة، وقد أثبتت مفعولها بين الدبلوماسيّين الإنكليز المصابين بآفة الانحراف الجنسيّ. وبسبب هذه المشكلة بالذات اتّخذت الولايات المتّحدة موقفًا جازمًا من المنحرفين جنسيًّا إذ حرّمت عليهم الدخول في أيّ وظيفة حكوميّة ولو كانت هذه الوظيفة في دائرة بلديّة بسيطة. والموظّف الأميركيّ الذي يثبت عليه مثل هذا الانحراف، يطرد فورًا من وظيفته.

الجنس الرابع لا يقلّ خطورة عن الجنس الثالث. إنّه العميل المقتنع اقتناعًا كليًّا بأنّه يعمل لمصلحة الاستخبارات الأجنبيّة، لا عن إقناع بواسطة المال ولا عن طريق الضغط والإكراه، بل بسبب عقيدته المترسّخة فيه والتي هي عقيدة الدولة التي يعمل هو لاستخباراتها. في تعابير المهنة يسمّى هذا الشخص "العميل المتعلّق بالمثاليّات والعقائد الذي لا يوبّخه ضميره على ما يفعله، لأنّ ضميره وعقله مأخوذان بالفكرة التي يعمل من أجلها. وهذا العميل المندفع في التجسّس على بلاده لمصلحة جهاز أجنبيّ للاستخبارات، بدافع عقيدته، له عند أسياده معاملة خاصّة. إنّه، كإنسان، معرّض دائمًا لتقلّبات نفسانيّة ولمصاعب حياتيّة تؤثّر على تصرّفاته. فهو، فيما يكون في بعض الحالات من أفضل المخبرين، يتحوّل بين ليلة وضحاها إلى صاحب مزاج يتأفّف من أشياء كثيرة ولا يعجبه العجب. ولمّا كان هذا العميل لا يأخذ مالاً، أو قلّما يأخذ المال، ولا يعيش تحت ضغط رهيب من جانب أسياده، فإنّه يضايق أسياده بالذات. لا النظام العامّ لجهاز الاستخبارات يسري عليه ولا هو يتقيّد كثيرًا بالأنظمة والأوامر.

في بعض الحالات يصبح هذا العميل عبئًا لأنّه يقدم على تصرّفات فرديّة لا تلائم النظام الهيكليّ الشامل الذي وضعه أسياده لعمليّة شاملة معيّنة، لكونه يبقى عازفًا منفردًا على مزاجه ضمن أوركسترا متنافسة، فيصبح عند الأسياد وبعد استنفاد طاقاته إلى الحدّ الأقصى، شخصًا غير مرغوب بل يصبح منبوذًا ولا يلبث أسياده أنفسهم أن يتخلّوا عنه.

الجنس الخامس، هو الجنس الحقود. مواطنون كثيرون، في أيّ دولة كانت، يحقدون على نظام الحكم في بلادهم أو على قيام حكومة من لون معيّن، أو على الحرمان من الحقوق العامّة التي للآخرين، أو على استثنائهم من وظائف معيّنة لمصلحة آخرين، أو بسبب الظلم والجور اللذين يتعرّضون لهما في حياتهم اليوميّة.

الجاسوس الذي يعمل ضدّ بلاده بسبب حقده على أوضاعه، يمكن اعتباره من أخطر الجواسيس وأكثرهم عمقًا. إنّه يريد خراب بلاده على يده، ولا يتحقّق حلمه إلاّ بتخريب البلاد وما فيها من مؤسّسات لم تكن له حصّة فيها. قد يعمل لمصلحة الاستخبارات الأجنبيّة بالمجان وقد يعمل لقاء أجر، لكنّه على كلّ حال قليل المطالب وربّما من أفضل المنتظمين في العمل.

ليس لدى كلّ حاقد على بلاده الكفاءة للعمل على تخريبها، لكنّ الحاقد صيد ثمين لكلّ استخبارات أجنبيّة تبحث عن أعشاش لها في أيّ بلاد تهتمّ بها. الحاقد، متى تنظّم، يصبح كالعميل صاحب العقيدة ولو من زاوية أخرى. عقيدته تصبح لا تغيير النظام فحسب بل تحطيم البلاد، بلاده، وجعلها خرابًا ينعق فوقها البوم.

بالطبع، هناك جنس سادس وهو الغريب الأطوار. بعض الناس فُطر على الفساد أوّلاً وآخرًا وهو فاسد باستخبارات وبلا استخبارات. النميمة من طبعه والخوض في

المشاكل هوايته. تأتي الأفلام السينمائيّة والتلفزيونيّة والكتب البوليسيّة فتغذّي خياله بالأحلام الإضافيّة وبالمعلومات العمليّة. هذا النوع الهاوي ـ المحترف، يحار في كيفيّة إيجاد متنفّس لما ينتفخ به، إلى أن يوفّق به أو هو يُوفّق بعميل لجهاز استخبارات يجري بينهما التعامل والتعاون.

العميل من هذا النوع هو الذي ينقل بارودته من اليمين إلى اليسار وبالعكس، حسبما تتغيّر الظروف، وهو قابل أكثر من غيره لأن يكون العميل المزدوج العامل لمصلحة أكثر من جهاز واحد للاستخبارات.

هذا التصنيف لا يُقصد به التحديد على الإطلاق. إنّه عرض غير كامل لأنواع العملاء الذين يستعين بهم أيّ جهاز استخبارات. ثمّة أنواع أخرى، فهناك عملاء يشتغلون موقّتًا أو بشكل تعاقد، والمسافرون بشكل متقطّع ومتكرّر لأسباب مهنيّة، والسيّاح الذين يقضون مدّة معيّنة في مكان ما، وأعضاء الوفود الذين يزورون بلدًا بموجب دعوة والمراسلون الصحافيّون ومصوّرو التلفزة الذين يسافرون بين الحين والآخر لتغطية أخبار معيّنة[1].

وإجمالاً، يُطلق مصطلح العميل على كلّ من يمارس الجاسوسيّة، وهم على أنواع، أهمّها:

العملاء السريّون: ويعملون تحت "ساتر" أو "غطاء" مزيّف، أي أنّهم ينتحلون صفات معيّنة للعمل في البلاد التي يزرعون فيها، ومنهم المقيم ويعمل على أساس مستديم، كأن يكون تاجرًا أو صناعيًّا أو عالمًا أو مربّيًا أو ما شابه.

---

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ص٢٩ ـ ٣٢.

العملاء الموقّتون: وهم يعملون عملاء موقتًا ويُكلّفون بمهامّ عارضة، وغالبًا ما يكون "ساتر" هؤلاء الإستجمام السياحيّ، أو العمل الصحافيّ، أو العمل التمثيليّ التجاريّ، أو في بعثات علميّة...

عملاء الإتصال: ومهمة هؤلاء الاحتفاظ بالعملاء، وتأمين الاتّصال بهم، وتأمين المأوى لهم، والحصول على المعلومات منهم...

العملاء المحرِّضون: وهم يعملون داخل المنظّمات الجاسوسيّة للعدوّ للتعرّف عليها والكشف عن أسرارها والوقوف على وسائلها ومعرفة أفرادها وخططها.

عملاء الإستقطاب: ومهمّتهم تنحصر في التقاط من يتوسّمون فيهم صلاحيّتهم للعمل في شباك الجاسوسيّة وترشيحهم للعمل في شبكات التجسّس التي يعملون لها.

عملاء صناديق البريد: ويُستخدمون كنقاط معلومات وتحويل أو اتّصال في نظام مواصلات الجاسوسيّة.

المخبرون: مهمّتهم تقديم معلومات عن أي نشاط يتعلق بالأمن.

العملاء المُزدَوجون: للجاسوسيّة طابع مزدوج، أحدهما إيجابيّ والآخر سلبيّ، والصراع بينهما على أشدّه. وغالبًا ما تكون أدوات العمل واحدة، وكذلك وسائل المكافحة. فإنّ العنصر العامل في بلاده من أجل خيرها، هو عنصر إيجابيّ في بلاده، ولكنّه عنصر سلبيّ بالنسبة للبلد المعادي لبلاده. وإذا لم يتحلّ العنصر الإيجابيّ بالقدرة العالية على مواجهة الطوارئ مهما كانت شديدة ومفاجئة، فهو معرّض لأن يصبح عميلاً مزدوجًا. فإنّ العامل في مكافحة التجسّس، مهما كانت قوّته وقدراته وارتفاع مستوى تدريبه، لا بدّ من أن تكون لديه "نقطة ضعف" ما، أو ما يُطلق عليه صفة "كعب أخيل". وإنّ ارتكاب الأخطاء الصغيرة، قد يكشف أعتى عناصر الجواسيس.

ومن الأمثلة على ذلك "سكب الحليب في الكوب قبل سكب الشاي حيث تقاليد البلاد تقضي بسكب الشاي أولاً". وقد يغرق بعض وحدات مكافحة الجاسوسيّة في التعامل مع عملاء "مزدوجين" في عمليّة "تبادل للمعلومات" الهدف منها التعرّف على أسرار العدوّ وإتاحة الفرصة للعميل المزدوج كي يتعرّف على بعض أسرار البلاد... إلاّ أنّ التجارب العملية قد اثبتت أنّه ما من فائدة من تبادل المعلومات مع العدوّ، لأن تقييم ما يحصل عليه من معلومات ربّما يكون ذات فائدة كبرى بالنسبة له... وقد يكتشف العميل أو العملاء المزدوجين ويبث بواسطتهم معلومات مضلّلة. إضافة إلى أنّ التعاون مع جاسوس أجنبيّ من شأنه أن يؤدّي إلى قيام العدوّ بزرع عملاء جدد بإعتبار أن عملاءهم السابقين قد كُشفوا

المَصادِر: يطلق على العملاء مصطلح المصادر، ومصدر المعلومات يُعتبر جاسوسًا بالنسبة للدولة التي يستحصل على معلومات سريّة عنها. ويخضع "المصدر" لعمليّات تدريب طويلة، وغالبًا ما ينتهي عمله إمّا بالقتل أو الاعتقال أو السجن أو الإعدام عندما يكشف أمره بواسطة المخابرات المضادة.

ويمكن تصنيف العملاء إلى عدة فئات وفقًا لدرجة "وعيهم وإدراكهم" لما يقومون به من عمل، فهناك العملاء غير المدركين لحقيقة المهامّ التي يقومون بها، وهم الأشخاص الذين يزوّدون جهاز المخابرات بالمعلومات دون أن يدركوا على أقلّ تقدير الفائدة من وراء ذلك، ويمكن تجنيدهم بالطرق الخفيّة أو العلنيّة؛ وهناك عملاء يتمّ تجنيدهم بطرق خفيّة ومستترة، هم أشخاص يزوّدون أجهزة المخابرات بمعلومات في مقابل الحصول على المال أو على مكافأة أخرى في ظروف يَعتقد فيها العميل أنّه لا يرتكب خطأ؛ وهناك عملاء يتمّ تجنيدهم بطرق مكشوفة وصريحة، حيث يدرك العميل والشخص الذي يتولّى إدارته وتوجيهه قواعد اللعبة تمامًا، حيث العميل يسعى وراء

الحصول على المال أو خدمات أو وظيفة، ولابد لعنصر المخابرات هنا أن يكون بارعًا في تحديد الطريقة المثلى للتعامل مع عميله، بمعنى أن يتمكّن من تحديد احتياجات العميل ودوافعه التي تأخذ صورًا وأشكالاً مختلفة، مثل مدى اعتزاز العميل بذاته واحترامه لنفسه، فضلاً عن رغبته في الحصول على المال وأو فرصة العمل...؛ وهناك العملاء المتطوّعون، وهم من أقدر أنواع العملاء من الناحية العمليّة، فالعميل المتطوع يتقرّب بنفسه من جهاز المخابرات الذي يرى أنّه في مقدوره التعامل معه، ويسعى لأن يبيعه معلومات سريّة مقابل الحصول على المال، ويكون هذا العميل عادةً عرضةً لأن يتمّ كشفه وفضح أمره، وكثيرًا ما يقوم الأشخاص الذين سعى للتعامل معهم بالإبلاغ عنه؛ وهناك العملاء المحترفون، وهم أشخاص يتمتّعون بمهارة معيّنة يعرضونها للإيجار، أو يستغلّونها لحسابهم الخاصّ، ومنهم "المخبرون الخصوصيّون" و"سماسرة المعلومات" و"الخبراء الفنيّون" المتخصّصون في عمليّات الاستماع والتنصت، ويفضّل هؤلاء لقب "مستشار أمنيّ" أو "مستشار إداري"، ويتم استئمار هؤلاء في العادة للقيام بالعمليّات القذرة.

أسَاليبُ التأهيل والتّدريب

تختلف أساليب تدريب العملاء وتأهيلهم باختلاف الدول التي يعملون لصالحها. وعلى العموم، يخضع العميل لنماذج كلاسيكيّة من أعمال التأهيل والتدريب منها:

وضع العميل المتدرّب تحت المراقبة الدائمة لتحديد كافّة تحرّكاته واتّصالاته وإقامته؛ إسناد مهمّة جمع معلومات إليه لكي يثبت قدرته التجسّسية عن أشخاص أو مرافق حيويّة؛ يترك العميل منزله وعائلته بعد أن يختلق الأعذار والأسباب المبرّرة لغيابه؛ جعل العميل يختار إسمًا مستعارًا له، وتدرّبه بالتالي على الحياة بنمط مغاير لحياته العاديّة، للتدليل على مقدرته على مواجهة المواقف الفجائية والمتنافرة؛ إخضاع العميل لبعض المؤثّرات المرعبة والمزيّفة لاختبار صلابة أعصابه؛ تعريضه لاعتداءات وهميّة لاختبار قدرته في الدفاع عن نفسه؛ إخضاعه لاستجوابات كلاميّة ضاغطة ومستفزة ولتهديدات واتّهامات ملفّقة باعتباره خائنًا تم اكتشاف أمره بأنّه يعمل لجهة أخرى مضادة مخترقًا المخابرات التي يتعامل معها، وملاحظة نتائج هذا الاختبار؛ تدريب العميل على استعمال آلات التصوير وفنون التصوير المتعدّدة بما في ذلك تصوير الوثائق؛ تدريب العميل على استعمال وسائل الاتصالات اللاسلكية واستعمال الكمبيوتر والكتابة بالحبر السرّي وتظهير هذه الكتابة وحلّ الشيفرات؛ تدريبه على اكتشاف فنون المتابعة والمراقبة له وعلى كيفيّة الهروب منها؛ تدريب العميلة على معرفة إخفاء الرسائل في أماكن حسّاسة من الجسد.

ويتدرّب عناصر المخابرات العاملون في خارج البلاد التي يعملون لها على فنون إضافيّة أبرزها: عدم التعبير أو الكشف عن أيّ ذوق أو رأي بلغة مغايرة للغة البلد التي يكون العميل مقيمًا فيها، وضرورة التعبير باللهجة المحلية؛ عدم الاعتراض على ما يقوله الناس وإن كانت آراؤهم مناهضة لآرائه، وذلك لتشجيعهم على الاستمرار في الكلام والاسترسال وعدم مقاطعتهم في الحديث؛ عدم إظهار الاهتمام بأيّ معلومات أمام الآخرين بل استيعابها بهدوء وبمظهر عدم الاكتراث؛ إستدراج المتحدّث للكلام بهدوء والإقلال من الحماس والحيويّة الملفتة للانتباه؛ إستبعاد الأسئلة المباشرة حول التحرّكات العسكريّة أو المدنيّة لأشخاص أذكياء بشكل ملفت؛ إحراق الرسائل السريّة وتحويلها إلى رماد وعدم الاكتفاء بتمزيقها كي لا تعاد قراءتها، وتجدر الإشارة هنا إلى ما قام به "الحرس الثوري" الإيراني عام ١٩٧٩ عند اجتياحه السفارة الأميركيّة لدى طهران، وإقدامه على إعادة تجميع وثائق وكالة المخابرات المركزية CIA حيث تمكّنوا من الاستيلاء على عشرات الآلاف من الوثائق "المفرومة" على آلات "فرم الورق"، ونجحوا في إعادة تجميع القصاصات بالكامل؛ متابعة الحذر عند استلام معلومات عن عميل آخر والتفكير بمخرج للتخلص من أي كمين مفاجئ؛ التدرّب على القيام ببعض النشاطات العسكريّة والأمنيّة كالتسلّل، وأعمال النسف، وتفجير السيّارات المفخّخة، وزرع أجهزة التنصّت واستراق السمع؛ التعرّف على أساليب التغلغل والتسلّل من أجل الهيمنة على الشباب؛ إستعمال الموادّ الكيميائيّة؛ التدرّب على التمييز بين الأمور الوهميّة أو الوشايات الكاذبة الهادفة إلى إلحاق الضرر ببعض الناس نتيجة عداءات شخصيّة، وعمليّات الخداع والتضليل والمناورة، وبين الوقائع الحقيقيّة[١].

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٤٤ ـ ٤٦.

مَصادرُ المَعلومَات

يحدّد باحثون في علم المخابرات مصادر المعلومات بنوعين هما: المصادر العلنيّة، والمصادر السريّة.

أمّا المصادر العلنيّة فهي المصادر المتاحة علنًا وتشمل: وسائل الإعلام المختلفة من صحافة وإذاعة وتلفزة وكتب ومجلّات، والبيانات الصحافيّة لوكالات الأنباء، وأقسام الإعلانات في الصحف والمجلّات والتلفزة، والمؤتمرات العلميّة الدوليّة، والدراسات والأبحاث، والبيانات الدوليّة والمحليّة، ومواقع الإنترنت، ونظم الأقمار الصناعيّة ومجالاتها المتنوّعة، والصور الفوتوغرافيّة التي يلتقطها السيّاح في رحلاتهم، والنشرات والمطبوعات السياحيّة، والخطب والتصريحات للمسؤولين على اختلاف مستوياتهم، وزيارات الجامعات الأجنبية، والدراسات التي يجريها بعض الهيئات الأجنبيّة والتي تقوم بتمويل مشروعات اقتصاديّة، والأعمال الفنيّة من سينما ومسرح وشرائط فيديو وإعلانات وغيرها.

وأغلب مصادر هذه المعلومات هي: المكتبات العامّة، ومكتبات المراجع، ومراكز البحوث الاستراتيجيّة، ومكتبات الإيداع القانونيّ، ومكتبات الجامعات والمعاهد الأكاديميّة، والمكتبات التجاريّة...

وهناك المعلومات التي يُمكن الحصول عليها من المصادر الرسميّة وغير الرسميّة، مثل سجلّات الولادة والوفيّات والزواج، وسجلّات الأحوال الشخصيّة، والجداول الانتخابيّة، وأدلّة الهاتف، وسجلّات المحاكم، والسجلّات العقاريّة، وسجلات

تراخيص ملكيّة السيارات والقيادة، وسجلاّت جوازات السفر، والدليل التجاري بمختلف [illegible]، وسجلات التجنيد، وسواها من القيود العامّة.

كما يمكن الاستعانة بما يسمّى "الوسطاء المحترفون" أو "سماسرة المعلومات" الذين يقومون بهذا العمل، وهم من أصحاب الخبرة في شؤون المكتبات والفهرسة والتصنيف ومراكز المعلومات والأبحاث....

أمّا المصادر السريّة، فلا بدّ من استخدام وسائل سريّة للحصول على معلومات منها، وهي معلومات ذات طبيعة خاصّة لا يمكن الحصول عليها بالوسائل العلنيّة. ولكلّ من أجهزة المخابرات في العالم أساليبه المتعدّدة ووسائله المعتمدة لجمع المعلومات بواسطة الأجهزة الفنيّة التي تتنوّع ما بين استخدام أجهزة التنصّت اللاسلكيّة والهاتفيّة والفاكس والتلكس، واختراق أجهزة الكمبيوتر، والمعدات ذات التكنولوجيا المتقدّمة المستخدمة في أغراض "الهندسة العكسيّة". ويجري اختراق المصادر السريّة بوسائل عديدة منها:

المصادر البشريّة: إمّا عن طريق الأشخاص "حسني النية"، إذ تعتمد أجهزة المخابرات بقدر ما على استخدام الناس العاديّين كمصادر للمعلومات من خلال عمليّات الثرثرة المتداولة في أخبار يستحصلون عليها في مجالات اجتماعيّة متنوّعة، وهذا ناتج عن جهل الناس بأساليب عمل المخابرات، ما يضعهم بدون قصد في مواقف تضرّ بالأمن القوميّ للدولة؛ إمّا عن طريق أشخاص يتمّ تجنيدهم، وهم الذين يتم شراؤهم، وقد يكون الشخص من جنسيّة الدولة الهدف، أو من جنسيّات أخرى، ويشكّل أمثال هؤلاء وسيلة رئيسيّة لكافّة أجهزة المخابرات في العالم، وهم يُزرعون في منطقة العمل المناسبة مع توفير "الغطاء المنطقيّ" أو "الساتر" المناسب [illegible]

أمّا "المصادر الفنيّة"، فهي التي تُستخدم فيها الإمكانات الفنيّة والتكنولوجيّة للحصول على المعلومات بشكل سرّي، من خلال التمويه والخداع والتضليل واستعمال الوسائل الذكيّة، توخّيًا لتحقيق النتيجة المرجوّة. ومعلومات هذه المصادر لا يمكن الحصول عليها إلا باستخدام الجواسيس والأجهزة والتكنولوجيا المتطورة[١].

تَصارُع أجهزَة المخَابَرات

تعيش أجهزة المخابرات معارك مستمرّة ودائمة وطويلة في ما بينها انطلاقًا من القاعدة الأساسية "التجسّس ومحاربة التجسّس". والقوى المتصارعة في هذه المعارك هي أجهزة المخابرات نفسها، التي يحاول كلّ منها التغلغل وبناء شبكات الجاسوسيّة للحصول على معلومات سريّة من الدولة الأخرى، التي يكون لها جهاز مكافحة التجسّس من جهة، وجهاز استخبارات يقوم بنفس المهامّ لزراعة الجواسيس في دولٍ خارجيّة تكافح التجسّس... وتزرع جواسيسها داخل الدول الأخرى...

ومن تصارع الأجهزة ما هو مستمرّ وشبه دائم بين الأنظمة المتناهضة، كما كانت عليه الحال في خلال الحرب العالميّة الثانية بين دول المحور من جهة، ودول الحلفاء من جهة أخرى؛ أو في خلال الحرب الباردة بين الولايات المتّحدة الأميركيّة ودول الغرب من جهة، والاتّحاد السوفياتيّ والكتلة الشرقيّة عمومًا من جهة أخرى، أو كما هي الحال بين إسرائيل والدول العربيّة....

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٥٠ ـ ٥١.

وأحيانًا قد تتصارع أجهزة المخابرات المتحالفة في ما بينها في ظرف معيّن وحول نقطة معيّنة كما كانت عليه الحال بين المخابرات البريطانيّة والمخابرات الفرنسيّة في منطقة الشرق الأوسط في خلال وفي أعقاب الحرب العالميّة الثانية...

علمًا بأنّ أجهزة المخابرات كثيرًا ما تتبادل المعلومات في ما بينها بطريقة أو بأخرى.

لقد حملت وكالة المخابرات المركزيّة CIA عبء كافّة المهمّات المستحيلة واكتسبت سلطات سريّة واسعة لم تكن لتمنح لأيّة هيئة أخرى، فوصلت إلى قمّة القوّة التي لا تتناسب مع حالتها. ودومًا كان مجال عملها في سراديب التجسّس وليس في أروقة السلطة. لقد كانت وراء مختلف أهداف السياسة الأميركيّة من أفريقيا إلى آسيا إلى أوروبّا حتّى أميركا اللاتينيّة، فلم يتصادف مرّة واحدة أن حدثت مشكلة، مهما صغرت وكانت لها علاقة مع استراتيجيّة الولايات المتّحدة، إلاّ وكان لها ضلع في ذلك: إيران، نفق برلين، حرب السويس، حرب حزيران - يونيو، خليج الخنازير، فنزويلا، غواتيمالا، نيكاراغوا، الكونغو، نيجيريا، أندونيسيا، ماليزيا، فييتنام، تشيكوسلوفاكيا، بولندا، المجر لبنان أفغانستان والعراق إضافة إلى فلسطين طبعًا...

كانت وكالة المخابرات المركزيّة CIA تتجسّس، دومًا، على خصمها، ولم تكن تسعى للتسلية سواء على طاولة رئيس الولايات المتّحدة أو على مائدة سلاطين البترول. ولم يكن هناك، في عملها، شيء بسيط أو حاسم، بل كثيرًا ما كانت تتمادى في مهمّات عملها، فكان النجاح يصيبها أو كان الفشل نتيجة ما كسبت يداها.

ورغم أنّ مهمّتها هي التجسّس، فإنّ النتائج لم تكن دومًا قاطعة كما كانت الحالة في نفق برلين. وكيفما كانت مسؤوليّتها الخارجيّة فإنّ الوكالة كانت تحمل، في طيّاتها، بذور تدميرها الذاتيّ. وكثيرًا ما اعتقد المسؤولون فيها بأنّ البذور صادرة من الخارج

وأنّها قد زُرقت فيها منذ انطلاقها، وتلك هي مهمّة أعدائها، وخاصّة منها خصمها الرئيسيّ الاستخبارات السوفياتيّة. ففي عالم كالذي ابتدعته فجعلته مليئًا بالخداع وغرسته بالمكائد والمؤامرات فبات حقيقة واقعة بالنسبة لها، بل كان الحقيقة الوحيدة لها. حتّى أنّ مراقبيها الأكثر ضراوة يعترفون بأنّها لم تبتكر ذلك العالم من العدم، بل كانت هنالك سوابق خطيرة في هذا المضمار. ولذلك، كثيرًا ما كان الفشل، الذي أصاب بعض أعمالها، ناشئًا عن ارتيابها في جهازها وسعيها الدؤوب لكمال أعمالها. ولقد قضت على كثير من العاملين فيها اغتيالاً أو تسريحًا أو إقالة لمجرّد الشكّ في بعض أعمال كان لا بدّ أن تجلب الارتياب وإن كانت صادرة أحيانًا عن حسن نيّة من قِبَلهم.

إنّ الحرب التي تشنّها الاستخبارات ضدّ بعضها البعض الآخر هي حرب سريّة لا يسمح أيّ من الطرفَين أن يبدو منها أيّ دليل ينمّ عن كنهها أو أن يكشف سترها. لذلك، فإننا نرى الأسرار تتوالى بعضها لينكشف، والآخر يبقى مكنونًا في الملفّات لا يطّلع عليها أحد إلاّ المسؤولون في هذه الأجهزة. أمّا العاملون في الاستخبارات فهم جنود مجهولون وأعداء ألدّاء لبعضهم، فهم أبطال في نظر البعض، كما أنّهم أنذال حقيرون قادرون على القيام بكافّة الأعمال اللاشرعيّة واللاأخلاقيّة في نظر الآخرين. لكنّ أسطورة مغامراتهم تتلاشى، أحيانًا، عندما ينكشف سترهم رسميًّا. فعالم هؤلاء البشر قائم على التستّر والكتمان والحيلة والبهتان.

وما يحدث من بسالة، في تلك الظلمات، يبدو بشعًا في النور، وكذلك الأمر في كلّ الحروب، فكم من الأعمال البطوليّة في ساحة المعركة لا تمسي إلاّ بمثابة جرائم في أيّام السلم. وهكذا فإنّ الجاسوسيّة تقدّس العنف بغضّ النظر عن أخلاقيّته. ولم يكن العاملون، مثلاً، في وكالة المخابرات المركزيّة، يومًا، مطّلعين على كلّ ما يجري فيها.

فالتخصّص في العمل هو القاعدة السائدة ولا يطّلع أحد إلاّ على ما يخصّ عمله. ثمّ إنّ كلّ من عمل في هذه المؤسّسة مرتبط بقسم لا يُسمح له بأن يذكر شيئًا ممّا يعرفه، لذلك فإنّ كلّ ما حصل عليه الباحثون، عندما وضعت الحكومة الأميركيّة قانون حريّة الإعلام بين أيديهم، كان فتاتًا من الوثائق تحتوي على تعابير غامضة لا يستطيع فهم كنهها إلاّ القلّة، أو مقاطع من مواضيع حذفت منها الرقابة كلّ ما يمكن أن يعتبر ماسًّا بالأمن. ويبقى قانون حريّة الإعلام في الولايات المتّحدة وسيلة مفيدة للباحثين. ويكفي أن نفكّر بما قد يحدثه النشر البسيط والجزئيّ والمحدود لبعض الوثائق السريّة عن بعض الشهود المناهضين. أمّا المعلومات التي تقدّمها الصحافة عامّة، فهي بالفعل مجزّأة، وكثيرًا ما تكون خاطئة ومتحيّزة، والكميّة الهائلة من شبه المعلومات التي تنقلها الصحافة عامّة وبقدر ما تجترّ فإنّها تنقلب لتصبح وقائع تاريخيّة، وتلك ثالثة الأثافي.

ويفضّل كثير من المخبرين أن يظلّوا في ثنايا الخفاء، لذلك فإنّ تحديد مكان عملهم لن يضيرهم بشيء، وربّما كان ما يميّز بعضهم هو تعلّقهم بوكالة المخابرات المركزيّة. وقد وهب كثير منهم حياته الناشطة لها، فهم وإن كانوا قد أبدوا النقد لبعض العمليّات التي جرت، لكنّهم استمرّوا على ولائهم للوكالة، ولقد أصاب الغمّ كثيرًا منهم لما عانته الوكالة من ذمّ في بداية السبعينات، وكانوا يثورون على أولئك الأشخاص الذين كشفوا أسرارًا لم يكن قد أُطلع عليها إلاّ بضعة رجال. وإذا كان جمع الوثائق هذا من فائدة لتبيان الحقّ من الباطل، إنّ الباطل كان زهوقًا[1].

---

١ ـ رصاص د. محمود سيّد، الاستخبارات الأميركيّة المركزيّة غول وعنقاء وخلّ، ماذا فعلت؟، دار المعرفة (دمشق، ١٩٨٨) ص٣ ـ ٥.

تَعَاوُنُ أجهزَةِ المخَابَرات في مَا بينَها

تتمّ صفقات التعاون بين أجهزة المخابرات إمّا بشكل شبه دائم، كما هي الحال بين دولتين حليفتين، مثل الولايات المتّحدة الأميركيّة من جهة، وبريطانيا أو إسرائيل من جهة ثانية، أو بشكل آنيّ تتقاطع فيه المصالح بشكل عابر...

ويروي بعض الباحثين عن تعاون أجهزة المخابرات في ما بينها في وقائع أغرب من الخيال... ومن الأمثلة على ذلك تعاون جهاز المخابرات الألمانيّة النازيّة "الغستابو"، مع المخابرات الصهيونيّة.

فقد تبيّن أنّ اتّصالات جرت بين الحركة الصهيونيّة والمخابرات الألمانيّة النازيّة في عهد هتلر، تركّزت على تسهيل هجرة اليهود الألمان إلى فلسطين. كما أنّ هناك وثيقة خطيرة تتمّ عن صفقة بين "أيخمن"، وهو المسؤول الرئيس عن مذابح اليهود في العهد النازيّ، وبين الدكتور "رودولف كاسانر" رئيس الوكالة اليهوديّة في هنغاريا، وهي تتحدّث عن صفقة تقضي بالإفراج عن اليهود "الأغنياء" من معسكرات النازيّين، مقابل تقديم سيّارات نقل وموادّ تموين وأموال قدّرت بمليوني دولار، قُدّمت إلى جيوش ألمانيا النازيّة في روسيا. وفعلاً فقد خرج قطار في شهر حزيران - يونيو ١٩٤٤ يحمل ١,٦٤٨ يهوديًّا من الأغنياء في هنغاريا إلى سويسرا بحراسة عسكريّة ألمانيّة، ومن سويسرا تمّ نقلهم بواسطة الوكالة اليهوديّة إلى فلسطين. وبقيت هذه الصفقة طيّ الكتمان، إلاّ أنّه أزيح الستار عنها في عام ١٩٥٧ يوم اتّهمت المخابرات الإسرائيليّة الدكتور كاستنر رئيس الوكالة اليهوديّة في هنغاريا الذي وقّع الصفقة بأنّه الذي أفشى سرّها بعد ثلاثة عشر عامًا، فجرت تصفيته بإطلاق النار عليه لدى خروجه من منزله في تلّ أبيب، وبقي الشاهد الثاني "أيخمن"، وهو الذي كان يرأس المكتب المركزيّ

لتصفية اليهود بأمر شخصيّ من أدولف هتلر، فأضيف سبب وجيه للبحث عن أيخمن لتصفيته، وقد أوردنا قصّة اختطافه من أميركا اللاتينيّة ومحاكمته وإعدامه في إسرائيل في مجال التعريف بالمخابرات الإسرائيليّة. ومع تصفية أيخمن وفّقت المخابرات الإسرائيليّة إلى حدّ بعيد في دفن هذا السرّ زمنًا، كما أنّها حرّكت المشاعر ضدّ بشاعة الرعب النازيّ ضدّ اليهود بحرقهم في أفران الغاز النازيّة بالمئات، ولكنّ العالم، وحتّى الشعب اليهوديّ نفسه، قد أغفل حقيقة مهمّة وهي أنّ زعماء الصهيونيّة السابقين كانوا على اتّصال بالنازيّين، وأنّهم ساعدوا هتلر في حربه ضدّ روسيا، وأنّهم افتدوا دم اليهود الأغنياء على حساب مئات بل آلاف اليهود الآخرين[1]...

ومن عيّنات التعاون بين المخابرات، التواطؤ بين المخابرات الإسرائيليّة والمخابرات السويديّة على سرقة وثائق وأختام السفارة المصريّة لدى السويد في العام ١٩٧٣، حيث طلبت المخابرات الإسرائيليّة من المخابرات السويديّة مساعدتها في اقتحام السفارة، فوضعت المخابرات السويديّة تحت تصرّف اثنين من ضبّاط المخابرات الإسرائيليّة هما "سيمون أديف"، و"داود بشاي"، كلاً من العملاء السويديّين "بوانسترين"، "ماريان بيرغ غرين"، "إيفان كرامر"، "فرانزين"، "بيرسيبك"، "وماريال بيغاد"، وكان الأخير خبير في فتح الأقفال ولقبه "سيبو".

جرت عمليّة اقتحام السفارة المصريّة في استوكهولم بأن قامت حسناء إسرائيليّة من المخابرات تجيد اللغة العربيّة باستدراج حارس السفارة إلى مطعم "أمباسادور" حيث وضعت له مخدّرًا في الطعام، وقد تكفّل زملاؤها بالباقي حيث ألقي الحارس في إحدى الحدائق البعيدة وهو فاقد الوعي، وهنا اتّصل ضابط المخابرات السويديّة المتآمر

---

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٨٨) ٢: ٤١٩ ـ ٤٢٠.

في العمليّة بالشرطة السويديّة وطلب عدم إرسال أيّ دوريّات شرطة إلى منطقة "ستراند فيغن" حيث موقع السفارة المصريّة، وذلك لدواع أمنيّة... وهكذا خلا الجوّ تمامًا فتقدّم "سيبو" وعالج الأقفال ففتحت ودخل العناصر إلى السفارة وكأنّهم من موظّفيها، وساعدهم على ذلك معرفتهم بأنّ السفير المصريّ وعقيلته كانا يحضران حفلة دبلوماسيّة، فقاموا بإخراج جميع ملفّات السفارة ووثائقها وصوّروها، ثمّ أعادوها إلى أمكنتها، ونزلوا إلى الطبقة الأرضيّة حيث القسم القنصليّ، فقاموا بختم العديد من الجوازات المختلفة التي تحتفظ بها المخابرات الإسرائيليّة لاستعمالها عند الحاجة، وانتهت العمليّة باشتراك المخابرات السويديّة والإسرائيليّة بهذه المعلومات القيّمة... وقد عُلم أنّ هذه المجموعة قد قامت باقتحام حوالى عشر سفارات عربيّة قبل وبعد تلك الحادثة بالطريقة نفسها.

وفي الإطار نفسه كلّفت المخابرات السويديّة الكابتن "جيلبيرت إيريكسون"، وهو قائد باخرة تجاريّة تسافر إلى البلاد العربيّة، بتصوير ميناء الإسكندريّة المصريّ والتجوّل فيه والاطّلاع على نقاط الضعف... ففعل ذلك، ثمّ قدّم تقريره إلى المخابرات السويديّة الذي شرح لها فيه نقاط الضعف في حراسة المرفأ وكيفيّة تمكّن أيّ جاسوس من دخول المرفأ متخطّيًا الحراسة بسهولة، كما قام بالمهمّة نفسها في تصوير ودراسة ميناء "وهران" الجزائريّ لنفس الغاية، وبالطبع كانت نسخة من المعلومات تسلّم للمخابرات الإسرائيليّة، وعندما نُشر كتاب عن المخابرات السويديّة والإسرائيليّة، قامت السلطات السويديّة بسحب هذا القبطان من قيادة البواخر وأخفته بحجّة الخوف عليه من المخابرات المصريّة والمخابرات الجزائريّة، وقد ظهر إيريكسون في برنامج متلفز خاص يكشف أخطاء المخابرات السويديّة للشعب السويديّ بحريّة وصراحة، فأجاب معدّ البرنامج بأنّه كان يعتقد نفسه أنه يعمل لبلده، أي للمخابرات السويديّة، ولم يكن

يعلم بأنّ نسخة من المعلومات التي كان يحضرّها للمخابرات السويديّة كانت تسلّم للمخابرات الإسرائيليّة، وهو يأسف لذلك. وقال القبطان إنّ تفشّي الرشوة في ميناء الإسكندريّة هو الذي ساعده على الحصول على أسرار قيّمة عن الاستعدادات العسكريّة وحالة الطوارئ أيضًا[1]...

الوكالات

يُعرف بـ"الوكالة" أيّ فرد أو هيئة أو جهاز يقوم باستثمار مصدر ما لجمع أو تطوير المعلومات. ويتمّ اختيار الوكالات المتوفّرة من قبل الدول للحصول على المعلومات بعد إجراء تقدير حول المعلومات المطلوبة، ولدى إجراء هذا الاختيار يجب مراعاة ما يلي:

يجب أن تكون الوكالة قادرة ماديًّا على تقديم المعلومات ضمن الوقت المحدّد؛ ويجب أن تكون مهمّة الجمع الموكلة إلى الوكالة منسجمة مع مهمّتها، وفي هذه الحالة يتمّ استخدام الوكالات الأكثر ملاءمة لتطوير المعلومات المطلوبة؛ تجري مقارنة المعلومات المقدّمة مع معلومات أخرى من مصادر ووكالات أخرى للتحقّق من مدى صحّتها ودقّتها، ولتحقيق هذا الغرض يتمّ استخدام أكثر من مصدر أو وكالة للحصول على كلّ مادّة من المعلومات مع مراعاة عاملَي الإمكانيّة والملاءمة؛ ويوزّع جهد جمع المعلومات بشكل متوازن على الوكالات وضمن التحديدات التي تفرضها العوامل الأخرى، ويُعتبَر عامل التوازن أقلّ أهميّة إذا ما قورن بالعوامل السابقة.

---

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٨٨) ٢: ٤٥٨ ـ ٤٥٩.

مَصَادِرُ الاسْتِخبَارَات الهُجوميَّة

تحدَّد كميّة المعلومات المتوافرة عن نشاطات العدوّ ونوعيّتها بإمكانات الوسائل والمصادر المخصّصة لملاحظتها وتعقّبها، وبالإجراءات الوقائيّة التي يتّخذها العدوّ لإخفاء نشاطاته.

تُعتَبر معلومات إستخباريّة كلّ نشاطات العدوّ في حركة القطاعات، وأمكنة وجود القوّات المدرّعة، وحركة استبدال الأسلحة، وتكديس موادّ التموين والذخيرة وكميّة وأنواع الأسلحة... كذلك تُعتبر نشاطات جميع وكالات استخبارات العدوّ وأساليب مراقبتها، ومعرفة تنظيم تلك الاستخبارات، وعقيدة العدوّ التعبويّة، وإجراءاته، واتّصالاته، وعلاقاته مع السكّان المحليّين... كلّ هذه تُعتبر معلومات حيويّة لوضع الخطط حول عمليّات التضليل والاستخبارات المعاكسة وإجراءات أمن القيادات.

من ناحية أخرى، فإنّ نقص نشاط العدوّ أو عدم ظهور أيّ نشاط محدّد له، غالبًا ما يكون له دلائل خاصّة مفيدة.

تُعتبر الوحدات المقاتلة ووحدات إسنادها ذات فائدة في مصادر المعلومات الهجوميّة وبشكل خاصّ في جمع وتطوير المعلومات المتعلّقة بالعدوّ ومنطقة العمليّات الواقعة أمام الحدّ الأماميّ لمنطقة المعركة.

ويُعتَبر أسرى الحرب مصادر قيّمة للمعلومات ذات القيمة التعبويّة الفوريّة، ويُستخلص أكبر قدر من المعلومات من خلال المعاملة البارعة لأسرى الحرب من لحظة الأسر وحتّى انتهاء الاستجواب. ويجب أن يبقى رجال الاستخبارات مطّلعين على النظام الراهن لمعركة العدوّ بما فيها من تنظيم وأساليب تعبويّة، حتّى يتمكّنوا من

إنجاز استجواب فعّال، كما أنّ معرفة المستجوِبين الكاملة لموقف "القوّات الصديقة" تُعتبر ضروريَّة أيضًا.

وتُعَدّ الوثائق المضبوطة أحيانًا مصادر هامّة للمعلومات. وتُعتبَر وثائق مضبوطة أيّ قطعة معلومات كانت بحوزة العدوّ وانتقلت من ثمّ إلى أيدي الفريق الآخر. ويتمّ عادة إصدار أوامر ثابتة عن كيفيّة التصرّف في وثائق العدوّ المضبوطة.

تُعتَبر شظايا قنابل العدوّ وصواريخه والحفر الناتجة عنها، والمناطق الملوثّة للعوامل الكيميائيّة والبيولوجيّة المشعّة مصادر معلومات حول أنواع أسلحة العدوّ وعياراتها وعن قوى المساندة التابعة له، وهذه المعلومات تساعد في معرفة نظام معركة العدوّ بإمكاناته ونقاط قوّته وضعفه.

تشكّل الخرائط مصدرًا قيّمًا للمعلومات المتعلّقة بأرض العدوّ، وتقرّر الوسائل المستخدمة في تحضير هذه الخرائط مدى دقّتها، وتُستكمَل الخرائط عادة باستخدام الصوَر الجويّة والأرضيّة، وبالمراقبة البصريّة، وبجداول المساحة التي تحتوي عادة على نظام المساحة ومدى ارتفاع الأرض وخصائصها.

كذلك تُعتبر النشرات والدراسات والتقارير الجويّة مصدرًا قيّمًا للمعلومات حول الطقس، وتُعتبر المعلومات المتعلّقة بمعرفة التقلّبات في الرياح السطحيّة وسرعتها ومسار الرياح العلويّة والضغط الجوّي والحرارة والرطوبة ... معلومات مفيدة جدًّا لوحدات المدفعيّة وسلاح الجوّ.

ومن أهمّ مصادر الاستِخبَارَات الهُجوميّة "أفراد الاستخبارات العسكريّة"، و"وحدات أمن الميدان"، و"وحدات العمليّات النفسيّة"، و"وحدات الهندسة والمساحة"، و"الشرطة العسكريّة" أو "وحدات الأمن العسكريّة".

ويُعتبرُ المدنيّون مصدرًا للاستخبارات الهجوميّة أيضًا، وتشمل تسمية مدنيّين كافّة السكّان المحليّين والسيّاح واللاجئين والإرساليّات الأجنبيّة، ويشكّل هؤلاء، وخاصّة الموجودون منهم في المناطق التي يسيطر عليها العدوّ، مصدرًا قيّمًا للمعلومات حول نشاطات العدوّ ومنشآته وطبيعة أرضه وعن طبيعة مناخه[1].

مَصَادِرُ الاستِخبَارَاتِ المُعَاكِسَة

من مصادر معلومات الإستخبارات المعاكسة، أو أجهزة مكافحة الجاسوسيّة، المصادر "البشريّة" أو "التقليديّة" أو "العرضيّة"، وهم الأفراد الذين يقدّمون معلومات على أسس غير منتظمة أو لمرّة واحدة، وليس في نيّتهم تكرار هذا العمل بحيث لا يُمكن إطلاق إسم منتظم عليهم، ويقع تحت هذا البند: ١) المطلوب للمقابلة، وهو من الأشخاص الذين يتمّ الاتّصال بهم بواسطة عملاء معنيّين، أو يُطلبون إلى مكتب الأمن من خلال عمليّة التحقّق بهدف إجراء مقابلة معهم للحصول على معلومات؛ ٢) المتطوّعون، وهم الأشخاص الذين يقومون بالاتّصال مع مكتب الأمن بمبادرة منهم بغية تقديم معلومات يعتقدون أنّها تهمّ فرع الاستخبارات المعاكسة؛ ٣) المصادر غير الواعية، وهم الأشخاص الذين يقدّمون معلومات ذات أهميّة أمنيّة لعدم إدراكهم، ويمكن أن تتخلّص معلومات هؤلاء الأشخاص بوسائل الاستدراج أو الوسائل الفنيّة؛ ٤) المصادر الأخرى، وهم أشخاص يمكن أن يمتلكوا معلومات حيويّة أو خاصّة ذات

---

١ ـ أبو الطيّب، الاستخبارات الصهيونيّة، ص١٦٠ ـ ٢٦٦.

صبغة أمنيّة بفضل مراكزهم واطّلاعهم، وعادة يتمّ الاتّصال مع هؤلاء الأشخاص لغرض محدّد ولا يُتوقّع استمرار الاتّصال، كما يمكن أن تكون المعلومات المقدّمة من قبل هؤلاء عن وعي أو عن غير وعي، وتشمل هذه القائمة: اللاجئين السياسيّين؛ الفارّين؛ اللاجئين عمومًا؛ المبعدين؛ أسرى الحرب؛ السيّاح...

ومن مصادر معلومات الإستخبارات المعاكسة أيضًا:

المصادر العاديّة، وهم أولئك الأشخاص الذين بفضل مراكزهم الرسميّة أو الاجتماعيّة يتلقّون المعلومات أو لديهم حرّية الوصول إلى معلومات ذات أهميّة، والذين يقدّمون هذه المعلومات بمحض إرادتهم إلى فرع الاستخبارات المعاكسة من خلال قيامهم بواجبهم، ويندرج تحت هذا البند أيّ مصادر يمكنها تغذية فرع الاستخبارات المعاكسة من خلال قيامها بعملها.

المصادر السريّة، وهم أولئك الذين يُستخدمون في العمليّات الأمنيّة الخاصّة مثل مقاومة التجسّس والتخريب والنشاطات الهدّامة، وتطلّب إدارة عناصر المصادر السريّة توفير أقصى الحماية لهم.

المصادر الوثائقيّة، والمقصود بالوثيقة أنّها مادّة مدوّنة أو مرسومة أو مطبوعة أو مسجّلة تُستخدم لنقل المعلومات، ومن أهمّ المصادر الوثائقيّة: وسائل الاتّصال، علمًا بأنّ للمصادر الوثائقيّة الإعلاميّة إمكانيّة الوصول للشعب، وفي كثير من الحالات من السهل الوصول إلى تلك المصادر، وفي هذا المجال يمكن الاستفادة من النشرات الدوريّة المحليّة والعالميّة والاطّلاع على الحوادث الجارية محليًّا وإقليميًّا ودوليًّا وعلى الميول والحركات السياسيّة للشخصيّات والمنظّمات، وتشمل هذه الوسائل الصحف والمجلّات ودليل الهاتف والخرائط وإدارة العمليّات وتحقيقات الاستخبارات المعاكسة؛ ثمّ هناك المراسلات، التي تُعتبر أوسع المصادر الوثائقيّة المستخدمة، وتشمل

المراسلات الوثائق التي يتمّ تبادلها بشكل مشروع وعلنيّ بين الأفراد والوكالات والحكومات؛ وهناك المصادر الفنيّة، إذ تُعتبر المعدّات الفنيّة التي يمكن استغلالها لأغراض التحقيق مصادر قيّمة للمعلومات، وتشمل المعدّات الفنيّة أجهزة اللاسلكي ومعدّات الترصّد والتصوير والأفلام والسجلاّت...؛ وأخيرًا هناك ما يسمّى "الإرتباط، وهو الارتباط بين الوكالات المختلفة المسؤولة عن تنفيذ الواجبات الأمنيّة، وهو يوفّر تبادلاً فعّالاً للمعلومات ذات الصبغة الأمنيّة في ما بينها، وهذا من شأنه أن يزيد من كفاءة العمليّات الأمنيّة[١].

---

١ ـ أبو الطيّب، الاستخبارات الصهيونيّة، ص٢٦٧ ـ ١٧٠.

الفصلُ الرَّابع

المعدَّات والوَسائلُ

التطوُّر الثَّوريُّ في وسَائل الجاسوسيَّة

في الماضي، وحتّى منتصف القرن التاسع عشر، كان همّ كلّ دولة قائمة أن تعرف بالدرجة الأولى ماذا عند خصمها من سلاح ومن جيوش وأن تعرف المراكز التي ترابط فيها تلك الجيوش عند اقتراب الحرب.

بمعنى أوسع: التجسّس في تلك الأزمنة كان محصورًا بالشؤون العسكريّة الصرفة.

طبعًا، هناك تجسّس شخصيّ على بعض الأشخاص المنافسين الساعين إلى استلام الحكم أو حتّى الساعين إلى الزواج أو إلى الشراء أو البيع. هذه المسألة بقيت عملاً فرديًا واهتمامًا شخصيًا في أغلب الأوقات، ولم تتطوّر إلى الحدّ الذي أصبحت فيه جزءًا من اهتمامات الدولة كنظام وإدارة إلاّ في الأزمنة الحديثة.

في العصور الغابرة كان الجاسوس جنديًا بثيابه الكاملة يمتطي حصانه ويقف في مكان متقدّم عن الجيوش المعادية، يسرع على حصانه لإبلاغ قائده ما رأى. ذاك الجاسوس يسمّى في التعابير العسكريّة "كشّافًا"، ومهمّته لا تزال قائمة حتّى اليوم، ولو بوسائل معدّلة يختفي فيها الحصان لتحلّ محلّه الأجهزة المرسلة واللاقطة اللاسلكيّة والإشارات الضوئيّة وبرقيّات الشيفرة المموّهة.

الحصان، والجمل في بعض الحالات، كان العنصر الأوّل والأساسيّ في ممارسة التجسّس على جيش العدوّ. كان الوسيلة الوحيدة للإسراع إلى القائد وإعلامه بما شوهد من جيش العدو. الحصان، أو الجمل، بقي "الآلة" الوحيدة للإعلام في كلّ الحروب التي

وقعت حتّى منتصف القرن التاسع عشر. حروب نابوليون كلّها كان التجسّس فيها لا يزال الحصان عنصره الأوّل.

في النصف الثاني للقرن التاسع عشر، تعدّلت الوسائل. فالحمامة التي تحمل الأخبار معلّقة في رجلها، ما أن اكتشف مدى استخدامها حتّى كان البرق قد تبوّأ مركزه. القطار صار وسيلة ذات أهميّة بالغة وكذلك المنطاد في بعض الحالات الطارئة.

منذ بداية القرن العشرين، صار للاستخبارات شأن آخر. القطار والسيّارة والطائرة صارت عناصر ذات فعاليّة قصوى، ثمّ تطوّرت الأمور إلى حدّ استعمال التصوير الجوّي، وكذلك استعمال الآلات الإلكترونيّة في الاستماع، فضلاً عن استخدام الأجرام الاصطناعيّة التي تدور حاليًّا في الأجواء العليا ناقلة كلّ حركة وكلّ همس[1].

إذن، هناك أمر إسمه ثورة في عالم الاستخبارات. والثورة حدثت في الوسائل والأساليب، وهذا ممّا لا شكّ فيه.

الوسائل ـ الآلات تغيّرت إلى حدّ فائق. الاختراعات سهّلت السمع والنظر البعيدين وجعلتهما في متناول أجهزة الاستخبارات على نطاق واسع. ومع كثرة الاختراعات الآليّة، كثرت المهمّات الملقاة على عاتق أجهزة الاستخبارات.

إذن، الإستخبارات كانت في الأساس عسكريّة محضة، إذ كانت بدايتها مجرّد الاستكشاف قبل المعركة. منذ الحرب العالميّة الأولى، وبصفة خاصّة منذ الحرب العالميّة الثانية، صارت الاستخبارات شاملة أكثر حول الحياة. التجسّس والاكتشاف

---

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ص١٩ ـ ٢٠.

العسكريّان صارا جزءًا من عالم أوسع بكثير. صارت الاستخبارات تهتمّ بالاختراع الجديد وبتمديدات المياه وبشقّ الطرقات وبمواقع مولّدات الكهرباء وباسم النقيب الجديد لهذه الفئة العمّاليّة أو تلك، وبطريقة انتخاب هذا النائب أو ذاك، وبمبلغ ثروة هذا أو ذلك من الناس. باختصار: صارت الاستخبارات تريد أن تعرف كلّ شيء عن الناس في كلّ ظرف وتاريخ.

ومعرفة كلّ شيء بشكل دائم مسألة تتطلّب الرجال والمال، كما أنّ صدّ الآخرين عن معرفة كلّ شيء يتطلّب الرجال والمال.

بتعبير أسهل:

إذا كانت الاستخبارات لهذه الدولة مهمّتها جمع المعلومات في تلك الدولة، فمهمّة استخبارات تلك الدولة هي أيضًا جمع المعلومات في هذه الدولة، وما يسري على الآخرين يسري على النفس.

هذا كلّه يحتاج إلى ألوف الرجال والنساء وإلى ملايين الدولارات. كذلك يحتاج إلى شيء أساسيّ آخر. هذا الشيء الآخر هو الجهاز الداخليّ في كلّ بلد، المضادّ للاستخبارات الأجنبيّة العاملة فيه. الجاسوس يحتاج إلى من يكشفه ويلقي القبض عليه ويقدّمه إلى القضاء. ومن يريد أن يكشف الجاسوس، يجب أن تتوفّر لديه إمكانات إن لم تكن أكثر من إمكانات الجاسوس فعلى الأقلّ مساوية لها.

لذا يقوم في كلّ بلد ما يسمّى بجهاز الأمن. هذا الجهاز تختلف مسمّياته ومهمّاته باختلاف البلدان، لكنّ وظيفته الرئيسيّة هي التكفّل بمراقبة نشاط الجواسيس والعملاء من الأجانب ومن المواطنين المحلّيين وتعقّبهم وحتّى الاندساس في صفوفهم والتعرّف إلى خلاياهم وارتباطاتهم ووسائلهم.

جهاز الأمن يماثل جهاز الاستخبارات في أشياء كثيرة لكنّه صاحب مسؤوليّات إضافيّة هي في الغالب مسؤوليّات الشرطة. رجل جهاز الأمن يزوّد بسلاح ناري في أكثر البلدان، ويُجري التعقّبات والمطاردات ويعرّض نفسه في ظروف كثيرة لأن يكون إمّا قاتلاً وإمّا قتيلاً.

ومع اختلاف هويّة الجهازين في كلّ بلد، الاستخبارات والأمن، فقد قضت العادة في أكثر البلدان أن يكون بينهما رابط قويّ وتنسيق دائم. أكثر الدول يشكّل لجنة مشتركة من رئيسَي الجهازين ومن موظّفين كبار آخرين لهم علاقة بتنفيذ مخطّطات الدولة.

والتنسيق ضمن هذه اللجنة المشتركة ضروريّ للغاية ما دام أنّه تنسيق فحسب. لماذا؟ لأنّ سيطرة أيّ من الجهازين على الآخر تؤدّي إلى فقدان التوازن الإداري والوظيفيّ، وبالتالي إلى أحد أمرين: إمّا جعل جهاز الاستخبارات الخارجيّة أداة تنكيل داخليّة، وإمّا جعل جهاز الأمن الداخليّ أداة ارتكاب أخطاء فاضحة في البلدان الأجنبيّة. هذه الخطورة مرتكزة إلى نوعيّة التخصّص في كلّ من الجهازين وما يفرضه هذا التخصّص من التزام ضمن حدود معيّنة.

جهازا الاستخبارات الخارجيّة والأمن الداخليّ يزدادان توسّعًا في أكثر بلدان العالم... صارا جزءًا من الحكم والإدارة وجزءًا من كلّ شيء يوميّ في البلد... أيّ بلد حديث في العالم لا يستطيع ألاّ يركّز في أطره الإداريّة جهازًا للأمن الداخليّ، السرّي طبعًا، بالإضافة إلى جهاز الاستخبارات، وأن ينفق على هذا وذاك عشرات الملايين[1].

---

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ص٣٣ ـ ٣٤.

أهمُّ أسلحَة الجَوَاسيس

يقول باحثون إنّ أوّل أسلحة الجواسيس، هي المخيّلة. ومنها تتوالد باقي الأسلحة... وعلى الجاسوس، عدا تفوّقه الجسديّ والنفسيّ والذهنيّ، أن يكون ماهرًا في استعمال يديه، وأن يتقن التزوير وعلم الكيمياء، والحفر، والسرقة، وغيرها... وعليه أن يستغلّ أيّ طاقة أو موادّ أوليّة متوفّرة، إلى الحدّ الأقصى.

والأسماء الكبيرة التي انكشفت للجمهور في عالم التجسّس، اضطرّ أصحابها جميعًا لتعلّم هذه الفنون، حتّى ولو كانت مهمّاتهم تبعدهم عن الاضطرار إلى ممارستها. فالجاسوس قد يضطرّ للقيام بأيّ عمل.

وإلى جانب الأسماء الكبيرة التي كشفها انتصار أو فشل، هناك جيش العاملين بصمت والمتستّرين بالظلّ، ولو انكشف لنا عدد أفراده لأصبنا ربّما بصدمة أورثتنا الشلل...

حتّى يلبّي الجاسوس طلبات أسياده، لا بدّ له من وضع عينيه وأذنيه وأنفه ويديه أيضًا في تصرّف ذكائه... ولن يلبث أن يحتاج أيضًا إلى أدوات فيخترعها، وتزداد اختراعاته وتتطوّر بلا توقّف ولا حدود. وتتّفق الشعوب على تسمية واحدة تطلقها على هذه الأدوات، هي "غادجيت"، ولكنّ الأميركيّين الذين يظنّهم الناس أصحاب هذه التسمية، هم الوحيدون الذين لا يستعملونها، بل يطلقون على أدوات التجسّس إسم "الأشياء التي لم تعد صالحة للاستعمال"، أو ما نسمّيه باللغة الدارجة الـ"حراتيق"، أو الـ"خردة".

لدى مشاهدة صور تلك الوسائل ومطالعة الشروح عنها قد يخيّل للمرء أنّ اقتناءها واستعمالها أمر سهل. لكنّ تشغيل هذه "الأسلحة" يستلزم مراعاة بعض الظروف، وكثيرًا من الحذر. فقد يصادف أحدنا مكبّرًا للصوت وآلة للبثّ مجموعتين في إحدى الواجهات، ويؤكّد له البائع على أنّ هذه الأداة بالغة الحساسيّة، فهي "تسمع وتسجّل عن بعد عشرة كيلومترات"... لكنّ البائع لن يعدّد الشروط التي لا بدّ من توافرها لتؤدّي الآلة مهمّتها. لا يذكر مثلاً أنّ أيّ حاجز معدنيّ أو أصوات تدخل مجال المكبّر قد تلغي مفعول الآلة... فالآلة تسمع وتسجّل بالفعل عن بعد عشرة كيلومترات، لكن شرط أن لا يعترضها أيّ حاجز أو قرميد مثلاً، وشرط أن تكون الموجة المختارة، وهي عادة موجة قصيرة، غير مشغولة ببثّ موسيقى عصريّة صاخبة، مثلاً..

ويمكن استعمال آلة الاستماع والتسجيل من بناء إلى آخر، شرط أن تسير موجة الاستماع في خطّ شبه أفقيّ وفارغ. فإذا وجدت آلة في طبقة أعلى من مصدر الصوت بسبعة أو ثمانية أمتار، فإنّ مفعولها يعطّل تمامًا. وعلى مستعمل هذه الآلة أن يراقب بطّاريّاتها، فلا شكّ في كون آلته تستمدّ قوّتها من قوّة البطّاريّة... ولا بدّ أخيرًا من الأخذ بعين الاعتبار كون جميع الآلات والأدوات المصغّرة هي في طبيعتها سريعة العطب، ويتطلّب استعمالها مهارة وخبرة. وجميع الآلات ووسائل الاستخبار والاستكشاف التي يستعملها الجواسيس تستلزم دقّة في اختيار المكان المناسب لها. وهي وإن كانت متوافرة وجدّ متنوّعة، إلاّ أنّ اقتناءها ليس بالأمر السهل، وذلك لصعوبة الاهتداء إليها ولارتفاع ثمنها وجهل تشغيلها إلاّ بعد اتّباع دورات تجسّس...

وهنا يكمن سرّ قوّة المخابرات الرسميّة التي تتصرّف بميزانيّة ضخمة ومطّاطة. فهي قادرة على اقتناء أدوات جدّ مصغّرة وتعمل بالإلكترون وذات فعاليّة مدهشة. منها على سبيل المثال آلة البثّ "بيب - بيب"، التي لا يزيد حجمها على حجم حبّة الحمّص،

والتي تثبّت على دبّوس ربطة العنق، مثلاً، أو في إحدى المجوهرات، وتمكّن رجل الاستخبارات من معرفة مكان الإنسان الذي يحملها دون أن يدري... ومنها أيضًا آلة تصوير بحجم وشكل علبة الكبريت... والآلة التي تلتقط وتبث، ويمكن إخفاؤها في بكلة صدريّة المرأة... والآلة البالغة الحساسيّة التي تأخذ صورًا عبر الجدران أو الحواجز المعدنيّة... والقلم المسدّس الذي يطلق رصاصة ٧,٥ ملم، أو غازًا، أو أيّ مادّة تسبّب القتل بـ"السكتة القلبيّة" ولا تظهر آثارها حتّى عند تشريح جثّة القتيل... والآلة التي تكشف لصاحبها أسلوب فتح أيّ خزانة أو صندوق حديديّ... والمسجّل الآليّ للمكالمات الهاتفيّة بين بلد وبلد... والمنظار بالأشعّة ما تحت الحمراء الذي يسمح بالتقاط المشاهد ليلاً وعن مسافة بعيدة..

ويقول خبراء إنّ تعداد هذه الأدوات يجب ألاّ يعطي فكرة خاطئة عن الجاسوس العصريّ. فالعميل السرّي أو المخبر لا يتجوّل بين الناس محمّلاً بهذه الأدوات، أو مالئًا جيوبه بها، أو مخبّئًا إيّاها في ما بين وجه المعطف وبطانته... فالجاسوس هو في الغالب رجل هادئ، وموظّف محترم، أو صاحب مركز مرموق، وأكثر أنواع نشاطاته يقوم بها وهو صفر اليدين. ولا بدّ من تمييزه عن أبطال الروايات البوليسيّة، الذين يصيب الواحد منهم ورقة من ورق اللعب بخمس رصاصات وبظرف ثانيتين وهو يطلق رصاصاته من مسدّسين، يحمل كلاًّ منهما بإحدى يديه... وليس الجاسوس أيضًا ذاك الـ"دون جوان" الباهر الانتصارات والمتفوّق في كلّ مجال، والمتجوّل في جميع أنحاء العالم باستمرار، وأمام أعين أعدائه، مسلّحًا بغرور لا حدّ له. الجاسوس الحقيقيّ يعيش حياة المغامرات التي تجتذب المرء في ما لو رُويت له... ولكنّه تقليديّ عاديّ المظهر ونمط الحياة. لا يعيش في قصر وليس شعره أشقر أملس يداعب جبينه، وليست ضحكته مشرقة كالنهار ولا عيناه ساحرتين، ولو كانت له هذه الأوصاف لأُبعد

فورًا عن مهنة التجسّس... فإذا كُلّف الجاسوس بعمليّة خطيرة، كالقتل مثلاً، فإنّه يقوم بمهمّته بصمت ودون أن يترك أثرًا. وتكمن كلّ مهارته في تحويل الأنظار عن نفسه وفي تحميل سواه مسؤوليّة جريمته أو عمله التخريبيّ... وباستثناء حالات خاصّة ونادرة، تبقى انتصارات الجاسوس في الظلّ، كما تبقى متابعته مجهولة.

لقد اتّخذت كاميرات التصوير أشكالاً جدّ متنوّعة وغريبة. وقد ذهبت مخيّلة كتّاب الروايات البوليسيّة إلى أبعد وأغرب من الواقع الغريب، فجعلت من آلة التصوير زرًّا في بدلة أو حمّالة البنطال أو حجرًا في خاتم. على أنّ الواقع يكفي لإثارة العجب.

فالآلات المصغّرة مخبّأة عادة بغلاف جدّ صغير، وله شكل الأدوات المستعملة بكثرة والتي لا تلفت الانتباه ولا تولّد رغبة سرقتها أو امتلاكها في نفس من يراها. وقد لعبت الولاّعات أو القدّاحات في هذا المجال دورًا كبيرًا في الماضي، وقد استُغني عنها اليوم بعد افتضاح أمرها.

عملاء اليوم يستعملون الهاتف الخلويّ للتصوير، كما يستعملون ساعة اليد التي باتت متوفّرة في الأسواق... فهم ينزعونها من معاصمهم، ويملأونها، ويتفحّصونها ثمّ يرفعونها إلى آذانهم... ومن خلال هذه الحركات، لا يصعب عليهم تصوير شخص ما بين مجموعة من الناس... ويمكن لمن يستعمل الساعة في التصوير أيضًا أن ينحني كأنّه يتفقّد الوقت، فيحدّد إطار الصورة ويسجّلها.

لكن حتّى الساعة، ككاميرا، باتت متروكة للهواة، ولا يمكن لعميل يعيش في جوّ عدائيّ أن يستعملها.

ومن الفنون في هذا المجال وضع آلة التصوير المصغّرة في مقبض العصا، أو في قلم أحمر الشفاه، أو في علبة بودرة المرأة، أو علبة السجائر المعدنيّة...

إكتشفت المخابرات الأميركيّة منذ سنوات آلة التصوير ـ حلية، تخصّ "رينيه ليفان"، زوجة الفرنسي "بيتر كرانيك"، الذي كان يعمل لحساب السوفيات. وكانت الحلية من نوع ميداليّة كبيرة، تتدلّى من العنق بسلسلة. وكان بإمكان صاحبتها أن تتلاعب بها فتوجّهها إلى حيث تضبط إطار الصورة.

وعُرف عن "دوغلاس رونالد بريتر" الضابط البريطانيّ وعميل السوفيات، أنّه كان يستعمل كاميرا مخفيّة داخل علبة سكائر، وكان يُخرج العلبة من جيبه ويقدّم لزوّاره إحدى السكائر المصطفّة أمام آلة التصوير، التي تعمل بفعاليّة حتّى في الظلام.

أحد الأسلحة المفضّلة للعميل المصوّر هي العدسة الكبيرة. وكثيرًا ما حصل العميل على صور قواعد عسكريّة جويّة وبحريّة وعلى صور عملاء العدوّ وهم يدخلون مقرّ سفارة أو يغادرونه، وهو جالس في سيّارته الواقفة على جانب طريق بعيد. وهناك أنواع من كاميرات "المينوكس" البالغة الصغر والإتقان، والتي لا يستعملها سوى المحترفين، ومنها "مينوكس سي" التي لا يزيد حجمها على حجم قلم الحبر الناشف. وهناك "التيستا" بشكل ولاّعة مبسّطة. و"الياشيكا" التي يمكن أن يضعها العميل في قبضة يده دون أن تسترعي الانتباه.

وهناك كاميرا "إكزاكاتا" الروسيّة التي كانت أداة أكثر العملاء السوفيات في تصويرهم للوثائق. وهي آلة بالغة الإتقان مصنوعة في "دريسد"، ومزوّدة بعدسة بسيطة، فتحتها ٣,٥ ملم.

وهناك في مجال سرقة المعلومات كاميرا تفوق سرعتها سرعة الصوت، تأخذ صورًا عبر جدران سميكة أو حواجز من فولاذ. هذه الكاميرا كانت حتّى وقت قريب حلمًا علميًّا وفجأة برزت آلة معقّدة التركيب، سهلة الاستعمال. في البدء كان حامل الكاميرا الأسرع من الصوت يأخذ صورًا عديدة بأوضاع مختلفة للأشياء الموجودة

خلف الجدار أو الحاجز... وطُوّرت الكاميرا في ما بعد فأصبحت تعكس الأشياء المطلوب تصويرها على شاشة إلكترونيّة، فيتمكّن المصوّر من تصويب آلته عليها. المأخذ الوحيد على هذه الكاميرا ذات الإمكانات الهائلة، هو أنّ حملها ونقلها لا يزال يلفت الأنظار. ولا يمكن توفير الوقاية من خطر هذه الكاميرا إلاّ بدهن الأشياء السريّة بمادّة ممنوعة تسميتها وممنوع كشف عناصر تركيبها، لأنّها من أسرار الدفاع الفرنسيّ. ولم يُعرف ما إذا كان هناك دولة أخرى تمكّنت من اختراع وسيلة للوقاية من إمكانيّة التقاط صور المواضيع عبر العوازل.

من ناحية أخرى، بقدر ما يهتمّ الجاسوس لجمع الصور، يهتمّ أيضًا لاستراق السمع وتسجيل الأصوات. وإنّ مشهد الفضوليّ الملصق أذنه بالباب، يمثّل أحد أقدم أساليب التجسّس، ولا يزال هذا الأسلوب متّبعًا حتّى يومنا هذا. بل هو الأكثر أناقة بين أساليب التجسّس...

الجواسيس نوعان: الشرعيّون وغير الشرعيّين. فالشرعيّون هم أعضاء السفارة المحميّون بحصانة السلك الدبلوماسيّ، وهم في الغالب الذين يوجّهون نشاطات اللاشرعيّين... ولكنّهم يقومون هم أيضًا بنشاطات هامّة أبرزها الإصغاء...

وسواء ظهروا بالبزّات العسكريّة البرّاقة، أو بزيّ السهرة القاتم، فالملحقون العسكريّون والتجاريّون والثقافيّون والقائمون بأعمال السفارات والقنصليّات والسكرتاريا... يفتحون آذانهم جيّدًا في الحفلات الرسميّة والخاصّة والكوكتيلات وفي شتّى أنواع المناسبات التي يتلقّون دعوات لحضورها ويلبّونها بحماسة وامتنان بالغَين.

فهذه المناسبات تفتح أمامهم مجال الاحتكاك بالناس وتبادل الآراء والنقاش والمراقبة. وتمكّنهم بالتالي من جمع المعلومات التي قد تبدو عاديّة، وهي أكثر الأحيان

مجزّأة، ولكنّها بالغة الأهميّة بالنسبة للمحلّل القابع في مركز المخابرات، حيث يجمع ويقارن ويقطع ويلصق... فيستوعب ويصحّح أو يعدّل ما لديه من معلومات...

ولا يغفل الشرعيّون عن وضع مسجّل مصغّر في أحد جيوبهم، فلعلّهم يحتاجونه صدفة. أو لعلّ توقّعهم يصحّ، فيلتقون بالشخص الذي يهمّهم أمره، ويكون حسّاسًا تجاه الكحول والأجواء الاجتماعيّة المترفة، فينطلق لسانه...

وغير الشرعيّين يلجأون أيضًا إلى هذه الأساليب القديمة الأنيقة...

وما نقوله عن الشرعيّين أمر معروف... ولا يخفى على أحد أنّهم موجودون خارج بلادهم، ليفتحوا عيونهم وآذانهم جيّدًا. ولا خطر عليهم ولا ملامة... وكلّ ما يصيبهم لدى افتضاح أمرهم هو تسفيرهم إلى بلادهم أو إلى الخارج.

وبما أنّ الأذن البشريّة محدودة الطاقات، فقد جُهّز الجواسيس بـ"آذان" تتفوّق طاقاتها على الأذن البشريّة بمئات المرّات. وجُهّزوا أيضًا بأدمغة تسجّل حرفيًّا وبلا خطأ ولا نقصان جميع الأصوات. وبوجود المسجّل، والمسجّل البثّاث، وسواهما، لم يعد بالإمكان إخفاء أيّ صوت عمّن يصرّ على سماعه، ويبذل في سبيل ذلك المجهود اللازم. وأدوات الاستماع والتسجيل أكثر تطوّرًا من آلات التصوير، ويمكن تصغيرها إلى الحدّ الأقصى بفضل تقدّم علم الإليكترون. ولا بدّ من ملاحظة وهي أنّ الفارق شاسع بين الآلة التي تصدر صوتًا فتمكّن المراقب من تتبّع تنقّلات حاملها، وبين ناقل الصوت الذي يرسله عبر أسلاك خاصّة إلى مكبّر، وبين المسجّل البسيط البثّاث، وهذا الأخير بمثابة محطّة إذاعة صغيرة...

أولى هذه الأدوات، أي الآلة التي يصدر عنها صوت، هي بسيطة الصنع، ويمكن تصغيرها حتّى تصبح بحجم رأس الدبّوس. لكنّ الحجم الأفضل، لكونه يحمل بطّاريّة

قويّة تدوم مدّة طويلة، هو حجم حبّة الأسبرين، ويمكن وضع هذه الآلة في جيب شخص تُطلب مراقبته، أو يمكن صنعها بشكل زرّ وتثبيتها في ثيابه... وهناك نساء يخفين هذه الآلة في مكان ما من أجسادهنّ، وبعض الناس يبتلعها... وتُستعمل هذه الآلة، واسمها "باليز"، إمّا لتتبّع تنقّلات إنسان مشكوك بأمره، أو لحماية عميل عن طريق معرفة مكان وجوده...

خلال عام ١٩٦٨، استُعمل جهاز "الباليز" على أنّه من أجهزة مكافحة التجسّس، بنجاح. ذلك عندما لوحظ أنّ "آمري نابيت"، الموظّف في حلف الأطلسيّ في بروكسيل، والذي كان موظّفًا كبيرًا في وزارة المال التركيّة، يسافر باستمرار إلى جهة مجهولة خارج العاصمة التركيّة. ولاحظ جهاز مكافحة التجسّس أنّ نابيت خبير ماهر في التهرّب من مراقبيه دون أن يُشعرهم، أو يبدو عليه أنّه يحسّ بوجودهم... وأخيرًا وضعوا له "باليز" في حقيبة يحملها معه خلال تنقّلاته، وتمكّنوا من اكتشاف الأشخاص الذين كان يتّصل بهم. وتبيّن أنّه كان ينقل إلى السوفيات وثائق سريّة عن حلف الأطلسيّ.

وتستعمل هذه الآلة أيضًا الشرطة المختصّة في ملاحقة عصابات التهريب.

ومن عادة رجال المخابرات أن يستعملوا المسجّل بشكله العاديّ، شرط أن يتقنوا إخفاءه في غرفة أو سيّارة أو أيّ مكان... والجواسيس لا يتحدّثون عادة في أماكن غريبة كغرفة فندق، وداخل سيّارة تاكسي، مثلاً... وإذا هم غابوا مدّة عن سيّارتهم الخاصّة، وعادوا إلى استعمالها، فإنّهم يفتّشونها جيّدًا للتأكّد من عدم زرع آلات استماع في داخلها.

لقد أصبح التجسّس أمرًا طبيعيًّا لدرجة أنّ الضيف الرسميّ لدولة أجنبيّة كثيرًا ما يفضّل أن ينزل في مبنى سفارة بلاده أو في منزل صديق، على أن يقيم

في المقرّ المخصّص لكبار الضيوف... حيث يضطرّ للبقاء صامتًا تحسّبًا لأجهزة التنصّت.

بالنسبة للمسجّل البثّاث، كانت هناك بعض الصعوبات في استعماله. فهو كان بحاجة إلى لاقط... ومن ثمّ أصبح اللاقط صغيرًا ومخفيًا. فقد يكون لؤلؤة تثبّت في ربطة عنق، وقد يكون قشّة مغروسة في حبّة زيتون على المائدة، أو سلسلة نظّارتين، أو جزءًا صغيرًا من قلم حبر تكاد لا تلاحظه العين... والمشكلة الوحيدة التي قد تعترض هذا النوع من المسجّلات، هي مشكلة البطّاريّة التي تتحكّم بقوّة البثّ.

ويتحدّث خبراء عن وجود مجموعات كبيرة من هذه المسجّلات في الأسواق العاديّة حيث يجد الهواة ما يتراوح حجمها ما بين علبة الكبريت وحجم طابع البريد، ويتمّ البثّ على الموجة المتوسّطة والـ FM، ويمكن التقاط ما تبثّه المسجّلات الصغيرة بواسطة أيّ جهاز راديو عادي يلتقط هذه الموجات على ذبذبات تراوح سرعتها ما بين ٨٠ و١٠... وأشهر هذه المسجّلات البثّاثة وأبسطها السمّاعة التلفونيّة التي هي نسخة طبق الأصل عن السمّاعة العاديّة، وتبثّ المكالمات على مدار نحو ٢٠٠ إلى ٣٠٠٠ متر. وهناك محاولات لتطوير السماعة التليفونيّة بحيث تسجّل وتبثّ كلّ ما يُقال في الغرفة، حتّى عندما يكون خطّ الهاتف مقفلاً.

قد يلجأ المتجسّس على الأصوات إلى أشكال متعدّدة في استعمال الهاتف، فالاستماع إلى المكالمات الهاتفيّة ممكن في ما لو ثبّتت وصلة على الخطوط العامّة المارّة فوق الشارع أو تحت الأرض أو في المقسّم الداخليّ... لكنّ هذه العمليّة الأخيرة يصعب أن يقوم بها غريب عن المؤسّسة. وهناك حادثة تثبّت صحّة هذه النظريّة، فيوم أُوقف ثلاثة من رجال المخابرات المركزيّة الأميركيّة في عاصمة كوبا، وتبيّن أنّهم

كانوا يستمعون إلى المكالمات الهاتفيّة التي تحدث داخل وكالة أنباء الصين الشعبيّة في هافانا، اكتشف المحقّقون أنّ عمليّة تثبيت الوصلة على خطوط الهاتف تمّت بمساعدة سكرتيرة السفارة الصينيّة الآنسة "مارجوري لينوكس".

وهناك كميّة ضخمة من المعلومات التي يتمّ جمعها بفضل الآلات اللاقطة للرسائل اللاسلكيّة. ومن عادة المحطّات الأرضيّة والبحريّة والمركبات الجويّة المزوّدة بآلات لاقطة أن تجمع شتّى المعلومات وتنقلها إلى مراكزها الأساسيّة.

ومن المسجّلات ما يثبّت على الجدران أو على النوافذ من الخارج... لكنّ هذه الآلات بالغة الدقّة وباهظة التكاليف وليست بالتالي في متناول كلّ يد.

وتحدّث باحثون عمّا اعتبروه "أطرف حكايات التجسّس" بواسطة مسجّل بثّاث... وموضوع تلك الحكاية قد حصل في مؤتمر واشنطن، حيث قدّم الوفد السوفياتيّ للمستر "هاريمان" سفير الولايات المتّحدة الأميركيّة تمثالاً مصغّرًا عن النسر المجسّد للشعار الأميركيّ... حصل هذا عام ١٩٤٨. وكانت الهديّة تحفة فنيّة متقنة، منحوتة باليد على خشب. وقال رئيس الوفد السوفياتيّ إنّ الهديّة "رمز للإعجاب والشكر على ما قدّمته الولايات المتّحدة الأميركيّة من خدمات للبحريّة". والمقول إنّ السفير هاريمان قد تأثّر وأجاب: "تقديرًا منّي لأهميّة الهديّة التي ترمز إلى الصداقة القائمة بين بلدينا، أعد بأن تبقى التحفة أمام عينيّ باستمرار ومن بعدي أمام عيني حلفائي". والمقول إنّه لم يكن للمخابرات السوفياتيّة من مطلب أفضل من هذا الوعد. فقد كان التمثال الخشبيّ يحوي مسجّلاً بثّاثًا، ينقل الخطب الوديّة المتبادلة في تلك اللحظة إلى مبنى غير بعيد يخصّ الجهاز السرّي السوفياتيّ. والمقول أيضًا إنّ أمر التمثال لم يفتضح إلاّ بعد سبع سنوات وبعامل الصدفة، حيث اكتشف أحد سكرتيريّة السفارة الأميركيّة أنّ التمثال الذي كان يتوسّط كلّ الاجتماعات السريّة مجهّز بمسجّل بثّاث.

غير أنّ هناك قصّة مماثلة تروى عن شعار للمخابرات الأميركيّة المركزيّة CIA الذي يتوسّطه نسر، زرع في السفارة الأميركيّة في موسكو عن طريق إهداء ذلك الشعار إلى السفير. لذلك يصعب تصديق الحكايتين.

بيد أنّ الأميركيّين قد عانوا مهارة السوفيات في مثل هذا النوع من التجسّس. ففي عام ١٩٦٤، حصل تسرّب لكميّة من المعلومات، وتوالت الصعوبات بحيث لم تعد تدع مجالاً للشكّ في أنّ الدبلوماسيّة السوفياتيّة باتت عليمة بنوايا واشنطن. عندئذ جرى تفكيك جميع "الهدايا" السوفياتيّة، ولكن دون جدوى. ودارت الشكوك حول السكرتيرات، والمستخدمين، والموظّفين، حتّى كادت تدرك السفير الأميركيّ نفسه... وفي نهاية التحقيق تقرّر إبعاد تهمة الخيانة عن موظّفي السفارة الأميركيّة في موسكو، وتقرّر فتح تحقيق من نوع آخر، وحضر إلى موسكو أمهر الاختصاصيّين في طائرة خاصّة، وراحوا يبحثون في الخزائن والجدران والأرض، وأخيرًا انكشفت الحقيقة التي فاقت كلّ توقّع...

لقد تبيّن أنّه يوم قرّر الدبلوماسيّون الأميركيّون السكن في موسكو، شارع تشايكوفسكي، امتلكوا بناء هناك، فرمّموه وأضافوا إليه ثلاث طبقات. وقام بأعمال البناء عمّال سوفيات، وهكذا ثُبّتت داخل الجدران أربعون آلة تسجيل بثّاثة...

ويعقّب باحثون على هذه الحادثة بالقول: قد تبدو هذه الحكاية ومعها حكاية "التمثال الهديّة" مضحكتين، لكن لا يمكن لأحد أن يعتبر نفسه خادعًا أو مخدوعًا في هذه اللعبة. وعواء كلّ فريق حين يكتشف الخدعة هو في كون الفريق الآخر مخدوعًا هو أيضًا، بلا شك!

والمسجّل البثّاث كان السبب في هلاك عميلة المخابرات الأميركيّة في براغ" المدعوّة "تيتا كابيني"، التي كانت موضوع شكوك الجهاز السرّي التشيكيّ، ولكنّ

مراقبتها لم تسفر عن أيّ نتيجة... وفي ذات ليلة دخل منزلها عميل سرّيّ وقام بتفتيشه. ولم يدّعِ أنّ قصده السرقة، حتّى لا يثير شكوك الجاسوسة. واطمأنّت نيتا إلى كون الزائر الليليّ لم يجد في منزلها ما يثبت التهمة عليها. وتوقّعت أن تفتر حماسة التشيكيّين في مراقبتها.

في الواقع، خفّت المراقبة واستعادت نيتا نشاطاتها تدريجًا، من خلال لقاءاتها بالعميل المتّصل بها. وكان تبادل المعلومات يتمّ بينهما شفويًّا، أثناء نزهة أو سهرة حميمة. وكانت نيتا تحلّي عنقها دائمًا بعقد من اللؤلؤ الصناعيّ. وكان العميل الذي دخل بيتها قد بدّل هذا العقد بعقد مشابه له تمامًا، صنع بعدما تمّ تصوير العقد الأصليّ من جميع جوانبه وبعد أن دُرست تفاصيل صوره طويلاً وبإتقان من قبل خبراء المخابرات.

لم يكن العقد المستبدل ليختلف عن الأصليّ سوى بأنّه يحوي مجموعة آلات الإرسال وبطّاريّات متّصلة ببعضها البعض، وبخيط العقد الذي يقوم بوظيفة اللاّقط...

قُبض على نيتا كابيني في فندق "كرون" في براغ، حيث كانت تجالس رجلاً غريبًا، وهي تبدو لعين الناظر إليها كأيّ امرأة حلوة تتسلّى برفقة معجب تقليديّ... ولكن واقع الأمر كان أكثر خطورة من ظاهره...

لا تنتهي مهمّة الجاسوس عند حدود سرقة الصور والتسجيلات، فالمعلومات لا قيمة لها طالما أنّها لم تصل إلى مستقرّها. وقد تكون عمليّة نقل المعلومات أشدّ خطرًا وصعوبة من عمليّة جمعها.

يبدأ الجاسوس بتصغير حجم صوره وتسجيلاته قدر الإمكان، ليسهل عليه إخفاؤها، وقد يوصلها إلى أحد المتعاملين معه، وقد تمرّ على عدد من العملاء قبل أن تتسلّمها يد

المسؤول الأوّل عن الشبكة. وقد يتولّى الجاسوس الذي جمعها أمر توضيبها وإرسالها مباشرة إلى مركز المخابرات.

مشكلة نقل المعلومات من بلد عدوّ إلى بلد بعيد ليست سهلة. وقد درجت السفارات على إرسالها بالحقيبة الدبلوماسيّة، بعد إخفائها في كتاب ضخم أو مجلّة. وبعض العملاء يخفي أفلامه وتسجيلاته داخل قطعة معدنيّة أو قطعة غيار لآلة ما، أو أيّ أداة تستعمل بكثرة... وهنا تلعب مخيّلة الجاسوس دورًا أساسيًا.

أمّا تقنيّات تصغير حجم الوثائق والمعلومات فجدّ متقدّمة. هناك موادّ مثل "التيرفين"، تمكّن الصناعات المختصّة من إنتاج أفلام لا تراها العين المجرّدة، فحجمها أقلّ من ميليمتر واحد.

يقال إنّ السوفيات هم أسياد هذا الفنّ. ويتوقّع الخبراء أن لا يكون الصينيّون أقلّ منهم مهارة، خصوصًا أنّ فنّاني الصين القدماء كانوا ينحتون عشرات آلاف الأحرف على مساحة من العاج لا تزيد على سنتيمتر مربّع واحد.

لقد توصّلت تقنية الحجم إلى حدّ يسمح بتقليص مطبوعة على الآلة الكاتبة إلى مربّع لا تتعدّى مساحته نصف ميليمتر مربّع واحد. ويمكن تصغير جميع الوثائق على هذا المنوال سواء كانت من نوع الخط أو الكتابة أو الصور... ويمكن في ما بعد تكبيرها لتستعيد حجمها الأساسي.

أوّل مرّة استُعمل فيها الـ"ميكروفيلم"، أو "الفيلم المصغّر"، كانت في عام ١٨٧٠. يومئذ كان الجواسيس يتراسلون بواسطة الحمام الزاجل، ما اضطرّهم إلى البحث عن وسائل تصغير رسائلهم. وتوصّلوا إلى تحميل الحمامة الواحدة مجموعة من الميكرو صور تعادل بفحواها ٣٥ ألف برقيّة أو وثيقة...

مخترع تصغير الأفلام إلى هذا الحدّ هو "رينيه داغرون"، وقد أهمل اختراعه مدّة ثمّ استعمله من جديد في عام ١٩٢٠، لأهداف سلميّة وثائقيّة، إذ اعتُمد كأسلوب لتنظيم الأرشيف في المكتبات الضخمة، ثمّ لم يلبث أن عاد إلى قواعده الأولى، أي إلى عالم التجسّس. وأهمّ اختراع في مجال تصغير الوثائق هو بلا شكّ نسخ الأفلام بالإليكترون، أي بدلاً من تظهير الفيلم بالضوء، يتمّ تظهيره بتمرير خطّ إلكترونيّ عليه. وهكذا يتوافر عنصران أساسيّان، عنصر التصغير وعنصر السرعة القصوى في التظهير.

وأساليب الاتّصال جدّ متنوّعة وبسيطة أكثر الأحيان... "ماك لين" كان يضع معلوماته في جيب معطفه الذي كان يعلّقه عند مدخل مطعم يرتاده. وقد وُجدت في جيوبه وثائق على شكل نسخ طبق الأصل أو صور مأخوذة بآلة "مينوكس". وكان لين يتلقّى التعليمات من رؤسائه بشكل أفلام مصغّرة، موضوعة داخل علبة كبريت عاديّة.

وعُرف عن عميلين أنّهما كانا يعتمران قبّعتين متشابهتين، ومن المقاس ذاته، ويدخلان مطعمًا معيّنًا ثمّ يتبادلان قبّعتَيهما حين يغادرانه.

ويمكن استعمال الرغيف أو أنبوب معجون الأسنان أو أيّ شيء مجوّف كفرشاة الشعر أو آلة الحلاقة أو الحلية أو البكلة أو الزنّار أو أيّ أداة أخرى... ويبقى الأهمّ في قضيّة نقل المعلومات أن يكون حاملها بعيدًا عن الشكوك.

ويذكر أحد العملاء الأميركيّين أنّه وضع علبة تحوي أفلامًا مصغّرة تحت التبغ داخل غليونه وأشعل الغليون وهو يجتاز حدود إحدى دول أوروبّا الشرقيّة. وتأمّل رجل الأمن المكلّف بتفتيش المسافرين ذاك الغليون طويلاً، فقال له الأميركيّ متحدّيًا: "هل أعجبك غليوني؟ أظنّ أنّه من الصعب عليك أن تجد شبيهًا له في بلادك!". ونجحت الحيلة، إذ إنّ رجل الأمن قابل التحدّي بتحدّ مماثل، فأجابه: "أطفئ هذا الغليون وتابع طريقك"...

إنّ هواة روايات أفلام التجسّس يتحدّثون كثيرًا عن دور الحذاء في مجال إخفاء المعلومات أو السلاح. أمّا العملاء الحقيقيّون والمدرّبون، كما يجب أن يكون كلّ عميل، فهم يعرفون تمامًا أنّ وجود شفرة معدنيّة عاديّة في رأس الحذاء يكفي للتخلّص من العدوّ بضربة قدم محكمة... كما يعرفون بالخبرة أنّ السلاح الأبيض يصعب انتزاعه من غمده أحيانًا كثيرة... وتصوّروا لو أنّ عميلاً رفس عدوّه بحذاء يخفي خنجرًا، وهرب مسرعًا تاركًا الجثّة المغروس فيها الخنجر والحذاء معًا!...

على أنّ الحذاء كثيرًا ما استعمل لإخفاء الوثائق، وخاصّة خلال الحرب العالميّة الثانية. وأشهر شركة صنعت عددًا من هذه الأحذية الخاصّة، كانت شركة "بالي" السويسريّة، التي كان عملاؤها يتنقّلون أثناء الحرب في البلدان المحتلّة والمحايدة والمشتركة في النزاع حاملين داخل أحذيتهم رسائل بالغة الأهميّة. وكان كلّ منهم يعود إلى بلده وقد انتعل بالطبع حذاء آخر غير الذي انتعله حتّى يغادرها.

وتُنقل الرسائل القصيرة عادة بواسطة الراديو. وخلال الحرب العالميّة الثانية كان العميل أو رئيس الشبكة يملك آلة معروفة بأحرف "V.H.F." تبثّ على موجة قصيرة جدًّا، وعلى مسافة قصيرة أيضًا. وعند الضرورة بواسطة محطّات اتّصال تحملها غوّاصات تطفو ليلاً على سطح البحر قريبًا من الشواطئ... وقد اخترع البريطانيّون آلة بثّاثة بشعاع أفقي، تنتخب الموجات التي يمكن التقاطها، أمّا سيّئة هذه الآلة فهي ضرورة إحكام توجيه الشعاع الذي تبثّه، ما يستلزم تجهيزات معقّدة، وذات حجم مزعج. ولكنّ حسنتها الكبرى تكمن في أنّه يستحيل التقاط ما تبثّه.

ومن عادة العملاء والدبلوماسيّين أن يبثّوا رسائلهم بالشيفرة وبسرعة فائقة بحيث يستحيل تفسيرها عند التقاطها.

ربّما كانت الطائرة الملقّبة بـ"الحمامة العصريّة" هي أغرب وأذكى وسائل نقل الوثائق والمعلومات. ومخترع هذه الطائرة مهندس بريطانيّ، قصد سكوتلنيارد ذات يوم ليقول: "لقد وفّرت وسيلة مثلى ينقل بها الجواسيس معلوماتهم ووثائقهم على مسافة تتجاوز عشرات الكيلومترات... وذلك بأمان كامل". وشرح كيف أنّ أشخاصًا عرضوا عليه تجهيز طائرات صغيرة بآلة تجعلها تتّجه تبعًا لتعليمات تأتيها من الأرض، وبآلة ثانية تجعلها تنزل في مكان محدّد. وكانت تلك الطائرات صغيرة بحيث لا يلتقطها رادار ولا تراها العين المجرّدة، ويستحيل إيجادها بعد أن تحطّ على الأرض. واستلم الجهاز الخاصّ في بريطانيا تلك القضيّة ولاحقها. في ما بعد، تمكّنت أجهزة الجنرال "غيهلر" من التقاط عدّة طائرات من هذا الطراز، كانت تعبر الحدود بين ألمانيا الغربيّة وألمانيا الشرقيّة في حينه.

إنّ جميع الرسائل والمعلومات والوثائق تنقل بالشيفرة. وكلّ البلدان تستعمل الشيفرة لنقل التوجيهات والمعلومات الدبلوماسيّة. والبلدان المتقدّمة تنفق مبالغ باهظة على جهاز الاختصاصيّين في ترجمة الرسائل الأجنبيّة المقولة بشتّى أنواع الشيفرة. وأسس الشيفرة مبنيّة على إمكان استبدال كلمة أو رمز بمجموعة من الكلمات أو الرموز أو الأفكار الأخرى... وأيضًا الاستعاضة عن حرف أو كلمة برقم... وهناك أرقام وحروف بسيطة تعني دائمًا حرفًا واحدًا... وهناك أيضًا أرقام مزدوجة ومعقّدة، لا يمكن تفسيرها إلاّ بمقارنتها مع رسالة ثانية... ولا يُستعمل تفسيرها إلاّ مرّة واحدة لأنّها ترمز في كلّ مرّة إلى أشياء مختلفة. لكنّ الأدمغة الإلكترونيّة تتوصّل إلى ترجمة جميع النصوص مهما بلغ تعقيد الشيفرة في كتابتها. وتعتبر آلات ترجمة الشيفرة ومعها المراكب الفضائيّة أثمن أدوات التجسّس، فهي باهظة التكاليف. على أنّها لا تقوم مقام الدماغ البشريّ ومهارة الاختصاصيّين في هذا الحقل.

في عام ١٩١٥ أطلق جنود فرنسيّون الرصاص على حمام طائر واكتشفوا أنّه يحمل آلات تصوير موجّهة نحو الأرض، بحيث تلتقط صورًا واضحة أثناء تنقّل الطائر. أمّا حمام اليوم فطائرات يقودها جواسيس الجوّ... أو تطير من دون طيّار.

إستعمال الهويّات المزوّرة والماكياج الذي يتوصّل أحيانًا إلى حدّ إجراء عمليّة لتغيير معالم الوجه كانت ولا تزال وسائل فعّالة لحماية الجواسيس... ومعروف أنّ تغيير الهويّة ليس بالأمر الصعب، ولا يستغرق وقتًا طويلاً. فكثيرًا ما تطالعنا الصحف بأخبار تقول إنّ فلانًا ظلّ يقود سيّارته طوال عشرين سنة وهو لا يملك إجازة سوق... أو أنّ فلانًا يحمل اسم أخيه... الذي توفّي منذ سنوات...

المزوّرون يحقّقون المعجزات في مجال خلق هويّات جديدة لأفراد العصابات المطاردين من قبل الشرطة. والتزوير وجد منذ القديم وتطوّر في كلّ زمان ومكان.

في عام ١٩٦٤ اضطرّت السلطات الأميركيّة إلى إلغاء جميع الأوراق النقديّة واستبدالها بغيرها. والسبب كان أن أكثر من نصف الأوراق المتداولة وقتئذ أصبح مزوّرًا، وقد تمّ تزوير مليارات الدولارات التي أغرقت أميركا وأوروبّا وحتّى الشرق الأوسط...

المزوّر غالبًا ما يكون منطويًا على ذاته بعيدًا عن مجتمعه، يعمل بصورة متواصلة وفي جوّ محفوف بالمخاطر، وتتطلّب مهنة التزوير تجهيزًا هامًّا من الحبر الملوّن والأوراق وسواها، وعلى المزوّر أن يكون حفّارًا وكيميائيًّا وطبّاعًا ماهرًا وعاملاً على أجهزة الكومبيوتر في وقت واحد. لكنّ المزوّرين العاملين في الأقسام التقنيّة التابعة لمراكز التجسّس يقبضون أجرًا يوازي أتعابهم ومواهبهم، وهم يعملون في جوّ هادئ أمين. على أنّ مراكز التجسّس لا تزوّد سوى عملائها الكبار بالهويّات اللازمة. أمّا العملاء الصغار، وخلافًا لما هو شائع، فعليهم أن يتدبّروا أمورهم

بوسائلهم. وهم غالبًا يلجأون إلى مزوّرين يعملون لحسابهم الخاصّ. ولا يكفي العميل أن يصنع لنفسه بطاقة هويّة أو جواز سفر، ليطمئنّ إلى أنّه تقمّص شخصيّة جديدة، بل عليه أن يفبرك رسائل توجَّه إلى عنوانه الجديد، وأن يلقي في جيوبه بعض تذاكر القطار أو الميترو أو سواهما من وسائل النقل، وبطاقات تشهد بعضويّته في بعض النوادي، وبطاقات دعوة...

وحين يغادر الجاسوس مركز عمله الأساسيّ، بهويّة جديدة، يحمل معه "حقيبة" كاملة. وعليه أن يحفظ عن ظهر قلب أحداث الشخص الذي استعار اسمه وهويّته وأن يعرف عائلته وأجداده والأماكن التي عاش فيها أو زارها...

ويروي باحثون أنّه في وقت سابق، سافر الأميركيّ "أندرو كابوتس" إلى أوروبّا. كان يسكن ديترويت وله من العمر واحد وخمسون عامًا. تبادل بعض الرسائل مع أصدقائه الأميركيّين، ثمّ لم يعد أحد ليسمع شيئًا من أخباره.

في نهاية عام ١٩٥٦، نزل أندرو كابوتيس على الشاطئ الكنديّ قادمًا من مرفأ الهفر الفرنسيّ، وقصد "كيبك"، واختفى فيها. وبعد مدّة اكتُشف أنّ أندرو هو نفسه الكولونيل "آبيل"، العميل السوفياتي الشهير، الذي عمل مدّة في المخابرات الألمانيّة أثناء الحرب... والذي عاش في بريطانيا كمواطن إنكليزيّ يحمل اسم "مارتن"... والذي انتقل إلى بروكلين باسم "إميل غولدفوس"... كما اكتُشف أنّ إميل غولدفوس الحقيقيّ، المولود في نيويورك في ٢ آب ـ أغسطس ١٩٠٢، كان قد توفّي وهو طفل. وقصّة آبيل قد تعطي المرء فكرة عن كيفيّة وسهولة تغيير هويّة الجاسوس كلّما اقتضى الأمر ذلك.

على أنّ الهويّة المزوّرة والتنكّر بنظّارات ولحية وتغيير معالم الوجه بعمليّات جراحيّة، لا تنقذ الجاسوس من ملاحقة جهاز مكافحة التجسّس. فقامة الجاسوس أو

تفاصيل صغيرة في مشيته وتصرّفاته غالبًا ما تعمّم على ملاحقيه، وتكون دليلاً واضحًا عليه. فـ"هامز برونز"، مثلاً، الذي عمل في شعبة التجسّس السوفياتيّ تحت إمرة "كريفيتسكي"، وكُلّف بملاحقة معلّمه حين انتقل هذا الأخير إلى خدمة الغرب... هرب كريفيتسكي إلى "شالوتسفيل" في ولاية فيرجينيا الأميركيّة، ثمّ ترك المدينة ولجأ إلى واشنطن، ثمّ إلى نيويورك حيث يضيع أيّ رجل مهما كان معروفًا. وكان كريفيتسكي مسلّحًا بصورة دائمة وشديد الحذر. ورغم ذلك اكتشفه "هانز بروز" وكان ينزل في فندق "بيلفيو" باسم "صموئيل غينسبيرغ". وفي صباح اليوم التالي، وجدته خادمة الفندق قتيلاً في فراشه وقد اخترقت رأسه رصاصة من نوع "دوم دوم"، ومسدّسه في يده... ولم يفده لا الماكياج... ولا الهويّة المزوّرة... ولا الانتقال المتواصل من مدينة إلى أخرى...

كما أنّ مهمّة مكافحة التجسّس لم تعد مقتصرة على حفظ السجلاّت، والتحقيق في ماضي المشكوك بأمرهم وملاحقة عملاء العدوّ وتقديمهم إلى المحاكم، بل عليها أيضًا أن تبحث عن الجواسيس في بلادهم وأن تقطع حبل نشاطهم. ويُطلب من مكافحة التجسّس دعم وضع سياسيّ أو إنجاح مهمّة دبلوماسيّة، أو العمل على إضعاف موقف العدوّ... وأحيانًا الحليف... وفي سبيل الأهداف، تُعتبر جميع الوسائل مشروعة، سواء كانت من نوع الابتزاز أو القتل أو تشويه السمعة، أو افتعال التخريب... ويقوم بهذه العمليّات جهاز خاصّ، معروف عادة باسم "جهاز التنفيذ". وإذا كانت مكافحة التجسّس ذاته، فالتنفيذ هو التوأم الصاخب، الذي لا بدّ منه، لإنجاح تلك المكافحة. ويستعمل جهاز التنفيذ جميع أنواع الأسلحة والأدوات المستعملة في حقل سرقة المعلومات، بالإضافة إلى أسلحة فتّاكة تتوفّر بين أيدي رجال يجهلون معنى الشفقة... وتخضع الأسلحة الفتّاكة إلى عمليّات تطوير وتحسين لا تنتهي. فالقتل لا تزداد نسبته في مجال

مكافحة التجسّس فحسب، وإنّما تبذل جهود متزايدة لإخفاء الجريمة بمظاهر الموت بحادث حصل قضاء وقدرًا. وعالم القتلة زاخر بالاختصاصيّين والتقنيّين المهرة.

منذ سنوات، كان كاتم الصوت هو نجم الأسلحة الفتّاكة. أمّا اليوم، فلم يعد يُستعمل إلاّ في حالات الدفاع عن النفس... فالقاتل الواثق من فريسته يفضّل استعمال مسدّس الغاز أو آلة تنفث سائلاً قاتلاً أو نشّابًا صغيرًا مسمومًا.

ليس من مركز لمكافحة التجسّس إلاّ وله جهاز تنفيذ منظّم. وذلك في جميع بلدان العالم تقريبًا وفي جميع الدول الكبرى بلا استثناء. وعملاء جهاز التنفيذ في جميع البلدان من نوع المخرّبين أو خبراء الثورات والاختصاصيّين في الكفاح المسلّح وقائدي مختلف أنواع الطائرات والرماة من طراز النخبة وهواة استعمال الأسلحة الفتّاكة على أنواعها... وهم جنود في ثياب مدنيّة يقومون بمهمّات أغرب ممّا قد يتصوّره خيال الروائيّين، وفي مثل هذه المهمّات فإنّ أساليب القتل تكتسب أهميّة أكبر من القتل بحدّ ذاته.

ربّما كانت حادثة "ستاشينسكي" تلقي أضواء كثيرة على أسلحة وأساليب عمل أجهزة التنفيذ. فقد قتل ستاشينسكي مهاجرًا من أوكرانيا يدعى "ليف ريبيت"، يعيش في ميونيخ، وذلك بسلاح سوفياتيّ، كان بشكل قسطل يراوح طوله بين ١٨ و ٢٠ سنتيمترًا، في داخله بخّاخ يقذف أسيد البروسيل السامّ...

أقدم ستاشينسكي على قتل ريبيت على درج المبنى الذي يسكنه. ثمّ كسر أنبوب الغاز المضادّ للسمّ وتنشّقه وهو ينزل الدرجات بتمهّل. وجاء في تقرير شرطة ميونيخ أنّ سبب وفاة ريبيت كان "توقّف قلبه عن العمل فجأة"... وحصل بعد مدّة أن التقى ستاشينسكي فتاة ألمانيّة فأحبّها. ودفعه الحبّ إلى القرف من القتل. ولمّا تزوّج من حبيبته، واسمها "آنجي بول"، انتقل إلى ألمانيا الغربيّة حيث روى قصّة حياته...

وتفاصيل تلك القصّة التي تصلح لإنتاج فيلم بوليسيّ ممتاز... وممّا قاله ستاشينسكي إنّ تجارب الأسلحة السوفياتيّة الصامتة كانت على الكلاب في أكثر الأحيان.

ويبقى السلاح الأشدّ ضمانة هو "المسدّس الصامت"، الذي يطلق رصاصة دون أن أن يصدر عنه أيّ شعاع أو صوت. وليس المقصود بهذا المسدّس الآلة التي تكتم الصوت ويمكن تركيبها على أيّ سلاح، بل المسدّس المصنوع بحيث يطلق رصاصة بلا صوت ولا ضوء ولا دخان على عكس ما يحصل للمسدّسات التقليديّة.

وخلافًا لما هو شائع، وُجد المسدّس الصامت في الولايات المتّحدة الأميركيّة منذ عام ١٩٤٤، بفضل جهود البروفيسور "هيمير" وزميله "روبرت كينغ" و"سيبليز". على أنّ المسدّس الصامت لم يسلّم إلاّ لعدد قليل جدًّا من الرجال، مخافة أن يقع في أيد مجرمة. والجدير بالذكر هو وجود هذا السلاح بكثرة بين أيدي رجال العصابة الصهيونيّة التي هاجمت الفلسطينيّين قبل عام ١٩٤٨ والمعروفة باسم "الهاغاناه".

وقد جرّب الجنرال "دونوفان" مسدّسًا من طراز "كولت هاي ستاندارد" عيار ٢٢ في مكتب "روزفلت" بينما كان الرئيس الأميركيّ يملي كلامًا على سكرتيره، ولم يسمع أو ينتبه لإطلاق الرصاص في مكتبه الرئاسيّ... وقال دونوفان بعد أن أصاب كيسًا مليئًا بالرمل بعشر رصاصات: "لقد أطلقت عشر رصاصات يا سيّدي الرئيس دون أن تدري". ولمس روزفلت فوهة المسدّس فوجدها لا تزال ساخنة... وكان تأثّر روزفلت لهذا الاختراع شديدًا، وخاصّة للطريقة التي قُدّم بها إليه... يومئذ، قال لدونوفان: "أنت الجمهوريّ الوحيد الذي سأسمح له بدخول مكتبي، وفي يده مثل هذه الآلة"... وحرص روزفلت في ما بعد على عرض المسدّس الصامت على الجمهور، ظنًّا منه أنّه يقوّي ثقته بانتصار الولايات المتّحدة في نهاية الحرب.

وهناك مسدّس دفاعيّ من نوع "ستينغر"، اخترعه الأميركيّون أيضًا، واستُعمل منذ بداية التجسّس الهجوميّ، وكان يومئذ مجرّد فوهة ومكانًا للذخيرة، ولم تكن تعبئته ممكنة، فكان يستعمَل مرّة واحدة ويُلقى بعدها في النفايات، وهو يحوي طلقة واحدة من عيار ٢٢، ويكفي تحريك خاتم ليّن محيط به بضربة ظفر خفيفة حتّى تصبح رصاصته جاهزة للانطلاق. وحاليًا يستعمَل هذا الجهاز المطمور في "المسدّس القلم" و"المسدّس والعصا"، وسواهما من الأسلحة المصنوعة بشكل أداة تستعمل في الحياة اليوميّة.

ويحتلّ السمّ مركز الصدارة بين أسلحة الجواسيس، منذ القديم. ففي كلّ "مكتب سرّي" تابع لرئيس دولة كبرى كان هناك عدد من القتلة السرّيين الذين يعملون لقاء أجر معيّن. وفي حال افتضاح أمر أحدهم لا تعود الدولة تتعرّف عليه... أمّا اليوم فأصبح لعملاء جهاز التنفيذ مكانة أرفع. على أنّ عناصر الجهاز كثيرًا ما يُستغنى عنهم ويُتنكّر لهم عند الحاجة...

وتنوّعت السموم وتطوّرت، وصار بالإمكان استعمالها بأشكال مختلفة. منها، مثلاً، ما يُمزج بكميّات مدروسة، وبحيث يوحي للطبيب الشرعيّ بأنّ القتيل قد تسمّم من طعامه. أو بأنّ وفاته كانت طبيعيّة. وتوصّل بعض الأجهزة الخاصّة إلى نقل السمّ باللمس، عبر الجلد... وعُرف عن السوفيات استعمالهم لحقنة صغيرة مخيفة داخل قلم حبر أو سيكار، تقذف عبر ثقب لا يُرى بالعين المجرّدة سائلاً سامًّا.

لعلّ أشهر حادثة في مجال التسميم هي التي حصلت لـ"هورست سوينغمان"، الاختصاصيّ في الإلكترون وعميل أجهزة ألمانيا الغربيّة.

أُلحق سوينغمان في سفارة ألمانيا بموسكو بصفة دبلوماسيّة، لكنّ مهمّته الحقيقيّة كانت اكتشاف المسجّلات الخفيّة المزروعة داخل مبنى السفارة. وذلك في الحقبة التي اكتشف خلالها الأميركيّون أربعين مسجّلاً بثّاثًا داخل جدران سفارتهم في العاصمة

السوفياتيّة. وكان سوينغمان في الخامسة والثلاثين من عمره، قصير القامة، سمينًا، ومتواضعًا في مظهره. وقد توصّل إلى تثبيت جهاز ينفث قذائف كهربائيّة، لها من القوّة، بحيث تقتل أيّ شخص يحاول تركيب خطّ اتّصال أو آلة ما على خطوط السفارة الألمانيّة. ويبدو أنّ الجهاز السرّي السوفياتيّ قد خسر بسبب مهارة العالم الألمانيّ بعضًا من عملائه المخلصين، فقرّر أن يتخلّص منه.

كُلّف سوينغمان في ما بعد بمراقبة القطار الخاصّ الذي حمل المستشار إدبناور إلى موسكو، فأعطى السوفيات الفرصة المرتقبة. بعد انتهائه من تفحّص القطار وقبل عودته إلى بون، أراد أن يزور "دير زاغورشك" الأثريّ، فقصده في سيّارة السفارة الألمانيّة برفقة أربعة "دبلوماسيّين" مهمّتهم حراسته. ويروي أحدهم ما حصل فيقول: "كان الكهنة يحتفلون بالصلاة. توقّفنا لحظة أمام لوحة القيامة، ولفت انتباهي رجل مستغرق في صلاته. إقترب الرجل ووقف خلفنا. ولم تمض ثوان حتّى أحاط الدبلوماسيّون بالمهندس الألمانيّ الذي كان يتلوّى ويشكو من ألم هائل في فخذه. وانبعثت منه رائحة عفن رهيبة. نُقل بسرعة إلى سفارة بلاده ثمّ إلى المستوصف التابع للسفارة الأميركيّة. وجاء في تقرير الطبيب الكابتن ستريت ما يلي: جرح عميق سببه حقنة من النيتروجين".

النيتروجين، سمّ زعاف كان يدخل في تركيب الغازات السامّة قبل الحرب العالميّة الثانية. ونقطة واحدة منه تنفث من الغاز ما يكفي لقتل إنسان. أمّا المادّة المضادّة لهذا السمّ فهي الأتروبين المكثّف.

وسائل التخريب يمكن وصفها بأنّها شيطانيّة، وقد سمعنا عن الطاعون المنقول بواسطة الجرذان، والأمراض التي تحملها معها الطيور المهاجرة في مواسم هجرتها، والسموم الملقاة في الأنهار... ويقول باحثون إنّ هذه الأمور برعت بها المخابرات

الإسرائيليّة... بيد أنّه في خلال الحرب العالميّة الثانية، كُلّفت فرقة من المقاومين بنسف قطار ألمانيّ، وقد تبيّن للمسؤول عن العمليّة أنّ القطار يتمتّع بحماية فرقة كبيرة ومسلّحة من الجنود. وأنّه سيُمنى بخسائر فادحة، في ما لو اشتبك رجاله مع رجال فرقة الحماية.

تجاه هذا الواقع، أرسلت لندن عميل تنفيذ ماهر، وبعدما درس المنطقة مدّة خمسة عشر يومًا، قرّر أنّ "عمليّة الأوزّ" وحدها يمكن أن تكون فعّالة... وتقضي عمليّة الأوزّ بإدخال متفجّرة "٨٠٨" في مؤخّرة الأوزّة المطّاطة، ما يزعج الأوزّة ويمنعها عن الطيران فتهرب راكضة على الأرض باحثة عن ملجأ. وتنتهي آخر صرخة ذعر تطلقها الأوزّة في صخب انفجار هائل. ذلك أنّ خيطًا مشتعلاً يتدلّى من مؤخّرة الأوزّة ويكون متّصلاً بالمتفجّرة... وقد استُعمل في تلك العمليّة مائة أوزّة ملغومة كانت كافية لنسف القطار ولبعثرة حمولته. ولم يواجه قائد العمليّة سوى مشكلة واحدة... فقد كان على الحيوانات المسكينة أن تنفجر في الوقت ذاته، ما يقتضي ضبط طول خيوط المتفجّرات، وإمكان إعادة إشعال ما ينطفئ منها في الطريق...

ويقول باحثون إنّه أحيانًا يلجأ العميل إلى حيلة مضحكة أكثر منها مأساويّة، لينفذ بجلده، من مأزق خطر. وقد تكون "هيدي" أطرف "آلة - حيلة" من نوعها، وقد استعملها "أندريه دوران"، وكان على دوران أن ينقل وثائق في غاية الأهميّة من مصطر إسبانيّ إلى داخل فرنسا. والرزمة التي تسلّمها في إسبانيا لم تكن صغيرة الحجم، إذ كانت ظروف الحرب والوسائل التقنيّة المتوافرة لا تسمح بتصغير الصور والأشرطة كما يحصل حاليًّا. اختار دوران اجتياز الحدود في القطار. وجلس في إحدى مقطورات الدرجة الثالثة المكتظّة بالناس... وبما أنّه لم يكن متجدّدًا في المهنة، فكان لا يحمل سلاحًا ويتحفّز لاتّخاذ المبادرة المناسبة للظروف في اللحظة المناسبة.

كانت الساعة العاشرة والنصف ليلاً حين دخل رجال الدرك والجمرك لتفتيش أمتعة المسافرين. وكانوا في تلك الليلة يتصرّفون بعصبيّة ظاهرة... كأنّهم متخوّفون من حدوث "شيء ما".

بحركة مدروسة، هادئة، وضع دوران الرزمة خلف ظهره، واستند إلى زجاج النافذة. ثمّ أخرج من جيبه الأوراق التي تثبّت كونه عاملاً يجتاز الحدود باستمرار ليقصد مكان عمله... كانت بقربه امرأة عجوز لا تنفكّ تطرح عليه الأسئلة، وهو يجيبها بحركة ما من يده مشيرًا إلى أنّه لا يفهم لغتها...

تأمّل الضابط أوراقه وتمتم: "حسنًا"... في تلك اللحظة استيقظت العجوز من غفوتها القصيرة، وأخرجت من حقيبتها رسائل فقال الضابط: "ممنوع". فراحت تتوسّل إليه أن يفتح الرسائل ويقرأها، وتؤكّد له على أنّها "رسائل من أمّ إلى أولادها"... لكنّ الضابط ردّد: "ممنوع". عندئذ غضبت العجوز، وأشارت إلى جارها قائلة: "كان الأفضل لك أن تبحث عمّا يخبّئه هذا الشابّ خلف ظهره... فلا شكّ في أنّه يهرّب سجائر"...

التفت أحد الرجال نحوه، وكان زملاؤه قد ابتعدوا قليلاً، ولم يعد بإمكانهم الرجوع إلى الوراء بعدما عزلتهم حواجز كثيفة من البشر والأمتعة... ولم يكن بإمكان دوران أن يهرب، ولا أن يطلق الرصاص... وكان السلاح الوحيد الممكن استعماله... في مثل هذه الحالة... هو متفجّرة. وهي تشبه القلم وتعلّق برزمة الوثائق.

امتدّت يد العجوز إلى الرزمة فسحب دوران "القلم" وهو يتساءل بدهشة: "هذه؟ ظننتها سكائر؟" ولم يكمل جملته إذ كانت المتفجّرة وقعت أرضًا، وبدأت تتدحرج وتطلق صفيرًا غريبًا لا ينفكّ يتصاعد حتّى يصبح ضجيجه بقوّة انفجار قنبلة من وزن ٥٠ كيلوغرامًا من بودرة TNT، على حدّ تعبير الذين اخترعوها.

هناك أنواع من المتفجّرات مختلفة الأحجام والأشكال والنتائج. فهناك علبة الكبريت التي لو انفجرت في غرفة عاديّة الحجم لقتلت كلّ من فيها... وهي اختراع ألمانيّ. وهناك أيضًا سلاح رأى النور خلال الحرب العالميّة الثانية، ومن ثمّ طوّر كثيرًا ولا يزال عملاء التنفيذ يستعملونه، وهو كناية عن علبة بلاستيكيّة صغيرة تحوي مادّة جيلاتينيّة سريعة الانفجار، وتحدث حرائق هائلة. وهناك "البلاستيك" المعروف منذ القديم والذي بات يتّخذ أشكالاً عديدة فيبدو كالعلكة أو كريم الحلاقة أو الصابون أو المربّى أو الدهان.

ويقول باحثون إنّه في الماضي كان العميل المخرّب يستعمل وصلة يضعها وسط المسافة الفاصلة بينه وبين المادّة المتفجّرة. أمّا اليوم فصار بإمكان العميل أن يلصق قطعة جيلاتين صغيرة على الجدار المدهون بالمادّة المتفجّرة، ويبتعد ضامنًا انفجارها بعدَ حين. كما أصبح بالإمكان إحداث الإنفجار عن بعد بواسطة آلة التحكّم الإلكترونيّة.

كثيرًا ما يوكل إلى عميل أعزل أمر قتل منافس أو خائن أو أيّ هدف آخر، أو أنّ الدفاع عن نفسه يفرض عليه استعمال وسائله الخاصّة... والإنسان، بحسب بعض الخبراء، لا يزال هو السلاح الأمضى والأشدّ خطرًا. ونهاية "إيغور" عميل التنفيذ في الاستخبارات السوفياتيّة هي واحدة من مئات القصص المتشابهة. فقد اجتاز إيغور حواجز الحماية التي كانت تمنعه من الوصول إلى الخائن المحكوم عليه بالإعدام ليتولّى تنفيذ هذا الحكم، لم يكن يحمل سلاحًا، فلم تكن الظروف لتسمح له بالاقتراب من عدوّه وهو يحمل أيّ سلاح... وقد وصل إيغور إلى مسكن المحكوم بالإعدام بعد حلول الظلام، فرآه يهمّ بالخروج. وهنا أسرع إلى الباب قبل أن يتمّ إغلاقه. وكان من الذين يعرفون بالتحديد المكان الصالح للضرب أو للكسر حتّى تصاب ضحيّته بالإغماء أو الشلل الموقّت أو الموت. وتلك الليلة كان الموت هو الهدف...

أُصيب المحكوم بضربة حادّة على مؤخّرة رأسه فانثنى على ركبتيه وقد تدلّى رأسه إلى الخلف، وفي تلك اللحظة طالت مقدّمة حذاء إيغور رقبة الرجل من الأمام فسحق زلعومه... ثمّ أمسكه إيغور من شعره وضرب صدغه بحافة الرصيف... ثمّ انحنى إيغور فالتقط مجموعة المفاتيح عن أسفل الدرج وجرّ ضحيّته إلى خلف الباب، بحيث يظنّ رجال الشرطة أنّ الضحيّة قد سقط عن السلّم فاصطدم رأسه بإحدى الدرجات...

ودخل إيغور إلى بيت الضحيّة وأقفل الباب خلفه بتأنّ وانتظر برهة ريثما تأكّد له أنّ كلّ شيء هادئ، وأنّه باستطاعته إشعال النور. ثمّ مدّ يده باحثًا عن مفتاح النور فوجده وشدّ بإصبعه عليه، واندلعت شرارة زرقاء أضاءت حول يده ثمّ رفعته عن الأرض انتفاضة كهربائيّة مؤلمة ولم تلبث أن تقلّصت عضلاته وتآكلت خلايا جسده تحت تأثير ألم هائل... وانتشرت في مدخل البيت رائحة الأوزون، وغمرت جثّتي الرجلين المتقاربتين...

فالرجل المحكوم بالإعدام كان يوصل التيّار الكهربائيّ القويّ بمفتاح النور قبل خروجه من البيت تحسّبًا للطوارئ، وبحيث يلامس إصبع الذي يضيء النور حلقة نحاسيّة فيصعقه التيّار... وكلّ مستلزمات هذا الفخّ القاتل كانت مترين من السلك الكهربائيّ وقطعة قماش مصمّغة وبنسبة عاديّة صغيرة...

لا يحتاج صانعو المتفجّرات إلى موادّ نادرة أو صعبة المنال لينتجوا ما يريدون، فإنّ مئة رأس من رؤوس عيدان الكبريت تُضغط داخل ورقة معدنية مساحتها ديسيمتر مربّع، تكفي لصناعة قنبلة صغيرة تفجّر قفل باب، أو تتسبّب بإحراق خزّان من السوائل أيًّا كان نوعها. كما يمكن صنع "رغيف" متفجّر بعجينة مؤلّفة من بعض عدسات التصوير وطلاء الأظافر والماء الصافي...

أيّ صيدليّ يستطيع أن يبيعك مزيجًا مهدّئًا للأعصاب، مؤلّفًا من الكلور والأسيتون وبيرمنكانات البوتاس والغليسيرين... وأيّ مزيّن نسائيّ يبيعك طلاء للأظافر وسائلاً يزيل لون الشعر... وجميع هذه المواد تصلح لصناعة شتّى أنواع المتفجّرات[١]...

الكِتَابَةُ السرّيّة

يعتبر أحد قادة المخابرات العرب[٢] أنّ الرسائل هي من أقدم وسائل الاتّصال، وتلعب الرسائل دورًا هامًّا في إيصال المعلومات، وبالرغم من تطوّر التقنيّات المستخدمة في الاتّصال وتنوّعها، إلاّ أنّ الرسائل ما زالت تحتّل مكانة هامّة بين تلك الوسائل التي تُستخدم في العمل المخابراتي والعمل الثوري بالأحبار السريّة، ولو أنّ استخدام الحبر السرّي في التراسل يُعدّ في الواقع مغامرة لا سيّما بعد ظهور الأجهزة الحديثة القادرة على اكتشاف الكتابة غير المرئيّة، ولهذا السبب تبحث أجهزة التجسّس بشكل مستمرّ عن أنواع جديدة من الحبر غير المرئيّ.

ويمكن استخدام كلّ أنواع السوائل كأحبار خفيّة، بل يمكن استخدام أيّ سائل من حيوان أو نبات كعصير الفاكهة أو البول مثلاً. وفي هذه الحالة يكون المظهّر الضروريّ هو الحرارة. فتوضع الورقة فوق مصباح أو شمعة أو في وعاء على موقد أو تُكوى بمكواة ساخنة، عند ذلك تبدو الكتابة بنيّة اللون. ويمكن استخدام بعض الموادّ

---

١ - الجزائري سعيد، ملفّ التسعينات عن أعمال المخابرات، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧) ٢: ١٢٧ - ١٤٧، ١٥٠ - ١٥٥، ١٦٠ - ١٧٠.

٢ - أبو الطيّب، الاستخبارات الصهيونيّة، ص٣٠٦ - ٣١٠.

الكيميائيّة بنفس الطريقة، ومنها "كلوريد الأمونيوم" أي "ملح النشادر"، لكتابة الرسائل الخفيّة التي تظهر ذات لون أصفر عند تسخينها. وعند استخدام الحرارة لإظهار أيّ حبر سرّي يجب أن يكون المرء حريصًا حتّى لا تصل النّار إلى الورقة.

هناك بعض التركيبات الكيميائيّة الخاصّة بالكتابة السريّة التي تظهر عند تسخينها ثمّ تختفي بالتدريج حينما تبرد الورقة. فـ"رسالة القرصان" السريّة في قصّة "الحشرة الذهبيّة" كانت مكتوبة بحبر مصنوع من "أوكسيد الكوبالت" الذائب في "حامض النيتريك" أو "الهيدروليك"، وعندما يُكتب بهذا المحلول تظهر الكتابة زرقاء عند تعريضها للتسخين ثمّ تختفي إذا نفخ المرء عليها.

وهناك أحبار أخرى، لا تُرى إلاّ إذا عولجت الكتابة ببعض الموادّ الكيميائيّة. ويمكن صنع حبر سرّي من "سلفات الحديد" بإذابة ١/٨ ملعقة شاي منه في أوقية ماء. ويجب استخدام هذا المحلول في الحال فور إذابته. وفي هذه الحالة يكون المظهِّر "صودا الغسيل" أو "كربونات الغسيل" أو "كربونات الصودا"، فتُذاب ملعقة شاي في أربع أوقيات من الماء في وعاء، وتوضع الرسالة في المحلول مع جعل وجهها إلى الأسفل. عند ذلك تظهر الكتابة زرقاء في الحال، وعندما تجفّ الورقة يصبح لون الكتابة بنّيًا. وإذا استُخدم "بوتاسيوم حديد السيانيد" بدلاً من "الصودا"، تظهر الكتابة بلون أزرق داكن، ولكنّ "حديد السيانيد" مادّة سامّة لا يسهل الحصول عليها.

كما يمكن صنع حبر سرّي بواسطة إذابة قرص "أسبرين" في الكحول، وفي هذه الحالة يكون تظهير الرسالة من خلال غمس قطعة من القطن في الكحول ثمّ تمريرها على الرسالة... علمًا بأنّه من الصعب الاشتباه بالأسبرين والكحول من بين متاع العميل...

يخفي الجواسيس أدوات حبرهم السرّي بطريقة بارعة. وقد كان "شال" "ماريدي فيكتوريا" الحريريّ مثلاً لذلك... وبعض العملاء كانوا يخفون حبرهم المركّز في جواربهم أو في ربطات أعناقهم أو أزرارهم المكسوّة بالقماش. وبعض الأحبار كان يخفى على شكل عطور... أو على شكل مطهّر للفم أو معجون أسنان. وكانت الخطابات المكتوبة بحبر خفيّ تُغمس غالبًا في محلول "الأمونى"، وكان هذا يجعل سطح الورقة ناصع البياض ويخفي آثار القلم.

أخذت منظّمات المخابرات في العالم تبحث بجنون عن مادّة تُظهر كلّ أنواع الأحبار السريّة، حتى اكتُشفت فوائد "بخار صبغة اليود" التي تستقرّ تدريجيًّا في صفحة الورقة فتبيّن إذا كان في أليافها أيّ أثر لأيّ حبر سرّي. وإذا كان بخار صبغة اليود قادرًا على إظهار الكتابة السريّة المستخدم فيها أيّ سائل، فيمكن في هذه الحالة استخدام الماء كحبر سرّي، وتظهيره ببخار صبغة اليود، شأنه شأن أيّ محلول كيميائيّ. ثمّ إذا تمّ كساء الورقة المكتوبة بالماء بطبقة رقيقة من الحبر وتجفيفها بسرعة، تظهر الكتابة كما لو كانت مكتوبة باللون الأبيض على ورق مغطّى بالحبر.

ويلجأ العملاء السريّون إلى حيل كثيرة لإخفاء مكان كتاباتهم السريّة. فأحيانًا كانوا يكتبون رسائلهم في الركن العلويّ الأيمن للمظروف الذي كان يحوي خطابًا بريئًا، وعلى الذي يبحث عن الرسالة المكتوبة بالحبر السرّي في هذه الحالة أن يعرّض طابع البريد للبخار ليكشف الرسالة من تحته.

وثمّة حيلة أخرى كانت متّبعة وهي أن يقوم المراسل بكتابة رسالة على الجانب الداخليّ للمظروف.

دعت الحاجة أجهزة المخابرات إلى الوصول لحيلة تستعين بها للتغلّب على استخدام صبغة اليود كمظهّر للكتابة. فإنّ بخار صبغة اليود يعمل من خلال استقراره

على ألياف الورق التي تكون الكتابة السريّة قد زحزحت نسيجها. ولذلك عمل الجواسيس على طريقة يتغلّبون بها على خصومهم الكيميائيّين، فأقدموا على بلّ قطعة الورق بعد الكتابة السريّة عليها وضغطوا عليها بمكواة، وكانت النتيجة عودة الألياف إلى طبيعتها. وعند استقرار بخار صبغة اليود على الورق في هذه الحالة، فإنّه يستقرّ بالتساوي على كلّ سطح الورقة.

ومع التقدّم العلميّ، تمّ اكتشاف مادّة كيميائيّة تستطيع أن تُظهر أيّ كتابة سرّيّة سواء بلّت الورقة أو لم تبلّل، كويت أو لم تُكوَ...

إبتكر الفرنسيّون طريقة متقنة لإخفاء رسائلهم المكتوبة بالحبر السرّي، إذ كانوا يغسلون بعناية بيضة طازجة ليزيلوا عنها الغشاء الطبيعيّ، ومن ثمّ كتبوا الرسالة السريّة على قشرة البيضة بحبر سرّي يمكن تظهيره بواسطة الحرارة. فعندما يمرّ الحبر في مسامّ القشرة إلى الغشاء، فهو لا يترك أثرًا ملحوظًا على البيضة التي توضع بين عشرات غيرها من البيض. وكانت الفلاّحة التي تحمل السلّة إلى السوق تراقب البيضة الخاصّة بعناية لتتأكّد من أنّها "بيعت" للزبون الصحيح... ويأخذ الجاسوس البيضة ويسلقها ويقشرها بعناية ويقرأ المعلومات المكتوبة على سطحها، وبعد أن يقرأها يزيل الدليل بأن يأكل البيضة. أمّا إذا صدف أن وقعت البيضة ذات الرسالة في يد شخص غير مقصود، فالأكثر احتمالاً أن يكسرها ويقشرها ويتناولها دون أن يدري شيئًا عمّا تحويه إذ لا يمكن أن تظهر الرسالة إلاّ إذا غليت البيضة كثيرًا.

وتُعدّ السيجارة الوسيلة المفضّلة لإخفاء الرسائل القصيرة. فتُكتب الرسالة على ورق رقيق بحبر عاديّ أو بحبر سرّي لا يتأثّر بالحرارة. وبعد ذلك تلفّ حول الجزء الأعلى من السيجارة بحيث يمكن التخلّص منه في حالة الخطر بإشعال السيجارة مع

الحرص على إشعالها من الناحية التي تحوي الرسالة السريّة، وبعد تدخين جزء منها، يختفي الدليل.

ويحاول بعض الجواسيس اليوم إخفاء الأحبار والمظهّرات في زجاجات أدويّة أو في مواد عطريّة لتضليل رجال الأمن. ففي إحدى قضايا التجسّس التي كان المتّهمون بها يعملون ضدّ مصر لحساب إسرائيل، ضُبطت مع العميل الرئيسيّ أحبار سريّة موضوعة في زجاجات أدوية للأنف والأذن، وفي زجاجات لدهن الشعر وفي أنابيب معجون أسنان... وقد تبيّن من الفحص المخبريّ أنّ ما في الزجاجات ليس ما هو مدوّن عليها، بل موادّ أخرى، فاتّجه النظر إلى مسألة الأحبار السريّة وتكوينها... وبالتحليل تبيّن تكوين الموادّ وأصولها.

لمّا كان الحبر السرّي لا يمكن حصره في دائرة واحدة، إذ إنّه متشعّب ومختلف في التركيب ووسائل الاستخدام ونوع المظهّر الذي يحتاجه كلّ نوع من أنوع الأحبار، فإنّ عمليّة اكتشاف الكتابة السريّة تحتاج إلى دراية وخبرة وتدريب. فالحبر السرّي عبارة عن مادّة تختفي بمجرّد الكتابة وجفاف الحبر، ويصعب على العين المجرّدة قراءتها، كما أنّ لهذه الكتابات تعليمات خاصّة، إذ يجب ألاّ يُضغط على الورق للتدوين عليه، ولذلك يستخدم لها نوع خاصّ من القرطاس.

وعادة يقوم الأخصّائيّ الذي يجهّز الحبر السرّي بتحضير المظهّر الخاصّ به، بحيث لا يكون على العميل إلاّ التدرّب فقط على طريقة الكتابة.

إلاّ أنّ وسيلة استخدام الحبر السرّي لم تعد اليوم متّبعة كثيرًا في عمل المخابرات، إذ حلّ محلّها جهاز اللاسلكيّ والأقراص الممنطة وسوى ذلك من وسائل الاتّصال المتطوّرة.

ويرى باحثون أنّ استخدام الحبر السرّي في الكتابة أصبح اليوم يُعدّ مغامرة مع تطوّر الوسائل العلميّة الحديثة التي تستطيع إظهار أيّ كتابة غير مرئيّة ومعرفة ما في الخطاب من أسرار. وتبحث معظم منظّمات الجاسوسيّة باستمرار عن أنواع جديدة من الحبر غير المرئيّ. وغالبًا ما بات يؤدي استعمال الحبر السرّي إلى نهاية حياة الجاسوس والشبكة التي يعمل فيها، ذلك أنّه لم يعد هناك حبرٌ سريّ في العالم لا يمكن كشفه، وإنّما "جودة" ذلك الحبر تكمن في الوقت اللازم لكشفه.

طرق الاستجواب الحديثة

إنّ العلاقات القائمة بين علم النفس والاستخبارات لها عدّة وجوه. فليست القضيّة دائمًا أن نحاول التأثير على شعب بكامله بطرق التسميم الجماعيّ، أو التأثير على نفسيّة البعض بغسل أدمغتهم. فكثيرًا ما يتعلّق الأمر بالسيطرة على نفس واحدة بعد أن يلقى القبض عليها، فتتكون المعلومات في داخلها ذات أهميّة بالغة. عندها نشاهد صراعًا بين إنسان وآخر، بين إرادة ضدّ إرادة أخرى. ذلك هو الاستجواب.

الحقيقة أنّ غسل دماغ بشريّ يمكن أن يخبله وأن يشوّشه وأن يجبره على تكرار أيّ شيء، لكنّه لا يتوصّل لجعله يفصح عمّا يريد إخفاءه. ولا يمكن للتعذيب أن يعطي نتائج كاملة فهو عديم الفائدة على الأفراد المصمّمين. وقد برهن تاريخ الحرب العالميّة الثانية عن أنّ بشرًا كثيرين استطاعوا أن يكتموا أسرارهم رغم فظاعة العذاب الذي تعرّضوا له. فليس العذاب بشعًا بحدّ ذاته للمعذّبين بل هو أشدّ تحطيمًا لمَن يمارسونه، وقد يكون غير ذي فعاليّة أحيانًا. ومع ذلك فإنّه من الممكن أن نتوصّل، ببعض

الوسائل، إلى استنطاق شخص لا يريد أن يفصح عمّا يجول بنفسه. وذلك فنّ آخر هو جزء من الفروع المثيرة لعلم النفس التطبيقيّ. لذا فإنّ المستنطقين يكونون من ذوي المواهب النادرة. وإليكم مثالاً على ذلك.

بعد تحرير كورسيكا من الألمان عام ١٩٤٤، قام الملازم (ج) وكان فذًّا في عمله، باستجواب أحد رؤساء الاستخبارات الألمانيّة المقبوض عليهم. لكنّ المتّهم رفض الحديث وصرّح بأنّه لا يعرف شيئًا هامًّا وليس لديه ما يعلنه، لكنّه كان يردّد بأنّه مقتنع بالنصر الألمانيّ في القريب العاجل. بعد عدّة محاولات دون نتيجة قال الملازم للسجين: إنّها المرّة الأخيرة التي سأستجوبك فيها. سأله السجين الألماني: لماذا؟ أجاب: إنّك تعلم ما أقوله جيّدًا، ففي السجن تنتقل الأخبار بسرعة. قال الألمانيّ: ما الذي يجري؟ أجابه الملازم: يبدو حقًّا أنّك لا تعلم. لقد ثار الشيوعيّون واستولوا على السلطة في الجزيرة كلّها تقريبًا. لهذا سأهرب وسآخذ آخر طائرة إلى مدينة الجزائر. قال السجين متوسّلاً: أرجوك خذني معك. ردّ الملازم: لماذا أفعل. طالما أنّك لا تعرف شيئًا فليست لي منفعة بنقلك معي، لكنّي اتمنّى لك حظًّا أسعد مع مَن سيتولّى مهمّة استنطاقك من بعدي. عندها سرد السجين كلّ معلوماته.

وهناك قصّة أخرى جرت في منطقة "الأردين" بفرنسا. في نهاية عام ١٩٤٤ كان نفس الملازم مكلّفًا باستنطاق جنرال شاب من فرع SS ، ولنسمّه الجنرال "فرنك"، كان شديد الثقة بنفسه فقال للمحقّق: إنّني فوق مستوى الرجال ومثلي لا يعطيك شيئًا، فلا الموت ولا العذاب لن يسحبا منّي كلمة واحدة، وتستطيع أن تفعل بي ما تريد. إستمرّ الاستجواب طويلاً إلى أن قطعه رنين الهاتف فصرخ المحقّق: نعم، القيادة العامّة، الأمر يتعلّق بالجنرال فرنك، نعم لكنّني لا أسمعك جيّدًا. وعاد الاستجواب وعاد الهاتف إلى الرنين مرّة واثنتَين وثلاثة وأربعة، دون أن يستطيع الملازم أن يفهم شيئًا من

محدثه على الهاتف. وعند المرّة الخامسة سمع الملازم جملة "مجرم حرب" عن الجنرال فرنك ومن ثمّ لم يعد يفهم شيئًا. وعند الاتّصال الهاتفيّ السادس انهارت أعصاب الجنرال فرنك وأخذ يتحدّث عن معلوماته. وهكذا غلبت النفس النفس الأخرى.

ليس من الضروريّ دائمًا أن يفوز المستنطق في مثل هذه الصراعات. فكثيرًا ما استطاع السجين أن يسيطر على الموقف وأن يدفع خصمه للاستنكاف عن المتابعة والتغلّب عليه. فقد حدث عام ١٩٣٧ أن تعرّض فيزيائيّ من أصل ألمانيّ إلى الاستجواب لاتّهامه من قبل شرطة الاتّحاد السوفياتيّ بعمالته لصالح النازيّة. إستمرّ الاستجواب طويلاً دون أيّ نتيجة حتّى انهار المستنطق وقال للفيزيائيّ: أعطني اسم اثنين من قادة الاستخبارات الألمان الذين يعملون هنا وسأقودك بنفسي إلى الحدود البولونيّة. وأعطاه الفيزيائيّ اسمَي: شارنهورست وجنيسنو. فنفّذ المستنطق وعده ونقله إلى الحدود البولونيّة. ولم يكن الإسمان إلاّ لمدرّعتَين ألمانيّتَين. على الأقلّ هذا ما تدّعيه المخابرات الأميركيّة التي يمكن أن تكون أرادت من هذه الرواية التشنيع بخصمها السوفياتيّ.

لا تلعب القوّة العضليّة أيّ دور في الاستجواب حيث يجري النزاع على مستوى الإرادة، فتنتصر القوّة الأكبر. وليس من الضروريّ أن يكون السجين في وضع أسوأ، لذلك فإنّ نضاله قد يؤدّي إلى نتيجة. فكيف يجري الاستجواب اليوم؟ ما هي أهدافه؟ ما هي وسائله والمميّزات التي يتمتّع بها الطرفان؟

يحاول المستنطق أن يحصل على المعلومات التي تمكّنه من إبادة الشبكة التي يمتّ إليها الموقوف بصلة، أو ليتمكّن من أن يصبح عميلاً في هذه الشبكة. وعلى المتّهم أن يصمت وأن يجعل تهديدات صارمة تخيّم فوق رأس المستنطق لئلاّ يسيء معاملته. إنّ

مهمّة كلّ منهما أن ينفذ إلى قرارة نفس الآخر كما في السحر الكلاسيكيّ. فإنّ إحدى المميّزات أن يسمّي الطرف الآخر باسمه. تلك ولا شكّ إحدى سمات القوّة عندما يوجّه السجين إلى مستنطق قولاً كهذا: أنا أعرفك فأنت تدعى فلان وعائلتك تسكن في المكان الفلانيّ. فإذا أسأت معاملتي سيتّخذ أصدقائي الإجراءات اللازمة. فالعميل الجيّد يجب أن يعلم كلّ التفاصيل المتعلّقة بملفّات خصومه وأن يكون قد رأى صور كافّة المستنطقين الأخصام، وتراجم حياتهم، وأن يحفظ كلّ ذلك في ذاكرته، وإن بدا هذا صعبًا أو من المستحيلات.

كذلك الأمر بالنسبة للمستنطق الذي يجب أن يعرف أشياء كثيرة عن سجينه، أو المخالفات البسيطة التي ارتكبها. أمّا الأفضل في هذه الحالة فهو معرفة الأخطاء الحاصلة من قِبَل السجين بحقّ الفرع الذي ينتمي إليه ليتمكّن المحقّق من تهديد سجينه بإفشاء المعلومات إلى رؤسائه إن لم يتجاوب معه في الاستنطاق، عندها يجد المتّهم نفسه بين المعسكرَين اللذَين قد يلفظانه معًا. وقد حدثت نتائج باهرة باستعمال هذه الوسيلة دون اللجوء إلى أيّ إساءة في معاملة السجناء.

قد تكون الطريدة ثمينة في بعض الأحيان، عندها يلجأ المستنطق إلى السعي إلى كلّ ما يمكن أن يساهم في إرباك الطريدة والإيقاع بها. ولقد حدث مثل هذا الأمر في قضيّة "راجك" رئيس الوزراء الهنغاريّ الذي كان قد أوقف أيّام الحرب من قِبَل النظام النازيّ وأودع أحد المعتقلات. ووشى هذا بأسماء بعض رفاقه. وقد بقيت أسرار بعض هذه الإفشاءات في أرشيف إحدى دوائر الشرطة الهنغاريّة عندما وقعت في أيدي الشرطة السياسيّة. وعندما استلم الشيوعيّون الحكم حُفظ هذا الملفّ للشخص الذي أصبح رئيس وزراء هنغاريا، وعندما دار الزمان دورته عاد هذا الملفّ إلى الظهور. وعندما رآه "راجك" أدلى باعترافات أخرى فأُدين ونُفّذ به حكم الإعدام. فالملفّ الممتاز

هو أفضل الأسلحة. كما أنّ موظّف الأرشيف هو أكثر الشخصيّات خطورة في مجال الاستخبارات. ففي أبحاثه يمكن أن يتوصّل إلى اكتشاف عناصر معيّنة، في عمود من صحيفة قديمة أو في ملفّ دعوى قديمة أو في تقرير غارق في الزمن، ما يمكن أن ينفع في إقناع أكثر المتّهمين عنادًا، بالعدول عن الصمت والتعاون والاعتراف.

هل يعترف المتّهمون دائمًا؟ يستمدّ المستنطق تقنيّته من لعبة الشطرنج حيث ينتهي الخصمان بتشكيل ثنائيّ، حتّى أنّهما يستلطفان بعضهما. ومن الطبيعيّ أن يتمتّع المحقّق بالقوّة إذ بإمكانه، في نظم الحكم التوتاليتاريّة، من إرسال المتّهم إلى حبل المشنقة. لكنّ الزمن يعمل لحساب المتّهم. فبينما تجري الأيّام قد يتّخذ أصدقاؤه إجراءات ضروريّة لتسهيل هربه، أو قد يتوصّلون إلى الاتّصال به، أو يحاولون تهريبه، أو من الممكن أن يتطوّر الوضع السياسيّ لصالحه. ويعرف كلا الشخصَين ذلك. فعندما يصل المحقّق إلى زنزانة السجين ويجده مبتسمًا يخامره الشكّ فيقول في نفسه: هل يضلّلني أم أنّ ذلك دليل على الشجاعة؟ أو يمكن أن يكون قد اتّصل مع أحد في الخارج وأتته أخبار سارّة؟ وقد تنهار أعصاب المستنطق أو يتحطّم السجين نفسه. وقد لا يحصل أيّ شيء من كلّ هذا ويبقى الرجلان وجهًا لوجه دون أن يمسك أحدهما بناصية الآخر. وهكذا تستمرّ معركة فريدة لسنين في بعض الأحيان. لكنّ عظماء المستجوبين يعتقدون بإمكانيّة توصّلهم دائمًا إلى إقرار المتّهمين. وتلك نظريّة لا يمكن التأكّد منها إلاّ بحساب الاحتمالات. فمَن الذي درس المشكلة من هذه الزاوية؟ يذكر أحد الكتّاب تجربته خلال الحرب العالميّة الثانية مصرّحًا بأنّ محقّقَين اثنَين تواليا على استجوابه دون أن يتمكّنا من انتزاع أيّ شيء منه، فأرسل إلى أحد المعتقلات الفظيعة عقابًا له، لكنّه يعترف في كتابه بأنّه لو كان هناك محقّقون أكثر قدرة ممّن استجوبوه لكانوا توصّلوا إلى انتزاع ما يريدون منه. ويذكر التاريخ اثنَين من كبار الجواسيس هما "آبل ولونسديل" اللذين

استجوبتهما وكالة المخابرات المركزيّة دون أن يفيدا الأميركيّين بأيّ معلومات. من ثمّ تمّ تبادلهما مع السلطات السوفياتيّة. أمّا الطيّار الأميركيّ باورز، الذي أسقط السوفيات طائرته فوق أراضيهم في أثناء مؤتمر باريس بين أيزنهاور وخروتشوف، فلم يستطع مقاومة مستجوبيه. ويبدو أنّ السوفيات لم يعجزوا عن إيجاد وسيلة مناسبة لجعل الموقوفين يعترفون بأفعالهم دون اللجوء إلى استعمال القوّة والعنف، إلاّ في حادثة واحدة هي قضيّة العميل "بارجون" الذي عمل محقّقًا صحافيًّا لدى السفارة الأميركيّة في موسكو من ١٩٤٢ إلى ١٩٤٧، ثمّ أعلنت السلطات السوفياتيّة بأنّه شخص غير مرغوب به، فغادر البلاد وحرّر عدّة كتب مناهضة للشيوعيّة، وعاد متنكّرًا بصفة سائح في بداية تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٦٣. وعندما استقلّ إحدى الطائرات السوفياتيّة المتّجهة من طشقند إلى ألماتا، تعرّف إليه السوفيات وتابعوا تحرّكاته، وعندما عاد إلى موسكو التقى موظّفًا في السفارة الأميركيّة كان على وشك مغادرة الاتّحاد السوفياتيّ إلى وارسو، فألقي القبض على بارجون في نهاية هذه المقابلة من دون توقيف الآخر الذي يتمتّع بالحصانة الدبلوماسيّة. وتبيّن أنّ المتّهم كان يجمع معلومات مضرّة بالاتّحاد السوفياتيّ كما صرّحت وكالة تاس. وقد أعلن الرئيس كينيدي في مؤتمره الصحفيّ بتاريخ ١٤ تشرين الثاني ـ نوفمبر بأنّ توقيف بارجون ستكون له نتائج غاية في السوء على مستقبل العلاقة الثقافيّة والتجاريّة بين البلدَين. لذا اضطرّ السوفيات إلى الإفراج عن بارجون بعد استجوابه لأيّام قليلة.

من المعروف أنّ محاكمة الجواسيس في الاتّحاد السوفياتيّ لا تجري علنًا. لذلك فإنّ التكهّنات واردة في هذا المجال، سواء على الاعترافات أو الأحكام الصادرة بحقّ الموقوفين. أمّا قصّة العقيد "أوليج بنكوفسكي" الذي كان صديقًا لخروتشوف والسكرتير الدائم للاستخبارات السوفياتيّة، وهو الذي دبّر فضيحة برفيومو في لندن للنيل من

اعتبار بريطانيا في العالم، فيبدو أنّه كان عميلاً مزدوجًا ولقد كشفته الاستخبارات السوفياتيّة عندما عرفت، عن طريق عملائها، بأنّه يعمل لصالح وكالة المخابرات المركزيّة، وأنّ تدبيره لفضيحة برفيومو كانت ستارًا يخفي نشاطه وراءه. وقد توصّل المحقّقون السوفيات إلى تقديمه للمحاكمة العلنيّة حيث صرّح بأنّه كان يقدّم معلومات للعدوّ عن الوضع الداخليّ في بلاد السوفيات، ومن ثمّ حكم عليه بالإعدام رميًا بالرصاص، ونفّذ الحكم في سجن كودينكا بموسكو في ١١ أيّار ـ مايو ١٩٦٣، ولم تكن تبدو عليه علامات التعذيب.

لم يعد العنف، في الوقت الحاضر، إلاّ وسيلة يعتمدها المستنطقون الخرقاء العاجزون عن تحقيق أيّة نتائج في عملهم. فالذين اعتمدوا التعذيب وسيلة استجوابيّة يبرّرون فعلتهم بأنّهم كانوا بحاجة ماسّة وسريعة للاستفادة من المعلومات، لكنّ ذلك ليس سوى قناع لإخفاء ساديّتهم التي لا يقرّون بها. وتستعمل الدول المبتدئة مثل هذه الوسائل، كما أنّ معظم سكّان مناطق العالم الثالث يعرفون مثل هذه التصرّفات بالمقارنة مع ما يسمعون عن أصول الاستجواب في بلدان العالم المتقدّم[١].

---

١ ـ رصاص، الاستخبارات الأميركيّة المركزيّة... ص١٥٥ ـ ١٥٩.

المخَابَراتُ وتجَارَةَ الأسلحَة

يقول باحثون إنّه في عمليّات بيع أو تهريب الأسلحة، تجد دائمًا قرارًا مخابراتيًّا يحدّد جهة وكميّة السلاح من أصغر طلقة حتّى أحدث طائرة، المهمّ التسويق بشرط أن يخدم خطط الأجهزة ومصالح الدولة التي تنتمي إليها.

صحيح أنّ مصانع الأسلحة الخفيفة والثقيلة منتشرة في معظم البلدان الكبيرة المنتجة للسلاح، عارضة بضاعتها للمشتري بالسعر المطروح عالميًّا، لكن أكثر هذه البلدان والذي تتّسم بالسوق المفتوح لمبيعات الأسلحة تخضع في كلّ قرارات بيعها لأجهزة رسميّة تلزمها الموافقة المسبقة على هذه الصفقات.

وإذا كانت البلدان الغربيّة، مثل أميركا وفرنسا وإنكلترا... قد جعلت من تجارة السلاح "سوبّر ماركت" ضخمًا يدخل إليه الشاري ليدفع ثمن ما يشتريه وذلك عبر شركات ومؤسّسات منتجة مستقلّة ماليًا واقتصاديًا عن النظام الاقتصاديّ الحرّ المفتوح، فإنّ مقابل هذه الحريّة ضوابط تحدّد الأهميّات القوميّة العليا وتجعل الأمن القوميّ فوق كلّ اعتبار.

من هنا تتدخّل الدولة لتحدّد كلّ هذه المقاييس عبر أجهزة مخابراتها وفق المصلحة العليا لأمن البلد ولأمن أصدقائه وحلفائه في أيّ منطقة من العالم.

وهذا لا يعني بالتالي أنّ كلّ سلاح يخرج من هذا الـ"سوبر ماركت" الضخم ثمنه مدفوع، فكثير من عمليّات التسويق للسلاح يجري كمساعدة أو دعم عن طريق المجان

لقوى سياسيّة عالميّة تخدم في المحصّلة مصلحة وأمن الدولة المنتجة، وتمنع نفوذ القوى المعادية الأخرى.

أمّا في البلدان الشرقيّة، كالاتّحاد السوفياتيّ سابقًا وتشيكوسلوفاكيا والصين... فالوضع كان مختلفًا في عمليّة بيع السلاح، إذ إنّ التصنيع بالكامل يخضع للمؤسّسات الصناعيّة للدولة وبالتالي تقوم الدولة بمهمّة البيع المباشر وفق معايير لا تختلف عن المعايير الغربيّة في تحديد الأصدقاء والحلفاء والأعداء. وفي تصدير السلاح للكثير من الحركات السياسيّة المنتشرة في العالم، والمعارضة للنفوذ الغربيّ ومعظمها كان يصدّر بالمجان دون مقابل لقاء خدمات واحتواء سياسيّ للبلد المستفيد.

ففي خلال الحقبة الممتدّة من نهاية الحرب العالميّة الثانية حتّى نهاية ثمانينات القرن العشرين، شهد العالم ٥٥ حربًا مهمّة بأحجامها وكثافتها ومدّتها. وهذا يعني أنّ الإنسانيّة تواجه نزاعًا جديدًا عنيفًا، مرّة كلّ خمسة أشهر، يمكن أن يؤدّي إلى حرب شاملة.

وإذا أضفنا إلى هذا الرقم الحروب الصغيرة والمجابهات المسلّحة غير المنظّمة، فإنّ عدد النزاعات التي شهدتها الإنسانيّة منذ ١٩٤٥ يرتفع إلى أكثر من ٤٠٠ نزاع، أي بمعدّل نزاع واحد ، أو أكثر، كلّ شهر.

بعض هذه الحروب والنزاعات لم يحمل إسم "الحرب الكبرى" إلاّ أنّه لم يؤدّ إلى حرب عالميّة. لكنّ عددًا منها يوازي، بكثافة الأسلحة التي استُخدمت فيه، الحروب الكبرى الحقيقيّة التي شهدتها البشريّة. فأطنان القنابل التي استخدمت في الحرب الكوريّة تتجاوز ما استخدمه الحلفاء في جميع عمليّات المحيط الهادئ خلال الحرب العالميّة الثانية. وفي حرب حزيران - يونيو ١٩٦٧، وحرب ١٩٧٣، فاق عدد الدبّابات التي استُخدمت في سيناء ضعفي ما استخدمه الألمان والإيطاليون والحلفاء في معركة

العلمَين عام ١٩٤٢ التي دامت ١٢ يومًا. وبين تمّوز - يوليو ١٩٦٥ وكانون الأوّل - ديسمبر ١٩٦٧، أسقطت على فيتنام أطنان من القنابل أكثر ممّا أُسقط على أوروبّا خلال الحرب العالميّة الثانية كلّها.

وفي اجتياح بيروت سنة ١٩٨٢، فاقت أطنان القنابل الإسرائيليّة حجم القنبلة الذريّة...

هناك اليوم في العالم نحو ٧٥٠ مليون بندقيّة حربيّة ومسدّس في الخدمة، أي بمعدّل سلاح واحد، من هذه الأسلحة، لكلّ ذكر بالغ في العالم. تضاف إلى ذلك مئات المليارات من القذائف والمتفجّرات، وعشرات الملايين من الرشّاشات ومدافع الهاون والأسلحة المضادّة للدبّابات، والملايين من قطع المدفعيّة والمصفّحات، ونحو ١٠٠ ألف طائرة مقاتلة وقاذفة وعشرات الآلاف من الصواريخ والقطع الحربيّة.

لم يسبق للبشريّة، في تاريخها، أن كان لديها مثل هذه الكميّة من الأسلحة... وقد اتّخذت تجارة الأسلحة التقليديّة، غير الذريّة أو النوويّة، حجمًا هائلاً منذ ١٩٤٥. ومنذ الحرب العالميّة الثانية، بلغ حجم المساعدات العسكريّة التي منحتها الولايات المتّحدة وبريطانيا وفرنسا ٥٨ مليار دولار، وحجم المساعدات التي منحها الاتّحاد السوفياتيّ والصين وحلفاؤهما للدول غير الشيوعيّة ٦ مليارات دولار.

أمام هذه الأرقام، وقف "روبرت ماكنمارا" سنة ١٩٦٦، وكان وزيرًا للدفاع الأميركيّ، ليعلن: "أصبحت الحياة على كوكبنا خطرة جدًّا".

ومن النقاط الحسّاسة والمهمّة على خريطة عمليّات تهريب الأسلحة في أوروبّا، تبرز زوريخ وبرن في سويسرا، وبروكسيل في بلجيكا، وميلانو في إيطاليا... أمّا بالنسبة إلى المرافئ التي تشحن عبرها الأسلحة فيمكن ترتيبها، حسب أهميّتها، على

الشكل التالي: هامبورغ أوّلاً، ثمّ أنفير ومرسيليا وبرشلونة وجنوا. من هذه المرافئ تتّجه الأسلحة المهرّبة إلى طنجة،... والعقبة عبر قناة السويس، وجدّة، ودار السلام في تنزانيا، ودكار، وكوناكري، وكاكاو، وهونغ كونغ...

ولعلّ أطرف حادث عن تهريب الأسلحة، هو ما حصل سنة ١٩٥٩ لمهرّب ألمانيّ يدعى "إرنست فيلهلم شبرنفر"، كان يبيع الجزائريّين الأسلحة في حربهم ضدّ الفرنسيّين.

فقد اشترى ألفي صندوق من الأسلحة والذخيرة التشيكوسلوفاكيّة، ونقلها من براغ إلى يوغوسلافيا في اتّجاه اللاذقيّة والجزائر. لكنّ الرئيس اليوغوسلافي "تيتو" صادر الشحنة المهرّبة لدى مرورها في يوغوسلافيا، وحين ردّها بعد مدّة لم تعد الأسلحة صالحة للاستعمال. ولم يعرف شبرنغر بذلك، فنقل الشحنة إلى اللاذقيّة ومنها إلى الجزائر. وهناك اكتشف الجزائريّون أنّ الأسلحة غير صالحة، فرفضوا أن يدفعوا ثمنها لشبرنغر، وقطعوا العلاقات معه.

إنّ تأمين الأسلحة للجزائريّين خلال الحرب مع الفرنسيّين، ساهمت فيه حكومات عدّة، بصورة غير رسميّة، ومنها الحكومات اللبنانيّة والمصريّة والصينيّة والكويتيّة والألمانيّة والمغربيّة والبلجيكيّة.

الدول الغربيّة الثلاث التي تتاجر بالأسلحة، بشكل رئيسيّ، هي: الولايات المتّحدة الأميركيّة، وفرنسا، وبريطانيا. أمّا الولايات المتّحدة، بالنسبة إلى الدولتين الأوروبيّتين، فهي كالـ"سوبر ماركت" بالنسبة إلى محلّين تجاريّين صغيرين.

الغرفة "820 - A 4 " في وزارة الدفاع الأميركيّة والتابعة للـ CIA، قد تبدو، للوهلة الأولى، بعيدة كلّ البعد عن غابة تجّار الأسلحة والمهرّبين والمرتزقة. فهي غرفة هادئة، تُسمع فيها الهمهمات، تزيّنها زهور إصطناعيّة وصور عائليّة. لكنّ هذه الغرفة،

في الواقع، هي أكبر مركز لتجارة الأسلحة في العالم: إنّها مخزن مبيعات الأسلحة التي تقوم بها الحكومة الأميركيّة.

على رأس الغرفة، بائع الأسلحة الرئيسيّ في الحكومة الأميركيّة، "هنري جون كوس جونيور"، "المهووس" ببيع الأسلحة، والذي شوهد مرّة يجلس داخل ناد للـ"ستربتيز" وهو يعدّ تقريرًا عن إحدى الصفقات، بينما على المسرح فتاة تتعرّى.

كانت الولايات المتّحدة تبيع، سنويًّا، أسلحة بمبلغ ملياري دولار، بحسب إحصاء سنة ١٩٦٥. وقال كوس إنّ ذلك يساهم في "أمن الغرب الجماعي"، ويؤمّن التعاون بين الحلفاء، ويساعد، في النهاية، على تعويض نفقات القوّات الأميركيّة المرابطة في الخارج. وقال إنّه لا يبيع معدّات حربيّة وأسلحة إلى بلد لا يملك الإمكانات الضروريّة والمطلوبة وليس مؤهّلاً لامتلاك أسلحة. وأكّد كوس أنّه لم يرغم أيّ بلد أجنبيّ على شراء أسلحة منه، كما أنّه لا يصرّ على بيع أسلحة لأحد الزبائن، إذا استطاع الأخير أن يشتري الأسلحة بأسعار أفضل.

ولكن كيف كانت تتوزّع صفقات الأسلحة؟

الكلام للمهووس كوس: منذ ١٩٦٢، ٧٥ في المئة من مجموع مبيعات الأسلحة الأميركيّة كان من نصيب كندا والبلدان الأوروبيّة الصناعيّة (بريطانيا، ألمانيا الغربيّة بصورة خاصّة)، ١٧ في المئة من هذه الصفقات كانت من نصيب بلدان الشرق الأقصى، باستثناء فيتنام الجنوبيّة، ١٠ في المئة من نصيب الشرق الأدنى والأوسط، وواحد في المئة من نصيب أميركا اللاتينيّة، وواحد في المئة من نصيب أفريقيا والدول الأخرى.

من يتّخذ القرارات بالنسبة إلى بيع الأسلحة؟

السلطة التنفيذيّة، ولا سيّما رئيس الولايات المتّحدة، هي التي لها الدور الأوّل في تقرير الصفقات. والرئيس الأميركيّ يتّخذ قراراته في هذا الشأن بعد مشاورات عدّة مع وزيري الدفاع والخارجيّة ومع الدوائر المعنيّة. ويطلب الرئيس الأميركيّ عادة من مجلس الأمن القوميّ والـ CIA أن يدرسا الجوانب المختلفة السياسيّة والاقتصاديّة والاستراتيجيّة، لأيّ صفقة.

وبما أنّ تجارة الأسلحة تشكّل جزءًا مهمًّا من سياسة الولايات المتّحدة الخارجيّة، فإنّ تقرير الصفقات، يرضخ لدوائر وزارة الخارجيّة، وتضمّ كلّ دائرة من دوائر أوروبّا الغربيّة، دائرة جنوب شرق آسيا... خبيرًا بارزًا في بيع الأسلحة هو الذي يرفع تقارير إلى الوزير عن حاجات منطقته وإمكانات الإفادة، سياسيًّا واستراتيجيًّا، من هذه الصفقة أو تلك. وإنّ ما يُسمّى "المساعدات العسكريّة الأميركيّة"، هو جزء أساسيّ من تجارة الأسلحة التي تقوم بها الولايات المتّحدة.

بعد الحرب العالميّة الثانية مباشرة، كانت أهداف المساعدات العسكريّة الأميركيّة أهدافًا سياسيّة واستراتيجيّة محضة، وذلك بسبب جوّ الحرب الباردة التي قامت بين المعسكرين الغربي والإشتراكيّ. وكانت الولايات المتّحدة، في تلك الحقبة، تعطي أسلحة، أو تبيع، لأسباب عسكريّة، أي للمحافظة على أمن الدول ضدّ "الخطر الشيوعيّ".

لكنّ الحرب الباردة تطوّرت إلى تعايش سلميّ بين الولايات المتّحدة والاتّحاد السوفياتيّ. وأصبحت أهداف المساعدات العسكريّة الأميركيّة أهدافًا سياسيّة واقتصاديّة. ولم يعد الهدف "حماية" الحلفاء أو الدول الصديقة، بل تأمين قوّتها ومقدرتها على الاستمرار. ونتيجة لهذا التطوّر، اتّبعت الولايات المتّحدة مبدأ "المساعدات العسكريّة غير المباشرة"، واستخدمت حلفاءها "المخلصين" تحقيقًا لذلك.

ولعلّ أبرز مثال على هذا النوع من المساعدات، صفقة الأسلحة الألمانيّة الغربيّة إلى إسرائيل.

سنة ١٩٦٠، اجتمع مستشار ألمانيا الغربيّة "إديناور" برئيس حكومة إسرائيل آنذاك "ديفيد بن غوريون" واتّفق معه، بتشجيع من واشنطن، على أن يسلّم إسرائيل سرًّا صفقة أسلحة قيمتها ٨٠ مليون دولار.

في تلك الحقبة، كانت الولايات المتّحدة تسعى إلى دعم إسرائيل وتقويتها من دون أن تُغضب البلدان العربيّة.

في حزيران ـ يونيو ١٩٦٤، أصبح "لودفيك أرهارد" متشار ألمانيا الغربيّة الجديد، فطلب من الولايات المتّحدة أن تعفيه من تزويد إسرائيل بالأسلحة. لكنّ واشنطن رفضت. وفي نهاية ١٩٦٤، بدأت تتسرّب الأنباء عن هذه الصفقات، وأدّى ذلك إلى توتّر العلاقات العربيّة ـ الألمانيّة الغربيّة، ثمّ إلى قطع ١٠ دول عربيّة علاقاتها الدبلوماسيّة مع بون.

استغلّت فرنسا المناسبة، فأعلنت في آذار ـ مارس ١٩٦٥ عن أنّها ستستأنف بيع الأسلحة إلى البلدان العربيّة، وذلك للمرّة الأولى منذ عشر سنوات...

على أنّ المساعدات العسكريّة الأميركيّة للحلفاء ليست دائمًا لمصلحة الحليف. فقد وقعت أزمة بين واشنطن وبون بسبب هذه "المساعدات".

في ١٣ أيّار ـ مايو ١٩٦٦، بعث وزير الدفاع الأميركيّ "روبرت ماكنمارا" برسالة "فظّة" إلى وزير الدفاع الألمانيّ الغربيّ السيّد "أوي فون هاسل"، حذّره فيها من أنّ الولايات المتّحدة ستحتفظ لنفسها بحقّ خفض قوّاتها في ألمانيا الغربيّة تدريجًا، إذا لم تعد بون تشتري أسلحة من الولايات المتّحدة بشكل يعوّض نفقات القوّات الأميركيّة

المرابطة هناك. وكانت ألمانيا الغربيّة تواجه، في ذلك الوقت، أزمة اقتصاديّة حادّة. وتوجّه أرهارد إلى واشنطن لإقناع المسؤولين فيها بأنّ بلاده مضطرّة إلى خفض قيمة مشترياتها من الأسلحة الأميركيّة. لكنّ لا الرئيس جونسون ولا وزير الخارجيّة "دين راسك"، ولا وزير الدفاع ماكنمارا استمعوا إليه.

وحين عاد أرهارد إلى بون، اقترح فرض ضرائب مباشرة لتغطية العجز، فانهارت الحكومة الائتلافيّة، وجاء "كورت كيسينغر" مستشارًا جديدًا.

بالنسبة إلى الشرق الأوسط، يتوصّل "جورج تاير" إلى النتيجة التالية: "السياسة التي اتّبعتها الولايات المتّحدة في مساعدتها العسكريّة إلى بلدان المنطقة، كانت سياسة تأمين التوازن بين العرب وإسرائيل. لكنّ هذه السياسة فشلت، وبرز فشلها بصورة خاصّة بعد دخول الاتّحاد السوفياتيّ المنطقة بشكل قويّ وفعّال عقب حرب حزيران ـ يونيو ١٩٦٧، وتمّ تعويض خسائر حرب حزيران ـ يونيو ليشهد عام ١٩٧٣ انتصارًا للسلاح السوفياتيّ على السلاح الإسرائيليّ، الأميركيّ الصنع...

بعد الذي جرى في اليمن سنة ١٩٢٨، كان الاتّحاد السوفياتيّ قد عدّل سياسته للمتاجرة بالأسلحة...

وسواء أكان الذي جرى في اليمن، في عهد الإمام المتوكّل يحيى بن الإمام، عاملاً في التعديل، أم كان الأمر مجرّد صدفة، وهو الأرجح، فإنّ جورج تاير يذكر في كتابه "تجّار الحرب" أنّ الكرملين اتّبع سياسة جديدة في ثلاثينات القرن العشرين بالنسبة إلى المتاجرة بالأسلحة.

منذ وصول لينين والبولشفيك إلى السلطة في روسيا سنة ١٩١٧ حتّى سنة ١٩٣٠، والمسؤولون يستخدمون تجارة الأسلحة لتحقيق هدفين:

الأول، مساعدة البلدان التي تقف ضدّ "العدوّين الرئيسيّين" آنذاك، بريطانيا وفرنسا.

والثاني، إستغلال "التناقضات الداخليّة في العالم الرأسمالي" لنشر الثورة العالميّة والعمل على تطويرها وتقدّمها.

من أجل ذلك، بعثت موسكو بأسلحة إلى تركيا خلال الحرب اليونانيّة ـ التركيّة سنة ١٩٢١.

ومن أجل ذلك، ساعدت موسكو ألمانيا على إعادة تسليح ذاتها خلال عشرينات القرن العشرين وحتّى مطلع الثلاثينات.

ومن أجل ذلك، حاولت موسكو القيام بثورة اليمن، بواسطة تجارة الأسلحة الروسيّة، سنة ١٩٢٨، في عهد الإمام المتوكّل يحيى بن الإمام. لكنّ هذه الثورة لم تتمّ...

منذ تلك الحقبة، وكان ستالين قد تسلّم السلطة، وحتّى سنة ١٩٥٣، طرأت تعديلات على سياسة المتاجرة بالأسلحة، لأنّ ستالين لم يكن يريد، في الأساس، تحقيق أكثر من "الإشتراكيّة في بلد واحد"، أي لم يعد يحلم بنشر الثورة العالميّة ، كما حلم لينين. لذلك لم تنشط، في عهده، تجارة الأسلحة. لكنّ هذا الوضع لم يمنعه من إرسال الأسلحة إلى الجمهوريّين في الحرب الأهليّة الإسبانيّة، وإلى الحركات الثوريّة في البلقان والشرق الأقصى، وإلى إسرائيل، بواسطة تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٤٨.

بعد وفاة ستالين، وبالتحديد سنة ١٩٥٥، نشطت تجارة الأسلحة السوفياتيّة. ويذكر جورج تاير أنّ البلدان الشيوعيّة وزّعت أسلحة على بلدان العالم، من ١٩٥٥ إلى ١٩٦٩، بما يعادل قيمته ٦ مليارات دولار، وأنّ ٩٥ في المئة من هذه الصفقات قام بها الاتّحاد السوفياتيّ وبلدان أوروبّا الشرقيّة، و٥ بالمئة فقط قامت بها الصين.

ومن ١٩٥٥ حتّى ١٩٦٩، مرّت تجارة الأسلحة السوفياتيّة بمرحلتين:

الأولى من ١٩٥٥ إلى ١٩٦٠، باعت خلالها موسكو أسلحة لمصر وسوريا والعراق وأندونيسيا، بصورة خاصّة. وكانت الأسلحة التي سلّمت إلى هذه البلدان تُعتبر فائضة وقديمة إجمالاً.

الثانية من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٩، وتتميّز هذه المرحلة بزيادة عدد البلدان التي أصبحت تتسلّم أسلحة سوفياتيّة، وباتّجاه موسكو إلى تزويد "زبائنها" بأسلحة حديثة ومتطوّرة.

ولعب الاتّحاد السوفياتيّ اللعبة نفسها التي لعبتها الولايات المتّحدة: الإستعاضة بالحلفاء الأوروبيّين من أجل التغطية. وهكذا كانت تشيكوسلوفاكيا هي التي سلّمت مصر سنة ١٩٥٥ صفقة الأسلحة الشهيرة التي فتحت باب الشرق الأوسط أمام الاتّحاد السوفياتيّ. وتشيكوسلوفاكيا نفسها هي التي زوّدت غواتيمالا بالأسلحة سنة ١٩٥٦، وألمانيا الشرقيّة هي التي ساعدت ثوّار زنجبار، وبولونيا هي التي أعطت كميّات من الأسلحة لفيتنام الشماليّة، وبلغاريا هي التي أمّنت الأسلحة لليمنيّين الجمهوريّين وللأريتريّين... لكن السياسة السوفياتيّة هي التي أفادت، في الواقع، من كلّ الصفقات.

وذهبت موسكو إلى أبعد ممّا ذهبت واشنطن: فقد استخدمت "زبائنها"، أيضًا، لنقل الأسحلة وبيعها. وكان من أبرز الزبائن الذين استخدمتهم موسكو، مصر والجزائر وغينيا وغانا (في عهد نكروما).

وأكبر مصنع لإنتاج الأسلحة في أوروبّا الشرقيّة هو تشيكوسلوفاكيا. وكان جزء صغير من إنتاجها يخصّص للحاجات الداخليّة أو لحاجات دول حلف فرصوفيا. أمّا الجزء الأكبر فكان لتأمين ما تعقده موسكو من صفقات الأسلحة مع البلدان الأخرى.

لكنّ الإتّحاد السوفياتيّ اتّبع أسلوبًا مختلفًا عن أسلوب الولايات المتّحدة في تجارة الأسلحة. فهو كان يحرص دائمًا على ألاّ يعطي أيّ بلد، مهما يكن وضعه الاقتصاديّ متردّيًا أسلحة مجّانًا، والاستثناء الوحيد في ذلك كان فيتنام.

وكان السوفيات يبيعون أسلحتهم، عامّة، بفوائد منخفضة جدًّا (بالنسبة إلى فوائد الدول الغربيّة) لا تتجاوز ٢ أو ٢,٥ في المئة، ويقسّطون ثمنها على ١٠ سنين أو ١٢ سنة. وكان يحدث أحيانًا كثيرة أن يقبلوا مبادلة أسلحتهم بمنتجات من الدول المشترية.

لماذا كان يحرص السوفيات على مبدأ قبض ثمن أسلحتهم أو مبادلتها، ويتجنّبون إعطاءها مجّانًا؟

كان هناك غايتان وراء ذلك:

الأولى، جعل الدول "الصديقة" التي تأخذ من السوفيات أسلحة لا تشعر بالنقص أو التبعيّة، بل تشعر أنّها على قدم المساواة مع الدولة الكبيرة.

الثانية، جعل هذه الدول مدينة تجاه موسكو، كذلك الحدّ من علاقاتها الاقتصاديّة والسياسيّة مع الغرب.

على أنّ الغاية الثانية لمبدإ موسكو لم تتحقّق أحيانًا كثيرة. فهناك دول عدّة كانت تأخذ أسلحة سوفياتيّة ولا تشعر أنّ ذلك يجب أن يحدّ من علاقاتها مع الغرب. وفي المقابل، أدرك الاتّحاد السوفياتيّ أنّ تزويد دولة ما بالأسلحة، ولو بثمنها، يجعل الكرملين أحيانًا مرتبطًا بهذه الدولة، إلى حدّ التورّط معها بشكل يصعب التملّص منه. وهذا ما حدث بين موسكو والقاهرة: فلم يكن في إمكان السوفيات، بعد حرب حزيران ـ يونيو ١٩٦٧، وقف مدّ مصر بالأسلحة المختلفة والمتطوّرة والحديثة، برغم نتيجة الحرب.

وبداية العلاقات السوفياتيّة - المصريّة على صعيد تجارة الأسلحة، في أيلول - سبتمبر ١٩٥٥، كانت صفقة قيمتها بين ٢٠٠ و٢٢٥ مليون دولار، تسدّد بمواد أوليّة ومنتجات مصريّة.

وتلقّت مصر ١٥٠ طائرة "ميغ - ١٥" و"ميغ - ١٧"، وقاذفات قنابل و٣٠٠ دبّابة ثقيلة من طراز "تي - ٣٤"، و٦ غوّاصات وكميّة كبيرة من أسلحة المشاة.

وبعد حرب السويس سنة ١٩٥٦، تطوّرت نوعيّة الأسلحة السوفياتيّة لمصر. واشترى الرئيس جمال عبد الناصر طائرات "ميغ - ١٧"، و"ميغ - ١٩"، وغوّاصات حديثة ومدمّرات وأسلحة مختلفة متطوّرة.

قفزة أخرى في نوعيّة الأسلحة السوفياتيّة تحقّقت سنة ١٩٦٣، وحصلت مصر على طائرات "ميغ - ٢١"، وكانت أفضل طائرات سوفياتيّة نفّاثة آنذاك، وقاذفات قنابل من طراز "تو - ١٦" وصواريخ أرض - جوّ "سام - ٢" و"سام - ٣". كما أخذ السوفيات يشاركون في بناء مفاعل نوويّ، وتمويل مصنع إنتاج الذخيرة في مصر.

وفي حزيران - يونيو ١٩٦٧، قبل الحرب، كانت قيمة الأسلحة السوفياتيّة التي اشترتها مصر تقدّر بنحو مليار دولار.

هزيمة حزيران - يونيو ١٩٦٧، ونتائجها، جعلت للسوفيات وجودًا عسكريًّا في مصر، كما لم يحدث من قبل في علاقات موسكو مع أيّ دولة أخرى. وحصلت مصر بعد حزيران - يونيو ١٩٦٧، على أسلحة حديثة ومتطوّرة ومتنوّعة بكميّات كبيرة، عوّضت خسائرها خلال الحرب. ورافق هذه الأسلحة خبراء سوفيات، بأعداد كبيرة أيضًا.

ويلاحظ جورج تاير أنّ ٤٥ في المئة من الطائرات الحربيّة المصريّة كانت من طراز "ميغ ـ ٢١"، ولم تكن تملك أيّ دولة في أوروبّا الشرقيّة، باستثناء الاتّحاد السوفياتيّ، هذه الكميّة من طائرات "ميغ ـ ٢١" في سلاحها الجوّي.

ففي خلال ١٩٥٨، باع الاتّحاد السوفياتيّ أندونيسيا ـ سوكارنو أسلحة قيمتها مليار دولار، ليقطع الطريق على امتداد النفوذ الصينيّ إلى هذا البلد. وكان أن أفاد من هذه الأسلحة الجيش الأندونيسي الذي أسقط سوكارنو... وذبح الشيوعيّين في الشوارع.

بالطبع، خسرت الصين أندونيسيا، لكنّ الاتّحاد السوفياتيّ لم يربح، في المقابل، شيئًا.

إندونيسيا ليست المثال الوحيد على اصطدام النفوذ السوفياتيّ ـ الصينيّ. هناك أيضًا الهند. وهناك بعض دول أفريقيا كالغونغو وغانا. إلاّ أنّ أبرز مثال على الاصطدام هو فيتنام.

قبل ١٩٦١، كان هناك اتّفاق ضمنيّ بين السوفيات والصينيّين على أن تُترك منطقة جنوب شرق آسيا لبكين. ثمّ بدأ النزاع بين الدولتين الشيوعيّتين الكبيرتين سنة ١٩٦١، وأخذ يتطوّر بسرعة، فتبدّلت الاتّفاقات وانقلبت الأهداف، وراح الكرملين يبذل كلّ ما في إمكانه للحيلولة دون وقوع فيتنام الشماليّة تحت النفوذ الصينيّ.

وجود "هو شي منه" على رأس فيتنام الشماليّة، أمّن لبلده التوازن بين العملاقين الشيوعيّين، وحافظ على استقلاله فجال العلاقات بينه وبين موسكو وبكين... وهناك حقيقة لا يمكن إغفالها، هي أنّ الجزء الأكبر من الأسلحة والمعدّات الحربيّة التي تتلقّاها فيتنام الشماليّة منذ ١٩٦٥، سنة بدأت الولايات المتّحدة تصعّد الحرب، كان يأتي من الاتّحاد السوفياتيّ ودول أوروبّا الشرقيّة، لا من الصين. وأهميّة الدور الذي لعبته

الصين في فيتنام الشماليّة ناتج، في الدرجة الأولى، عن كونها "الجارة العملاقة" للبلد الغير.

مَن يتّخذ قرارات صفقات الأسلحة؟ إنّ المكتب السياسيّ للحزب الشيوعيّ السوفياتيّ لم يكن يتّخذ وحده هذه القرارات، بل كان يشاركه في ذلك جهاز الاستخبارات العسكريّة الذي كان يلعب دورًا بارزًا في هذا المجال.

ماذا عن الصين؟ دورها صغير جدًّا، نسبيًّا، في عالم تجارة الأسلحة. وليست هناك أرقام محدّدة في هذا المجال. لكنّ الواضح أنّ لدى الصين زبائن كثيرين، موزّعين من أفريقيا إلى الشرق الأوسط إلى جنوب شرق آسيا. والصين هي الدولة الشيوعيّة الوحيدة التي تقدّم قروضًا لشراء الأسلحة من دون أيّ فائدة ماليّة.

والفرق بين الاتّحاد السوفياتيّ السابق والصين، بالنسبة إلى أهداف كلّ منهما السياسيّة في مجال صفقات الأسلحة، هو:

موسكو كانت تعطي أسلحة لدعم الأنظمة التي تبدو ثوريّة وتقدّميّة، وللحدّ من النفوذ الغربيّ والصينيّ. وفي بعض الأحيان، تساند بأسلحتها حركات تحرير أثبتت وجودها، كالمنظّمات الفدائيّة مثلاً.

بكين، تعطي أسلحة لإثارة الاضطرابات في بلد ما، ولتغذية الحركات الثوريّة، وإن تكن محدودة النفوذ والنشاط، من أجل انتشار الثورة العالميّة.

تبقى بريطانيا وفرنسا، "المحلاّن الصغيران"، كما يسمّيهما "جورج تابر"، أمام "السوبر ماركت" الذي هو الولايات المتّحدة.

بريطانيا هي تاجر الأسلحة رقم ٢ في العالم الغربيّ، إذ تبلغ قيمة مبيعاتها سنويًّا ٤٠٠ مليون دولار وأكثر.

في السنوات التي تلت الحرب العالميّة الثانية، كانت تجارة الحرب مزدهرة ورابحة في بريطانيا. والسبب الرئيسيّ أنّ بريطانيا خرجت من الحرب من دون أن تصاب صناعات الأسلحة فيها بأضرار كبيرة وقاضية، كما حدث مع الحلفاء الأوروبيّين الآخرين. وكانت مبيعاتها تتركّز، بصورة خاصّة، على الطائرات، وتتوجّه إلى دول الشرق الأوسط.

في مطلع خمسينات القرن العشرين، بدأت تجارة الأسلحة في بريطانيا تخفّ تدريجًا، لأسباب عدّة أبرزها تضاؤل الدور السياسيّ الذي تلعبه بريطانيا في العالم على حساب تزايد دور الولايات المتّحدة. وفي منتصف الخمسينات، أخذت تتعرّض لمنافسة التجّار الأميركيّين والسوفيات وحتّى الفرنسيّين، فتقلّصت صفقات الأسلحة البريطانيّة إلى دول الشرق الأوسط وأفريقيا الشماليّة بصورة خاصّة. والمثال على ذلك أنّ بريطانيا كانت تزوّد عددًا من دول الشرق الأوسط وأفريقيا الشماليّة بما يقارب ٩٥ ٪ ممّا تنتجه من الطائرات النفّاثة المعدّة للتصدير، لكن بعد سنة ١٩٥٥ سقطت هذه النسبة إلى ١٠ ٪ فقط. والشيء نفسه، تقريبًا، حدث معها في أميركا اللاتينيّة.

ومع تضاؤل دور بريطانيا المستمرّ في العالم، تضاءلت تجارة أسلحتها، لكن هذا لا يمنع من أنّها تعقد صفقات، سنويًّا، بما يقارب نصف مليار دولار.

وفرنسا سارت على الخطّ المعاكس لبريطانيا.

في السنوات التي تلت الحرب العالميّة الثانية مباشرة، انصبّ اهتمام فرنسا في الدرجة الأولى على إصلاح الوضع الاقتصاديّ الداخليّ المترديّ. ولم تدخل عالم تجارة الأسلحة، فعلاً، إلاّ في منتصف خمسينات القرن العشرين. ولم تنطلق هذه التجارة وتزدهر إلاّ بعد عودة الجنرال ديغول إلى الحكم سنة ١٩٥٨. وتشير الأرقام إلى أنّ فرنسا باعت سنويًّا، بما يعادل ٤٠٠ مليون دولار أو أكثر.

الهدف الأساسيّ، لتجارة الأسلحة، بالنسبة إلى فرنسا، هو هدف سياسيّ، لذلك تشرف الدولة إشرافًا كاملاً على بيع الأسلحة. وقرار البيع يأتي من قصر الإليزيه أو من وزارة القوّات المسلّحة أو وزارة الخارجيّة. والدولة الفرنسيّة تملك جزءًا كبيرًا من صناعة الأسلحة. ويقول "تاير" إنّها تملك أكثر ممّا تملكه الدولة في بريطانيا.

لعلّ أبرز مثال على نجاح السياسة الفرنسيّة في هذا المجال، هو الشرق الأوسط. فقد استطاعت فرنسا أن تدخل إلى المنطقة برغم سنوات العداء بينها وبين عدد من الدول العربيّة، وبرغم صفقات الأسلحة الهائلة التي زوّدت بها إسرائيل، وأن تعيد إلى سياستها ونفوذها مكانتها الضائعة، وأن تبيع من بعض الدول العربيّة كمّيّات كبيرة من الأسلحة.

والذي أتاح لها أن تلعب هذا الدور هو، قبل كلّ شيء، تنافس "السوبّر ماركت" الأميركي و"السوبّر ماركت" السوفياتيّ، على اجتذاب الزبائن في الشرق الأوسط[1].

---

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ص١٥٧ ـ ١٦٩.

الفصلُ الخَامِس

العَمليّاتُ والمهامّ

جَمعُ المعلومات في زمن السّلم

يتطلّب وضع الخطط السياسيّة والإعلاميّة والاقتصاديّة والعسكريّة للدول حيازة حقائق ودلائل تشكّل المعطيات الأساسيّة لوضع تلك الخطط موضع التنفيذ عند الحاجة إليها.

تلك الحقائق والدلائل تُجمع من مصادر شتّى، تتولّى أجهزة المخابرات جمعها، وتبقى أهمّ مصادرها المصادر البشريّة المباشرة.

ويمكن تصنيف المعلومات المطلوبة إلى: ١) معلومات عسكريّة؛ ٢) معلومات عامّة؛ ٣) معلومات سياسيّة.

١ ـ المعلومات العسكريّة: وتشمل التنظيم؛ التسلّح والتجهيز؛ العقيدة التعبويّة؛ المستوى القتالي؛ التدريب؛ المعنويّات؛ المنشآت العسكريّة؛ طوبوغرافية الأرض؛ الموانع الطبيعيّة؛ الموانع المصنوعة؛ حالات الطقس؛ الموادّ المتوفّرة محليًّا؛ طرق المواصلات؛ الشخصيّات المدنيّة والعسكريّة؛ إشارات تمييز الرتب، والوحدات، والأسلحة، والأعلام، وإشارات التمييز الخاصّة الأخرى؛ صفقات التسليح النوويّ؛ البعثات العسكريّة الأجنبيّة؛ النشاطات العسكريّة؛ الإبلاغ عن أيّ خطّة أو نيّة موجّهة ضدّ الثورة أو مصالحها من أيّ جماعة أو تنظيم محلّي أو خارجيّ بأسرع وقت ممكن لتفادي أيّ خطر قد يحدث.

المعلومات العامّة: وتشمل النواحي الاجتماعيّة والتاريخيّة والاقتصاديّة ونظم الحكم، ويركّز بشكل خاصّ على: العنصر واللغة والدين؛ الأقسام الرئيسيّة للشعب

ومدى التلاحم أو التفكّك بينها وتطلّعات هذه الأقسام أو الفئات؛ تاريخ البلد من حيث مراحل تطورّه منذ البداية حتّى الوقت الحاضر مع ذكر الأحداث الهامّة؛ أهمّ العادات البارزة سواء المستحبّة أم السيّئة؛ المسح الاقتصاديّ؛ نظام الحكم؛ الأحزاب السياسيّة مع أسمائها وقوّة وأهداف وعدد أعضاء كلّ منها؛ النقابات والتجمّعات والحركات الطالبيّة والعمّاليّة المعترف بها؛ المنشورات الرسميّة والعامّة واتّجاهاتها...

المعلومات السياسيّة: وتشمل بشكل خاصّ أهداف البلد المعلنة أو الخفيّة إذا أمكن معرفتها؛ التطلّعات القوميّة؛ الموقف السياسي الداخلي من حيث مدى الاستقرار السياسيّ السائد والمشاكل التي تواجهها الدولة، ومن حيث الجماعات المؤيّدة غير الرسميّة والأحزاب المناوئة وعددها وحجمها وفعاليّتها ومدى تأثيرها وارتباطاتها الخارجيّة من الناحيتين السياسيّة والماديّة مع بيان أسماء وعناوين وارتباطات الأعضاء البارزين فيها، والحركات العمّاليّة والطالبيّة المناوئة للحكم وحجمها وارتباطها ومدى فاعليّتها وتأثيرها وبيان أسماء وعناوين وارتباطات الأعضاء البارزين فيها، وأيّ تنظيمات سياسيّة عالميّة أو قوميّة خارجيّة مع بيان أكبر كميّة من التفصيلات عن حجمها وفعاليّتها وموقفها من الحكم والنظام وأسماء وعناوين أعضائها وأيّ دعم تتلقّاه محليًّا على المستوى الرسميّ أو الفرديّ وبيان المؤيّدين إسمًا وعنوانًا؛ الموقف السياسيّ الخارجيّ ويشمل العلاقات مع الدول المجاورة ومع سائر الدول والعلاقات مع التكتّلات العالميّة والعلاقات مع الحركات الثوريّة المحليّة والعالميّة والمعاهدات والاتّفاقات السياسيّة والثقافيّة والاقتصاديّة والأحلاف[1]...

---

١ ـ أبو الطيّب، الاستخبارات الصهيونيّة، ص٢٧١ ـ ٢٨١.

الحَربُ النَّفسيَّة

إنّ تسمية "الحرب النفسيّة" كافية للتعريف بأنّها حرب تستهدف "عقل الإنسان"، على عكس الحرب القتاليّة التي تستهدف كيانه الفيزيائيّ. ولذلك فهي تركّز على غسل الأدمغة وتغيير الفكر أو الرأي أو السلوك في المجتمع المستهدف بحيث ينهج نهجًا مغايرًا للنهج السائد فيه، ليتناسب مع ما تقتضيه مصلحة الجهة القائمة بالحرب النفسيّة.

إنّ التطوّر العلميّ الحديث وانتشار الحضارة والعلوم والاختراعات وتزايد المنافسات بين الدول في شتّى المجالات أمور جعلت الاهتمام بموضوع الحرب النفسيّة كبيرًا لدرجة أنّها أصبحت تُعتبر في نظر بعض الدول علمًا مهمًّا ودقيقًا يجب الاهتمام به واستيعابه جيّدًا على اعتبار أنّه من العناصر الهامّة للسياسة الوطنيّة التي تتّخذها الدولة في مجال معيّن تجاه مجموعة ما، أو جهة ما، أو دولة ما، لتحقيق هدف معيّن حسب الظرف المعيّن.

وتُعتَبر "الحرب النفسية" أنّها "أنشطة عمليّة" وليست أنشطة جمع معلومات، وهي تختلف عن عمليّات جمع المعلومات التي من المفروض أن تكون خفيّة بحيث أنّ الشخص المستهدف يبقى غير مدرك حصولها على الإطلاق، بينما تُعدّ الحرب النفسيّة بأنّها تعني "وضع الأمور والشؤون السياسيّة والعسكريّة والاقتصاديّة والعقائديّة التي خُطّط لها موضع التنفيذ من أجل التأثير على الآراء والعواطف والمواقف ووجهات النظر والسلوك في هدف معيّن". وهي تستخدم جميع الوسائل أعمالاً وأقوالاً وكتابة للتأثير على الهدف المعيّن، سواء أكان هذا الهدف عدوًّا أو صديقًا أو محايدًا، من أجل أن تكون النتائج المتوخّاة من هذه الأنشطة منسجمة مع مصالح الجهة القائمة بالحرب النفسيّة.

وتشمل الحرب النفسيّة ممارسة أعمال متعدّدة، كأعمال الدعاية، والأنشطة في أوساط منظّمات الأحزاب والطلاّب والشبّاب والاتّحادات والنقابات والتكتّلات السياسيّة المختلفة...

وسائل الإعلام التي تُستخدم في الحرب النفسيّة عديدة وأهمّها: الصحافة، الإذاعة، التلفزة، السينما، النشرات، المناشير، الكتب... وهي الوسائل التي يمكن استخدامها لنقل ما يمكن أن يؤثّر في عقول الناس وعقائدها ونفسيّاتها، من معلومات وآراء من أجل إشاعة حالة معيّنة في المجتمع المعيّن. ففي حالة استهداف عدوّ غالبًا ما تكون الغاية فقدان مجتمع ذلك العدوّ أو قوّاته المسلّحة الثقة بالنفس، وقد عمدت القوّات النازيّة إلى استعمال هذه الطريقة في الحرب العالميّة الثانية بواسطة ما يسمّى بـ"الطابور الخامس"، الذي كان يبثّ الإشاعات والدعاية في صفوف العدوّ، ما أفقد هذا الأخير الثقة بزعمائه وبقوّاته المسلّحة وبقدرته القتاليّة، فانهارت الجبهات العظمى أمام الجيوش الألمانيّة النازيّة الغازية التي استطاعت أن تسيطر على معظم دول أوروبّا المجاورة لألمانيا. ويعتبر باحثون خبراء أنّ أهمّ وأفضل الوسائل التي تُستخدم في الحرب النفسيّة هي الاتّصال المباشر من شخص إلى آخر ببثّه المعلومات والآراء بشكل شخصيّ.

من أهمّ ما تعتمد عليه الحرب النفسيّة في أنشطتها: "عمليّات الدعاية"، وقد قسّم باحثون أنواع هذه الدعاية إلى ثلاث فئات: "الدعاية البيضاء"، والدعاية الرماديّة"، و"الدعاية السوداء".

فالدعاية البيضاء، هي التي يُعترف علانية بأنها صادرة عن الدولة، وتشمل النشرات والبيانات والتصريحات الصادرة عن المسؤولين الحكوميّين عبر وسائل الاعلام الرسميّة والخاصّة.

والدعاية الرماديّة، هي التي تُنسب ظاهريًا لأشخاص أو منظّمات لا تعترف بها الدولة باعتبارها مؤسسات مستقلّة لا تسيطر عليها الدولة، وتعمل بمعزل عنها، وتعتبر هذه الطريقة من باب الخداع.

أمّا الدعاية السوداء، فهي تلك التي لا تُنسب لأحد، أو تنسب إلى "مصادر" مجهولة، لا وجود لها في الحقيقة، أو تكون مادّة زائفة وملفّقة وكاذبة تنسب إلى مصدر حقيقيّ محدّد.

ومن أجل المحافظة على إمكانيّة الإنكار المقبول، والتقليل من عامل الارتباك الدبلوماسيّ للدولة القائمة بأمر الدعايتَين الرماديّة والسوداء في حالة انكشافها، يحظّر على الموظّفين الرسميّين العلنيّين القيام بها، ويقوم بهذا العمل متستّرون وراء أعمال ووظائف غير رسميّة، فيتنكّر هؤلاء بصفات رجال الأعمال، أو الطلبة، أو الأشخاص المتقاعدين، أو بأيّ ستار غير رسميّ... أو يناط مثل هذه الأعمال بعملاء محليّين... وذلك لحماية ضبّاط المخابرات الذين يعملون تحت غطاء رسميّ، والذين يجب أن يحافظوا على أداء عملهم بسريّة تامّة، وذلك بغرض حماية السفارة التي يعملون فيها. وغالبًا ما يعتقد العملاء القائمون بأعمال هذه الدعاية بأنّهم يحصلون على المال من رجال أعمال.

وتشمل عمليات الدعايتين الرماديّة والسوداء أخبارًا سمتها التضليل والخداع، غايتها إحداث الوقيعة واشعال الفتن والمعارك بكافّة أشكالها داخل الدولة المستهدفة، أو بثّ أخبار كاذبة عن الدولة المستهدفة في أوساط الدول الأخرى. وتُستخدم في الدعايتَين الرماديّة والسوداء، الكتب، والصحف، والمجلّات، والمنشورات التي توزّع باليد، والإذاعة، والتلفزة، والأحاديث السياسيّة، والعظات، والكتابة على الجدران، وشبكة الإنترنت، والأشرطة والأقراص الممغنطة....

ويكون الغرض من العمليات في أوساط الشباب والطلاب، رصد وتقييم وتجنيد زعماء الطلاب والشباب كعملاء لمدّة طويلة في عمليّات المخابرات الأجنبيّة والحرب النفسيّة، بحيث يمكن الاعتماد عليهم وإبقاؤهم تحت السيطرة طويلاً بعد أن يرتقوا إلى درجات عليا في حياتهم السياسية والمهنيّة، وكذلك من أجل استخدامهم على المستوى الدوليّ في مساندة العملاء الآخرين مستقبلاً.

أمّا العمليّات في أوساط العمّال، فمشابهة للعمليات في أوساط الشباب والطلاّب. وغالبًا ما تلحظ العمليّات في هذا الوسط قيام الدولة الناشطة في عمليّة الحرب النفسيّة بتقديم تسهيلات لقادة العمّال تشمل السفر والتدرّب والدعوة إلى المؤتمرات... حيث تتمّ الاتّصالات مع الزعماء العمّاليّين المحليّين في الدولة المستهدفة لتنفيذ البرامج الخاصّة في تلك الدولة، وكذلك تعمّم المبادئ والتوجيهات اللاّزمة من خلال الحلقات الدراسية والمؤتمرات والبرامج التعليميّة التي تقوم بها الدولة المعيّنة بهدف احباط الأعمال السياسيّة التي لا تتناسب مع مصالحها في الدولة المستهدفة... وغالبًا ما يتمّ استخدام الشباب والطلاّب والعمّال لتحقيق أهداف معيّنة في عمليّات الاجراءات السياسيّة وتعميق أزمات الصراع على السلطة في الدولة المستهدفة.

ويشكّل المهنيّون غاية لغرض رصد عملاء الدعاية المحتملين، وتأهيلهم للقيام بعمليّات الدعاية، بهدف مقاومة الاتّجاهات المحليّة المناوئة، وذلك من خلال قيامهم بأنشطة الدعاية ضدّ "انتهاك حقوق الإنسان" وما شابه، ويُدفع هؤلاء المهنيّون لقيادة منظّمات المجتمع المدنيّ وبناء طبقة من الصفوة التي من الممكن استغلالها في أزمات التغيير السياسيّ من خلال تعقيد أزمة الحكم.

ومن أعمال "الحرب النفسيّة" أيضًا، عمليّات "الإجراءات السياسية"، وتعني تشجيع حكومة أجنبيّة على انتهاج سياسات دوليّة لمصالح الدولة الناشطة. هذه العمليّات

تتضمّن غالبًا الدعم بالمال للساسة الأجانب الذين يُرجى منهم تحقيق السياسات والاجراءات الحكوميّة المرغوب فيها من قبل الدولة الناشطة في أعمال الحرب النفسيّة، وبقصد احباط أنشطة ساسة الدولة المستهدفة الذين يؤيّدون السياسات غير المرغوب فيها من قبل الدولة الناشطة، وتشمل تمويل الانتخابات لصالح الأحزاب الداعمة للسياسات المطلوب تنفيذها. وتتشكّل العناصر البشريّة المرشّحة للعمل في عمليّات الاجراءات السياسية، من قيادات الأحزاب السياسيّة، والساسة، والقادة العسكريّين... ويصبح العملاء من العمّال والطلاّب والشباب والمهنيّين والإعلاميّين يستخدمون لغزو أهداف معيّنة، يجري طرحها من خلال عمليّات الاجراءات السياسيّة. و تضع المخابرات برامج ثابتة لكسب صداقة الساسة المحليّين من بين صفوف أحزاب حكومة الدولة المستهدفة، وكذلك من أحزاب المعارضة فيها... ومن خلال الإغراء بالمال، يقدّم الساسة المحليّون معلومات سريّة عن أحزابهم وحكوماتهم ويكتشفون أسرار الدولة. ومن الممكن أحيانًا استعمال وسائل أخرى لإجبارهم على التعاون بدون تردّد وتنفيذ ما يطلب منهم من مهامّ.

ويعتبر العسكريّون من أبرز المرغوب في التعامل معهم من قبل الدولة الناشطة في الحرب النفسيّة، لأنّهم هم الذين يفصلون في النهاية في المنازعات السياسيّة في كثير من البلدان. ويتمّ الاتصال بالعسكريّين من خلال الملحقين العسكريّين أو أعضاء بعثات المعونة العسكريّة لدى الدولة الناشطة، أو من خلال "الصلات الحميمة" مع أجهزة المخابرات، ومن خلال الذين تُقدّم لهم الدولة الناشطة فرص التدرّب لديها أو في دولة صديقة، وذلك من خلال البرامج الثابتة والمعدّة لتنمية علاقات الدولة الناشطة مع القادة العسكريّين، بهدف الوصول إلى استخدامهم إذا أمكن في العمل السياسيّ لصالح برامجها.

ومن وسائل الحرب النفسيّة أيضًا، عمليّات التعامل مع المعارضة، وقد يتطلّب ذلك التدخل في الانتخابات الوطنيّة للدولة المستهدفة، وقد يتمّ ذلك أحيانًا من خلال تشكيل حزب سياسيّ محلّيّ ودعمه ماديًا وتمويل مرشحيه، بالإضافة إلى وما يتطلّبه الأمر من شنّ حملات دعائيّة، وإحياء علاقات عامّة مكثّفة للتأثير على المواطنين، وتوفير الأموال اللازمة لشراء الناخبين والقيّمين على العمليّة الانتخابيّة، وارهاب المعارضين للحزب المدعوم، وتدبير أعمال استفزازيّة تكون نتائجها مضرّة بالخصوم، ونشر الشائعات التي تسيء إلى سمعة المرشّحين غير المرغوب فيهم، واستعمال بعض الأساليب القذرة مثل: ١) تبنّي حملات دعاية مضادّة للجهات المناهضة لسياسة الدولة الناشطة في كافّة وسائل الإعلام مستندة على تلفيقات وتهم وأكاذيب وتضليل وأخبار مزيّفة؛ ٢) تدبير المكائد ضدّ المناهضين لكي تقوم الشرطة باعتقالهم؛ ٣) تنظيم جماعات من الإرهابيّين والمجرمين للاعتداء على المناهضين وإرهابهم؛ ٤) الاستعانة بأجهزة الاتّصال والمراقبة لاتّخاذ إجراءات القمع المطلوبة؛ ٥) إستخدام الموادّ التي تنشر روائح كريهة، واستعمال وسائل إزعاج أخرى بهدف فض اجتماعات المناهضين وتعثير لقاءاتهم الجماهيريّة؛ ٦) تحريك العملاء بالأجهزة الموالية للدولة الناشطة لتحجيم حركة المعارضة؛ ٧) التزوير في الانتخابات لمنع المناهضين من الفوز؛ ٨) تدبير عمليّات الابتزاز والفضائح الماليّة؛ ٩) تهديد الأبناء والزوجة والأقارب وإثارة الفزع في نفوسهم؛ ١٠) العمل على حرمان المناهضين من مواردهم الاقتصادية[1]...

---

١ - صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٢٤٦ - ٢٤٧.

العمليّات شبه العسكريّة

تُعتبر العمليات شبه العسكريّة تدخّلاً سافرًا في شؤون دولة أخرى، وغالبًا ما يتطلّب القيام بها تصديق رئيس الدولة.

تشمل العمليّات "شبه العسكريّة" أعمال التسلل إلى داخل المناطق المحظورة، والقيام بأعمال تخريب، وإرهاب الأشخاص، وتقديم الدعم بالأسلحة والتدريب للميليشيات العسكرية المناهضة للحكم في الدولة المستهدفة، أو تلك العاملة خارج نطاق سيطرة تلك الدولة وبعيدًا عن موافقة حكومتها، كما تشمل أحيانًا أعمال المساندة الجويّة والبحريّة واللوجستية لخصوم الدولة المستهدفة، وأعمال الحصار الاقتصاديّ لتلك الدولة .

غالبًا ما تحتاج العمليّات شبه العسكريّة إنفاق مبالغ كبيرة من المال، و/ أو استخدام أساليب قذرة...

وهي عمليّات محفوفة بالمخاطر، لأنّها تعني التدخّل المباشر في شؤون دولة أخرى معترف بها دوليًا... وينتج عن انكشاف العمليّة شبه العسكريّة والدولة التي وراءها عواقب دبلوماسيّة على الدولة المنفّذة قد تكون وخيمة، أمّا إذا انكشفت عمليّات جمع المعلومات، فمن الممكن احتواؤها سياسيًّا، لأنّها جزء تقليديّ من النشاط الاستخباري لجميع دول العالم... أمّا بالنسبة للعمليات شبه العسكرية فلا يعود الإنكار ممكنًا أو مقبولاً إلا إذا بُذلت جهود كبيرة منذ البداية لضمان إمكانيّة إلقاء اللوم على جهة أخرى، واتّهامها، وإبعاد الشبهة عن الدولة التي قامت أجهزة مخابراتها بهذا العمل.

ويعرّف بعضهم[1] "العمليات شبه العسكرية" التي تقوم بها مخابرات دولة ما في دولة أخرى مستهدفة بأنّها "عمليّات إرهابيّة"، تعتمد على مجموعات مدرّبة بشكل يمكّنها من القيام ببعض الأعمال القتاليّة والأنشطة التخريبيّة والتدميريّة المعروفة، وغالبًا ما تكون هذه الجماعات من العناصر المسرّحة والمفصولة من القوات النظاميّة المختلفة، وجماعات مقاتلة من الميلشيات الحزبيّة المدربة على عمليّات التسلّل والمراوغة، والهروب عبر الحدود، وعلى عمليّات التسلّل البرّي والاسقاط الجوّي ليلاً، وعلى الرماية المختلفة بالمسدّسات والبنادق والمدافع الرشّاشة، وعلى زرع المتفجّرات، وعلى القتال في الغابات والجبال والسهول والأماكن الوعرة...

---

١ - صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٧٩.

الطّابور الخَامس

نشأ تعبير "الطابور الخامس" أوّل ما نشأ أثناء الحرب الأهليّة الإسبانيّة التي نشبت عام ١٩٣٦، واستمرّت ثلاث سنوات، وأوّل من أطلق هذا التعبير هو الجنرال الإسباني "كويبو ديللانو"، أحد القادة الثائرين، وكان يتحدّث عن قوّاته الزاحفة على مدريد، وكانت تتألّف من أربعة طوابير من الثوّار، ثمّ قال إنّ هناك طابورًا خامسًا يعمل مع الثوّار، لكنّه داخل مدريد نفسها... وكان يقصد بذلك مؤيّدي الثورة من أهالي مدريد.

وبعد هذا الوصف الذي أطلقه الجنرال الإسبانيّ الثائر أصبح استعمال عبارة الطابور الخامس شائعًا، وأصبحت تدلّ على الجاسوسيّة، وعمليّات التخريب التي تتمّ داخل البلد بواسطة أعوان لأعداء هذا البلد.

وقد زاد انتشار هذا التعبير بعد ذلك عندما قامت الحرب العالميّة الثانية، واعتمد هتلر على عدد كبير من الجواسيس والمخرّبين داخل البلاد التي كان يحاربها.

وبعد نهاية الحرب العالميّة الثانية اتّسع معنى عبارة الطابور الخامس ليشمل مروّجي الشائعات ومنظّمي الحروب النفسيّة التي انتشرت نتيجة للحرب الباردة بين المعسكرين الشرقيّ والغربيّ[1].

---

١ - وود جان، جواسيس للبيع، ص٢٤.

الفصلُ السَّادس

جدليَّةُ المخَابَرات والسِّياسَة

المخابَراتُ والسِّياسَة

تدّعي أجهزة المخابرات في كافّة دول العالم بأنّه لا شأن لها بالقضايا السياسيّة الداخليّة، وبأنّ مجال عملها الرئيسيّ الذي أنشئت من أجله ينحصر في مجال الأمن القوميّ ومكافحة التجسّس وقضايا التآمر التي لها صلة بدولة أجنبيّة، وكذلك زرع العملاء في الخارج للحصول على المعلومات السريّة... هي تدّعي ذلك بالرغم من وجود الكثير من الاتّهامات بتدخّل بعضها في حياة المواطنين وفي الشأن السياسيّ داخل البلاد...

هذا مع العلم أنّ الفارق كبير بين نهجي السياسة والمخابرات. فبينما يُبنى تقدير المخابرات على وضع الحلول... يُبنى تقدير السياسيّ على وضع القرار السياسيّ، وشتّان بين النهجين.

ويرى باحثون أنّ بعض الأجهزة الأمنيّة هي أجهزة النظم السياسيّة الحاكمة، ومسؤوليّتها حماية هذه النظم ومواجهة أيّ تهديدات تتعرّض لها، وتجتهد باستمرار لإثبات ولائها للنظام الحاكم. وتحت غطاء العمل لتحقيق الاستقرار الأمنيّ، غالبًا ما تمنع الرأي السياسيّ المعارض. وفي أكثر النظم إدعاءً بممارسة الديمقراطيّة الليبراليّة تبقى فرص الأحزاب المعارضة أقلّ بكثير ممّا يتمتّع به الحزب أو الائتلاف الحزبي الحاكم، بحيث أنّ الرقابة تتركّز على أحزاب المعارضة، ويكون المنع لمعظم النشاطات السياسيّة غير الحكوميّة بدعوى تأثيرها السلبيّ على الحالة الأمنيّة. وعندما يكون الصوت المعارض عاليًا ففي كثير من الأحيان تُدبَّر عمليّات غير قانونيّة لخفض

هذا الصوت أو منعه إذا تبيّن العجز عن تحييده، فقد أصبحت معظم الأجهزة الأمنيّة، بتصرّفاتها غير الشرعيّة لإرضاء السلطة الحاكمة، بمثابة عدوّ لتنظيمات وأحزاب المعارضة التي تدفع دائمًا ثمن أيّ تغيير في نظام الحكم. وكثيرًا ما تُوجّه لتلك الأجهزة أصابع الاتّهام بممارسة أعمال عدائيّة ضدّ أحزاب المعارضة بحجّة "مكافحة الشغب". وفي بعض الدول تتعرّض الأجهزة الأمنيّة للحلّ والتصفية والمصادرة وتشريد العاملين فيها واعتقالهم وتقديم عدد منهم للمحاكم الثوريّة التي يقيمها النظام الجديد خصيّصًا لمحاكمة رجال وقيادات العهد البائد، وعلى رأسهم قادة الأجهزة الأمنيّة الذين يردّون على الاتّهامات الموجّهة ضدّهم بأنّهم كانوا يعملون وفقًا لتعليمات نظام حكم شرعيّ معترف به، وهم منفّذون لأوامره، ولم يقوموا باستصدار تلك الأوامر، وأنّ لديهم قانون يعملون بموجبه. وتصبح مساءلات عمليّات التعذيب التي قام بها أفراد بعض الأجهزة الأمنيّة ضدّ معارضي النظام قضايا جنائيّة فرديّة سرعان ما تُعرض للتسويات الماديّة والمعنويّة أو الاعتذارات المعلنة في وسائل الإعلام.

ويضيف هؤلاء الباحثون أنّه في حالات عديدة قامت أنظمة سياسيّة بوقفات لمراجعة مسيرتها السابقة لتجديد الولاء الشعبيّ لها، وإعادة الثقة بالحاكم، وإعلان براءته من كافّة الممارسات الخاطئة، وعدم علمه بما كان يدور خلف ظهره من انتهاكات متعدّدة لحقوق المواطنين والاعتداءات المتواصلة على مصالحهم. واتّباعًا لما يُعرف بسياسات "امتصاص الغضب الشعبيّ"، يقوم الحكّام باتّهام بعض قادة الأجهزة الأمنيّة بالقيام بكافّة الجرائم ضدّ الشعب. ووسط حالات التأييد الشعبيّ لهذه الخطوة المتّخذة ضدّ الأجهزة الأمنيّة المكروهة، والتي كانت تمارس أساليب العنف والقسوة ضدّهم، تذهب تلك القيادات إلى عالم الاعتقال السياسيّ، مع ما يرافق ذلك من سخط وتوبيخ واتّهامات وإشاعات تحمّل قادة الأجهزة الأمنيّة كافّة الأخطاء التي لم يكونوا،

في أحيان كثيرة، طرفًا فيها، فيكسب الحاكم الجولة التي يطلق عليها أسماء متنوعّة، مثل "تصفية مراكز القوى"، و"تصفية دولة المخابرات"، و"إلغاء دولة الإرهاب"، و"الخلاص من أعداء الشعب"، وحلّ أجهزة الأمن الفاشيستيّة"... وينتعش سوق فتح البلاغات والاتّهامات ضدّ عناصر الأجهزة الأمنيّة المغضوب عليها، وتشهد المحاكم المرافعات والمرافعات المضادّة، وتنقل أجهزة الإعلام ما يدور لإثارة الرأي العام ولفت الانتباه تأكيدًا على الممارسة الجديدة للديمقراطيّة التي سرعان ما تتبخّر أحلام تطبيقها.

وتمرّ أزمة الحكم العارضة بـ"ابتلاع القطط الصغيرة" التي تدفع ثمن الانحراف الملازم للنظام السياسيّ الذي يجدّد نفسه بإدعاء "اكتشاف مؤامرة مدبّرة ضدّه"، وأنّ "أعداء الشعب يتربّصون به"، وأن "الإنفتاح الديمقراطيّ قد "تسلّل إليه أعداء الديمقراطيّة... وأصبح مناخًا لإخصاب وتوالد وحضانة العنف والإرهاب... ولمّا كانت الضرورة تقتضي، ووفقًا للمصالح القوميّة العليا، القضاء على العنف والإرهاب، فلا بدّ من اتّخاذ إجراءات... وتعديل قوانين... والحدّ كثيرًا من هامش الحريّات ليتثنى للمسؤولين مواجهة الإرهابية ... ويتولّد العنف مجدّدًا من خلال إرهاب الدولة... ويضيع معنى ومفهوم العنف المضاد... ويغيب نهائيًا ما تبقى من المكتسبات الديمقراطيّة حيث تُعلَن الأحكام العرفيّة وقوانين الطوارئ... وتستردّ الأجهزة الأمنيّة قبضتها العنيفة في مواجهة المشتبه بهم... وتطارد العديد من قيادات التنظيمات والحركات السياسيّة المعارضة بحجّة مقاومة الإرهاب وتصفية مواقعه... ويُفسح الطريق من جديد أمام إرهاب وعنف الدولة... وعلى محطّة مقاومة الإرهاب، ينهض الشعب بكل فئاته للدفاع عن النظام السياسيّ المستهدف بالعمليّات الإرهابيّة، دون أن يبحث النظام في العوامل والمؤثّرات والظروف التي أدّت إلى تنامي العمليّات الإرهابيّة

في مجتمعات عرف عنها التسامح والمعايشة عبر قرون عديـدة... علمًا بـأنّ العمليّات الإرهابيّة عبر التاريخ كانت في معظمها عمليّات ثوريّة منقدّمـة تستهدف اغتيـال قـادة الحملات الاستعماريّة الأجنبيّة والحكّام الخونة وعملاء الاستعمار الذي كان مهيمنًا فـي بداية القرن العشرين، وبأنّ التراث الوطنيّ يعتـبر الذين قـاموا بهذه العمليّـات الفدائيّـة أبطـالاً تـاريخيّين، تُنسج حولهـم الحكايـات والقصص والأساطير التـي تتّحـدث عـن بطولاتهم وتضحيـاتهم مـن أجل الديـن والوطـن، ويعتـبرون مـن الشـهداء... وتصبـح ضرورة تفسير مبادلة العنف بين الحكّام والمحكومين مسؤوليّة وطنيّة لاكتشاف أسـباب الأزمة الرئيسيّة والسعي للقضاء عليها"...

واعتـبر هـؤلاء البـاحثون أنّ أجهـزة المخـابرات هـي المخطّـط الرئيسـيّ للقـرار السياسيّ الذي يُتّخذ بناءًا على تقييم وتحليل نصائح هذه الأجهزة، بـل إنّهـا تُعتـبر فـي بعض الأنظمة الحكومة الخفيّة الفعليّة لأنّها تمتلك أدوات العسف والقهر وتمتلك عنصر القوّة والسيطرة، وقد تحدث بعض التغييرات فـي قياداتهـا، ولكـنّ أسـاليب عملهـا تبقـى ثابتة، وتتطوّر برامجها حسب الواقع السياسيّ، حتى تتمكّن من السيطرة الكاملـة علـى الأحداث، فإنّ فشلها يعني نهاية النظام السياسيّ الذي تقوم بحراسـته بـل وسـقوطه فـي أحيان كثيرة.

وقد أخفق العديد من أجهزة المخابرات التي ابتعدت عن التهديدات والمخاطر التـي تواجه الدولة وتفرّغت للدفـاع عـن نظـام الحكم السياسيّ... وبـالرغم ممّـا تملكـه تلـك الأجهزة مـن أدوات قـاهرة وعنيفـة، إلاّ أنّ الغضـب الشـعبيّ فـي حـالات الثـورة أو الانتفاضة كثيرًا ما يواجهها بصمود وجسارة عنيـدة، وبرفـض الـتراجع أو الاستسلام، حيث يكون الهدف واضحًا وهو تحطيم أداة الحكم وإسقاط نظامها السياسيّ، وكثيرًا مـا تنجح الشعوب المقهورة في تحقيق هذه المهمّة.

يطلق على النظام السياسيّ الذي تحتكر فيه أجهزة الأمن والمخابرات العنف بأنّه يجسّد "دولة المخابرات" التي لا تعترف بقواعد وأعراف شرعيّة وأسس بنائيّة الدولة. وهذا لا ينطبق فقط على الأنظمة الشمولية بل وعلى بعض الأنظمة الديمقراطيّة البرلمانيّة التي تعتبر أيّ عمل تعبويّ خارج البرلمان تهديدًا لأمن الدولة وزعزعة لاستقرارها لا بدّ من مواجهته، وهو ما يُعرف بـ"العنف المشروع" من وجهة نظر التشريعات القائمة، لأنّه يوجَّه ضدّ مجموعات شعبيّة من الناقمين على النظام القائم، وذلك ما يحوّل الديمقراطيّة البرلمانيّة إلى نقيضها الدكتاتوريّ المستبدّ من خلال مجموعات من القوانين المقيّدة للحريّات والمنافية لحقوق الإنسان والمنتهكة لحقوق المواطَنة. وهناك إجراءات تتّخذها الأجهزة الأمنيّة والاستخباراتيّة في كلّ نظام سياسيّ تسيطر عليه "دولة المخابرات"، ومنها:

مراقبة أجهزة الإعلام والبريد والهاتف والتنصّت على المحادثات؛ فتح الرسائل والطرود والتعرّف على محتوياتها؛ زرع أجهزة التنصّت لكشف الأسرار والحصول على المعلومات؛ تسلّط وتحكّم الأجهزة البوليسيّة؛ تصنيف المواطنين؛ التحرّك وفق أساليب سريّة وطرق غير مشروعة؛ مقاومة الإضرابات السلميّة للفئات الشعبيّة المختلفة؛ ممارسة الأساليب الاستخباراتيّة ضدّ قيادات الأحزاب والمنظّمات القطاعيّة والشخصيّات المستقلّة؛ تغلغل الجواسيس داخل قطاعات الشعب المختلفة؛ إحكام الرقابة البوليسيّة على كل شيء تقريبًا؛ التأويل لتلفيق الاتّهامات والاعتقالات؛ السيطرة على السلطتين القضائيّة والتنفيذيّة؛ عدم اقتصار رقابتها الإرهابيّة على المواطنين العاديّين بل شمولها الشخصيّات الدستوريّة؛ إسناد السلطة في المناصب الهامّة لعناصر يكنّ كلّ منها العداء للآخر وتعميق العلاقات السيّئة والمتوتّرة بينهم؛ إيداع وسائل تحجيم نشاطات وتحركات المعارضين لصالح النظام وسياساته؛ الفصل والتشريد والإحالة في

القطاع العام لأهل الخبرة والإبقاء على أهل الثقة؛ التورّط في أساليب التعذيب؛ الإغتيالات والقتل بدون محاكمات؛ إتّباع وسائل الإرهاب المتعدّدة لإشاعة الرعب والفزع والخوف...

كثيرًا ما تأكّدت لجان التحقيق من الممارسات الخاطئة وغير القانونيّة للعديد من الأجهزة الأمنيّة والاستخباراتيّة في أكثر من دولة في العالم، فتبيّن أنّها تمارس أعمال غير أخلاقيّة وبعيدة عن الإنسانيّة في استجواب المعتقلين السياسيّين من أصحاب الرأي المعارض أو الناقد أو المخالف لرأي السلطة في قضايا مصيريّة.

وقد أورد باحثون نماذج عمّا اكتشف حدوثه من مثل هذه الحالات، فذكروا أنّه قد يتمّ استجواب المعتقل السياسيّ بلا انقطاع وبدون تناوله أي طعام مع مواصلة ضربه ضربًا مبرّحًا بشكل مستمرّ بالركل وبصفعه على الرقبة وخلف الأذنين وعلى الوجنتين، بالإضافة إلى توجيه ضربات محددة إلى جسده بحيث لا تترك أثرًا، وقرصه في شحمتي الأذنين... أو نزع شعر الشاربين والرأس والصدر... والصفع تحت الأضلاع... واللطم على المعِدة والخصيتين... فيما يكون مقيّد اليدين إلى خلف الظهر... وعندما يفقد المعتقل المستجوَب توازنه يتمّ إكراهه على النهوض ركلاً بالأقدام، مع استمرار الضرب والبصق في وجهه والتهديد بتصفيته جسديًّا. كما أُدخلت أساليب جديدة لم تكن معروفة من قبل، أو على الأقل كانت بعيدة عن المعتقلين السياسيّين، كالتعذيب بالكهرباء، وحبس الأنفاس عن طريق تلبيس الرأس بكيس بلاستيكيّ.. واستخدام تقنيّات من التعذيب لا تترك آثارًا على الجسد، بالإضافة إلى التعذيب النفسيّ والتهديد بالإغتصاب ومنع النوم عن المستجوَب... وهناك قائمة طويلة من الأساليب القذرة في فنون تعذيب السياسيّين، تضمّ الكثير من الأساليب المتعدّدة والمبتكرة، بحيث يتبادل بعض الأجهزة الأمنية خبراته في كيفيّة إذلال المواطنين

الشرفاء، ومعظمهم في أعمار متقدّمة لا يتحمّل أصحابها التعذيب البدنيّ، وكبرياؤهم يرتقي عن الإهانات وممارسة الضغوط النفسيّة عليهم.

كما تلجأ أجهزة الأمن والإستخبارات في بعض الدول لأساليب التمويه والخداع والتفسيرات المزدوجة للأحداث، وكثيرًا ما تدرك بأنّ الخاضعين لوسائل تعذيبها لا علاقة لهم في التهم الموجّهة إليهم، إلا أنّ إرهاب الدولة بواسطة أجهزتها الأمنيّة القمعيّة لا يعفي المشتبه بهم من تناول وجبات التعذيب.

ويتحدّث باحثون عن "اعتقاد أمنيّ" لدى تلك الأجهزة بأن هدم البنية التحتيّة لأيّ تنظيم معارض، لا يقف عند أعضائه القياديّين فقط، بل تشمل قواعده والمتعاطفين معه وحتّى المحايدين بينه وبين تنظيم السلطة الحاكمة، خصوصًا وأنّ دور القضاء يُعتبر دورًا ثانويًّا، واللجوء إليه ليفرض الحماية أو الحكم بالقسطاس مسألة لا تجدي.

ومن أهم الأخطاء التي يقع فيها بعض أجهزة الأمن والإستخبارات عدم معرفة أو إدراك، أو تجاهل الفرق بين العميل وبين الأنسان الذي يؤمن بمبدإ مخالف للنظام السياسي الحاكم، ويسعى لتحقيق هذا المبدإ وفقًا للوسائل السلميّة المتاحة وفي إطار حريّة الإختيار والمحافظة على المصالح الوطنيّة والقوميّة العليا التي تحتكرها السلطة الحاكمة. كما تقوم تلك الأجهزة بإبعاد الآخرين عن تعميق انتمائهم الوطنيّ وتأصيل هذا الانتماء من خلال مواقف وطنيّة مستقلّة عن مواقف أهل الحكم. كما وأنّ إسقاط اتّهام السياسيّين المعارضين بالتعامل مع العملاء والجواسيس والخونة أمر يتجاوز التقديرات السلميّة والمنطقيّة ويعمّق الاشكاليّات التي تحول دون تحقيق الوفاق الوطنيّ عندما تحتّم الضرورة إرساء قواعد الوحدة الوطنيّة لمواجهة الأخطار المدمّرة والمهدّدة للدولة، وفي مقدّمتها الغزو الخارجيّ، أو التمرّدات العنصريّة والانفصاليّة المسلّحة، والأشكال المتعدّدة للحصار أو المواجهة

مع أيّ عدوان خارجيّ، والتي تفرض قناعات بأنّ أمن الوطن هي مسؤوليّة كلّ المواطنين وليس احتكارًا على حزب السلطة أو أدواتها الأمنيّة والعسكريّة حيث تصبح المسألة في مواجهة المهدّدات والمخاطر تتمّ على أسس اجتماعيّة، وليس على القرار السياسيّ فقط، باعتبار أنّ الأسس الاجتماعيّة هي الأشمل والأعمق والأكثر قوّة في مواجهة أيّ عدوان.

ويرى هؤلاء الباحثون أنّ الرؤية المستقبليّة للقراءة الأمنيّة والمخابراتيّة الوطنيّة، لا بدّ وأن تكون من خلال برنامج الحماية والدفاع عن الوطن بشكلٍ كلّيّ وجماعيّ، حتّى يكون العمود الذي من الضروريّ أن يحقّق الانتصار، وهذا لا يعني التراخي أو التنصّل من المسؤوليّات الرسميّة بل السعي الدؤوب لتحقيق العدالة والإمتناع عن ممارسة الأساليب القمعيّة والتعذيب التي لا مبرّر لها، والخالية من أيّ سند قانونيّ، ذلك لأنّ اتّساع دائرة الغضب ضدّ النظام وممارساته التعسفيّة واتّهامه بأنّه أداة لحماية الحاكم وقهر المحكومين، كفيل بأن يزرع حالات الإحباط واللاّمبالاة والتراجع، ودعم المحاولات الخارجيّة التي تريد إسقاط النظام باعتبار أنّه لا يستحقّ الدفاع عنه، وتتحوّل المسألة إلى إفراغ شحنات الغضب والاستياء التي تستفيد منها القوى المعادية للدولة.

ومن أساسيّات دور بعض الأجهزة الأمنيّة العاملة في مجال المخابرات السياسيّة، اختراق الأحزاب السياسيّة وغيرها من المنظّمات المختلفة. وفي بعض الأحيان تتمّ عمليّات الاختراق للحصول على معلومات وأسرار بطرق لا علاقة لها بالقوانين واللوائح والأعراف السائدة، مثل ما قامت به المخابرات البريطانيّة في اختراق مقرّ الحزب الشيوعيّ البريطانيّ والحصول على كلّ ما هو مهمّ من معلومات وأسرار لبرامجه ومخطّطاته وعضويّته العلنيّة والسريّة، ممّا أثّر سلبًا على مسيرة الحزب

وأعاق تطويره وسط الجماهير البريطانيّة، ونجاح خطّة جهاز "MI-5" البريطانيّ في محاصرة ومكافحة النشاط الشيوعيّ وتحجيمه.

وفي كثير من الأحيان يستطيع بعض الأجهزة الأمنيّة تجنيد أعضاء من الأحزاب السياسيّة لمتابعة نشاط تلك الأحزاب، وإجهاض محاولاتها استقطاب عضويّة منتسبين جدد أو وسط جماهيريّ جديد، وإفشال برامجها داخل النقابات والمنظّمات الجماهيريّة المتعدّدة، وكشف العناصر المستقطَبة الجديدة أو السريّة التي تحتلّ مواقع حكوميّة متقدّمة، أو الكيفيّة التي تدير بها مشاريعها الاستثماريّة والشركات التي تشكّل غطاءً للدّعم الماليّ لها، بالإضافة إلى صلاتها الداخليّة والخارجيّة، والأدوار النشطة لعناصرها القياديّة، والمطبوعات السريّة والعلنيّة التي تصدرها ومواقع أجهزة الطباعة وطرق التوزيع وعناصره، وكلّ ما يتعلّق بتكتيكاتها وأساليبها التنظيميّة والإعلاميّة والعامّة، وبالأخصّ مدى انتشارها داخل القوّات العسكريّة والنظاميّة. ولمّا كانت المؤسّسة العسكريّة الوطنيّة هي التي تتمتّع بأهمّ عناصر القوّة في دول العالم الثالث، فهي تصبح المهدّد الخطير لأيّ نظام حكم، لذا تُعتبر عمليّة مراقبة تغلغل وتسلّل الأحزاب السياسيّة داخل القوّات المسلّحة من أهمّ الأعمال التي تقوم بها أجهزة الأمن، وتضع خططها لمحاصرتها، وغالبًا ما يتمّ طرد العناصر العسكريّة المشتبه فيهم أو افتعال مسرحيّة عن اكتشاف مؤامرة عسكريّة لقلب نظام الحكم، يتمّ من خلالها طرد العناصر العسكريّة المشتبه في انتمائها للأحزاب السياسيّة المعارضة، وإذا كانت قدرات أجهزة الأمن والاستخبارات تلك، تجعلها قادرة على احتواء الاضرابات السياسيّة والتحركّات العمّاليّة والطلاّبيّة المناوئة وإخضاع وإفشال أيّ تحرّك سلميّ من النيل من النّظام، إلا أن قدرة تلك الأجهزة تتوقّف عندما يكون الأمر متعلّقًا بتحرّك عسكريّ لإحداث انقلاب على النظام السياسيّ الحاكم، التي تدين

له تلك الأجهزة بالولاء، وترتكب كافّة المعاصي والانتهاكات لحمايته والدفاع عنه، وقد نجح العديد من الانقلابات العسكريّة الوطنيّة في الإطاحة بنظم وأدوات حكم كانت تعتمد على حماية الأجهزة الأمنيّة والاستخباراتيّة ومعزولة تمامًا عن الجماهير، كما نجحت ثورات وانتفاضات شعبيّة للإطاحة بنظم حكم عسكريّة كانت تعتمد أيضًا على دعم الأجهزة الأمنية والاستخبارات، وفاقدة للعمق الشعبيّ ومعزولة عن الجماهير وتأييدها ومساندتها، لأنّها ارتكبت أخطاء التحوّل للمسار الديكتاتوري القمعي.

ويقول الباحثون أنفسهم إنّ بعض أجهزة المخابرات يعيش حالات من التنافس المهنيّ الاحترافيّ المدمّر، حيث تتصادم الأجهزة ببعضها البعض، ويستخدم كلّ منها مهامّات ليست من اختصاصه بالرغم من تحديد الاختصاصات ظاهريًّا، ففي الوقت الذي يحدّد فيه القانون أنّ المخابرات العامّة عسكريّة وليس لها أيّ علاقة بما يخصّ القوّات المسلّحة في خططها واستراتيجيتها، وليس لها علاقة بالاعتقالات السياسيّة، فإنّ أصابعها غالبًا ما تمتدّ لاختصاصات ليست من شأنها. وكذلك الأجهزة الأمنيّة والاستخباراتيّة الأخرى، حيث يتصارع كلّ منها لاثبات الإخلاص والوفاء والالتزام والحماية للنظام الحاكم، والذي يفشل دائمًا في وضع إطار منضبط للتنسيق بين هذه الأجهزة، ولمّا كانت قرارات إنشاء الهيئات الأمنيّة والاستخباراتيّة والاستشاريّات وغرف العمليّات بغرض احتواء هذه الأزمة، فإنّ النظام الحاكم يغمض عينيه عنها باعتبار أنّها في حالات تسابق وتصارع من أجل حمايته. أمّا عمليّة التنسيق على مستوى مدراء ورؤساء الأجهزة فأمر ثانويّ، إذ إنّ الاهتمام يصبح في الارتباط المباشر والفرديّ لرؤساء ومدراء هذه الأجهزة بالحاكم المنتشي بأن الجميع يهرولون لخدمته والحفاظ على نظام حكمه وسلطته.

تتضارب التفسيرات وتتشابك عند تحديد المهامّ الوطنيّة للأجهزة الأمنيّة: هل تقتصر على التبعيّة الدائمة والملزمة للحاكم ونظام حكمه مهما قام بمخالفة الدستور، وذلك من خلال انتهاك الحريّات ودعم مؤسّسة حكم الفرد ومقاومة كافّة العناصر المعارضة له، باستعمال الأساليب الإرهابيّة التي من شأنها إشاعة الفزع والهلع بين صفوف الشعب، حتى يتمكّن نظام الحكم من السيطرة التامّة، رغم أنّها تلعب دورًا في إفساد العمل السياسيّ، والتحوّل نحو ممارسة ديمقراطيّة أفضل. فإنّ تزوير الانتخابات، ومساندة ودعم مرشّحي السلطة ضدّ معارضيهم، حقائق معروفة عن هذه الأجهزة في غير دولة، كذلك إجادتها تلفيق الاتّهامات والتأويل وإطلاق الشائعات من أجل عزل العناصر التي تخشى من منافستها لعناصر الحزب الحاكم، وفي أكثر من انتخابات برلمانيّة أُعيدت انتخابات بعض الدوائر التي لمستها يد الإفساد والتشويه، واتُّهمت عناصر من الأجهزة الأمنيّة بتدبير التزوير والتدليس والتزييف في نتائج الانتخابات.

فإنّ عدم حياد الأجهزة الأمنيّة والاستخباراتيّة في أوقات كثيرة وتلويث أدائها بمناصرة فريق ضدّ آخر، من خلال الإصرار على القيام بمخالفات قانونيّة باعتبار أنّها بعيدة عن المساءلة والمحاسبة، وأنّها مطلقة اليد، تعبث بأيّ ثوابت وطنيّة وتقلّل من الاستنفاع بأيّ مزايا، وتغلق أبواب الانفتاح السياسيّ، وتمنع الممارسات الحقيقية لحريّة التعبير والتنظيم كمداخل لممارسة ديمقراطيّة حقيقيّة تتجاوز حقّ التعبير والتنظيم إلى حقّ المشاركة في اتّخاذ القرار السياسيّ ومراقبة تنفيذه، كل هذا يعود بالضرر على النظام السياسيّ ويزيد من عزلته واتّهامه بعدم الجديّة في تنفيذ الاصلاحات الديمقراطيّة المعلنة، حيث تستمرّ عمليّة فقدان الثقة بين الحاكم والمحكومين. ومن هذا القبيل تزوير انتخابات رئاسة الجمهوريّة التي أصبحت من الأمور الطبيعيّة التي تمارس كلّ بضع سنوات في بعض البلدان.

ويعتبر البعض أنّ العلاقة المباشرة بين رئيس المخابرات مع رئيس الدولة في كثير من دول العالم، يجعل دور الأجهزة الأمنيّة والاستخباراتيّة فيها أقوى من دور التنظيم السياسيّ الحاكم. ويكون اعتماد الحاكم على هذه الأجهزة أكبر من اعتماده على شعبيّة الحزب الحاكم التي لا تُحشد إلاّ في العمليّات الانتخابيّة، ويصبح من مهامّ الأجهزة الأمنيّة العمل السياسي السريّ وفقًا لأساليبها بما تملكه من قدرة حركيّة عالية وأفراد مدرّبين على تنفيذ مهامّ بعينها.

وكثيرًا ما تفتعل الأجهزة الأمنيّة، في بعض الأنظمة، تظاهرات ومواكب، وخصوصًا في أوقات الرفض الشعبيّ لدعوات السلطة بالتعبير عن رأيها أو دعم مواقفها في أيّ من القضايا الداخليّة أو الخارجيّة. وقد شهدت ساحات بعض دول العالم الثالث العديد من التظاهرات والمواكب والاعتصامات وبعض أعمال الشغب المصنوعة بدقّة ومهارة، وكأنّها تعبير شعبيّ رافض أو مؤيد لموقف ما... إلاّ أنّ افتعال تلك الأجهزة الأمنيّة مواقف شعبيّة غالبًا ما يكون مكشوفًا، لاختلاف تركيبة وبنائيّة العنصر السياسيّ وقدراته المتنوّعة وإبداعاته وتربيته على ممارسة العمل السياسيّ، وبكلام آخر، فإنّ مواكب وتظاهرات السلطة تختلف عن المواكب والتظاهرات الشعبيّة الطبيعيّة، حتى إذا تعالى الغضب الشعبيّ ومارس بعض العناصر عمليّات تخريب وتحطيم لبعض المنشآت، فهي إذ ذاك تصبح مختلفة في أهدافها، في حساب الأجهزة الأمنيّة، عمّا تكون عليه في حال ممارستها هي نفسها من قبل عناصر الأجهزة الأمنيّة.

في المقابل، نجد أنّ المؤسسة العسكريّة الوطنيّة قد تمكّنت من أن تحدّد دورها في الدفاع عن الوطن وحمايته من أي اعتداء خارجيّ، والسيطرة التامّة للحفاظ على الوحدة العضويّة للأرض والشعب. ونجد أنّ استراتيجيّتها في مواجهة الأعداء

الخارجيّين تكمن في أنّها توقف أنشطة دول الجوار ذات الأطماع التوسّعية. وهي لا تعتبر نفسها مسؤولة عن مواجهة المعارضة السياسيّة الداخليّة للنظام، فحمايتها للدولة وعقيدتها القتاليّة مرتبطة بالدفاع عن المصالح الوطنيّة والقوميّة العليا. وفي اعتبارها أنّ هناك أجهزة أمنيّة ومخابراتيّة من مهامّها الحفاظ على الاستقرار والأمن الداخليَّين... لذا فقد توسّعت الأجهزة الأمنيّة في بناء وتكوين وحدات عسكريّة قتاليّة ذات تدريب متقدّم وتسلّح حديث وامكانَات ماديّة لم تكن متوفّرة في السابق لأجهزة الشرطة. إلاّ أنّه قد أصبح، في حالات كثيرة، من مهامّ هذه القوّات التصدّي للتظاهرات والمواكب السلميّة وتفريقها وفقًا لما هو متعارف عليه قانونًا في مثل هذه الحالات. إلاّ أنّ بعض هذه القوّات، وفي سبيل القيام بأعمال استعراض القوّة، تتجاوز أحيانًا دورها في الحفاظ والدفاع عن الأمن إلى حالات هجوميّة بعتادها وأسلحتها داخل الجامعات وفي مواقع سكن الطلاب والطالبات، وفي الشوارع والأسواق، بطرق ووسائل شرسة وقمعيّة، وبدون تحديد لأهدافها، إنما عن طريق تطويق الأمكنة والاعتداء على من فيها عشوائيًّا... مما تترتّب عليه أحيانًا خسائر كثيرة في الأرواح، وإصابات... وتدمير منشآت ومرافق، وإشاعة حالة من الرعب لا مبرّر لها، مما يغرق الحكم في مساءلات وقضايا وبلاغات واحتجاجات ومطالبة بتعويضات، ويصعّد العداء ضدّه باعتباره من النظم الإرهابيّة القمعيّة. وكعادة الأنظمة المتشبّثة بالحكم، يكون هناك دائمًا من يضحّون به من وزرائهم باعتباره المسؤول عن هذه التجاوزات التي يدينها النظام ويتبرّأ منها.

تحتكر المخابرات في بعض الأنظمة العمل الأمنيّ، إذ تكون لديها عناصر احتراف هذا العمل، مع أنّ مهمة الحفاظ على الأمن الوطنيّ والقوميّ، كما يرى البعض، هي مهمّة اجتماعيّة مرتبطة باستقرار الناس وتأمين معيشتهم بكلّ سبلها وبقائهم بعيدًا عن

أطماع الآخرين... لذلك تكون مسؤوليّة كلّ مواطن ومواطنة، وإن كانت الضرورات لأداء المهمّة تتطلّب بناء مؤسّسات أمنيّة ذات كفاءة وقدرة وخبرات عالية لإنجاز تلك المهامّ الوطنيّة الجليلة التي تهدف إليه الأعمال الأمنيّة والاستخباراتيّة، إلاّ أنّ ذلك لا يعني استبعاد جموع الشعب عن التعرّف على الوعي الأمنيّ وممارسته حتّى ولو كان في أبسط صوره، لأنّ ذلك سيكون من المساهمات الوطنيّة ذات الدوافع المرتبطة بالمصالح العليا.

ذلك لأنّ الأمن القوميّ، في مفهومه الحقيقيّ، يعني التنمية والأمن، ما ليس نشاطًا عسكريًّا تقليديًّا، وبغير التنمية لن يكون هناك أمن. وكلّما تقدّمت التنمية تقدّم الأمن، واستطاع المواطن أن ينظّم موارده لكي يوفّر لنفسه ما يحتاجه ويتوقّعه لحمايته، وأن يتعلّم كيف يوفّق، بطريقة سلميّة، بين المطالب المتنافسة للمصلحة القوميّة العليا، بحيث تصبح قوّة الدولة في ممارسة السلطة لا تعني فرض السيطرة عن طريق التسلّط بل ممارسة السلطات داخل الدولة وفقًا لقواعد الانضباط والالتزام الجماعي والاجتماعي داخل المجتمع. ويصبح الدور الطبيعيّ للأجهزة الأمنيّة والاستخباراتيّة الدفاع عن الأمن الوطنيّ للدولة والنظام الأقليميّ القوميّ، وحماية قيمها الداخليّة، والدفاع عن سيادة الدولة ضدّ التهديدات الخارجيّة، والحماية والدفاع ضدّ كافّة أشكال الاعتداء الخارجيّ، وذلك يشمل مكافحة الجاسوسية وأعمال الاستطلاع العدائيّة والتخريب والدمار وكافّة الأعمال الإرهابيّة وكل أنواع التأثيرات المعادية الأخرى. ومن الطبيعيّ أن يدعم المواطن هذا الدور الوطنيّ برفع قدرة الدولة العسكريّة والاقتصاديّة والسياسية والتكنولوجيّة والإداريّة... وأن تختفي المقاومة العنيفة للنظام السياسيّ، إذ يدرك المواطن أنّ من حقّ الشعب تداول السلطة والسيطرة عليها لحماية مكاسبه والدفاع عن وجوده ورسم خطط مستقبله، وبذلك تزول المفاهيم المتبقّية

الموروثة حول أنّ مهمّة الأمن إهانة المواطن وتحقيره وإرهابه لصالح الصفوة الحاكمة.

ولعلّ بعض التجاوزات، في ما يقوم به بعض الأجهزة الإستخباراتيّة، يسبّب حرجًا للسلطة، كأن تقوم الأجهزة الأمنيّة ببعض التدابير والإجراءات متجاوزة حالة الردع وأهدافه ومداه الطبيعيّ، باتّباع وسائل ليست شرعيّة أو إنسانيّة كأعمال التعذيب والقتل والتنكيل... لذا لا بدّ من وضع حدّ لهذا السلوك ومحاسبة مرتكبيه مهما كانت مبرّرات مسلكهم، إذ من المهمّ أن ينشأ الأمن والمخابرات بقانون غير سرّي، وأن يكون الجهاز جزءًا من الإدارة المركزيّة، منعًا للشائعات التي تستشري حول أهدافه وأسلوبه في العمل، وحول وجود أجهزة سريّة تعمل في الخفاء، لأنّ مثل هذه الشائعات تعرقل تعاون المواطنين مع جهاز الدولة الرسميّ حيث من المفترض أن تلتزم أجهزة الأمن والمخابرات بحدود التشريع إزاء المواطنين والرعايا الأجانب، وأن تراعي حريّاتهم في الخصوصيّة والمال والعرض والنفس.. وأن تسلك مع الناس سلوكًا يشعرهم بأنّها ليست من أجهزة الاستبداد والعسف، ولكنّها من الأجهزة التي تخدم أهدافًا سامية ونبيلة.

ويرى البعض أنّه لمّا كانت مهامّ أجهزة الأمن والاستخبارات تشمل الكثير من المغريات بما قد يسبّب انحرافات خطيرة لدى العاملين فيها، فينبغي تشكيل قوة سريّة مهمّتها مراقبة الأفراد العاملين بالجهاز، والتحقيق معهم، حينما يبدو هناك شبه انحرافات ماليّة أو أخلاقيّة أو أمنيّة، تحقيقًا يُحاط بقدر عال من السريّة، تُطبّق بعدها قوانين رادعة تحاسب وتعالج حالات التجاوز من قبل العاملين. ولا بدّ من ابتداع أسلوب رقابة صارم حتّى لا تحتكر الأجهزة الأمنيّة والاستخباراتيّة المعلومات وتؤسس عليها وحدها الرأي والنصح لصنّاع القرار، ممّا يجعلهم أمام خيارات محدودة. وينبغي

أن يحدَّد الأسلوب المتّبع في وسائل الوقاية على إجراء الأمن وعمليّاته، والمميّزات الماليّة المخصّصة واستقلالها واستغلالها بالشكل الأمثل، ومراجعة الأهداف الموضوعة ومدى النجاح في تحقيق ذلك، ومحاسبة المسؤولين عن الانحراف عمّا هو مقرّر، مع المحافظة التامّة على أمن المعلومات، ومراعاة الحيطة والحذر عند مراجعة ومناقشة أعمال وأداء الأجهزة الأمنيّة على أن يجري كلّ ذلك في جلسات سريّة للغاية[1].

***

في مواجهة اختراقات أجهزة الأمن والاستخبارات للأحزاب والحركات والتنظيمات السياسيّة الحاكمة أو المعارضة، حاول بعض الأحزاب ذات التركيبة التنظيميّة الملتزمة أن يواجه هذا الخطر، مع فارق الامكانات والإعداد والتدريب... فبرزت شعَب ودوائر ولجان العمل الرقابيّ والأمنيّ داخل بعض التكتّلات السياسيّة لمواجهة الاختراقات الأمنيّة ومراقبة سلوك العناصر القياديّة، وجرى في بعض الأحيان تجنيد مجموعات مدرّبة على العمل العسكريّ لحراسة هذه القيادات وملازمتها في تحرّكاتها للدفاع عنها ولردّ أي محاولة عدوان أو محاولة اغتيال قد تتعرّض لها، في الوقت الذي أصبحت فيه العمليّات الإرهابيّة والاغتيالات السياسيّة والتصفيات الجسديّة من المهدّدات التي تواجه القادة السياسيّين في مواقعهم المختلفة، يمينًا ويسارًا بدون فرز، وهذا ما أضاف عبئًا أمنيًا جديدًا على الساحة السياسيّة، يرهق الأجهزة الأمنية المسؤولة عن سلامة وأمن واستقرار المواطنين، وخصوصًا القيادات السياسيّة والاجتماعيّة التي من شأن تعرّض أيّ منها للإغتيال، أن يوجّه التهمة مباشرة لأجهزة الأمن والاستخبارات بدون تردّد.

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٣٥٩ ـ ٣٧٢.

وقد يُنشئ بعض التنظيمات فرقًا سريّة للقيام بأعمال العنف، سرعان ما تنزلق في عمليات إرهابيّة، يترتب عليه إفساد الحياة السياسيّة وانتشار أساليب العنف والعنف المضاد. وقد استغلّ بعض الحركات السياسيّة اشتعال بعض الفتن الطائفيّة والصراعات العنصريّة والحروب الأهليّة والقبليّة وتورّطت في أعمال شبه عسكريّة، باعتبار أنّها تردّ على عنف أدوات السلطة واحتكارها للقوة المسلحة.

وعندما تشتدّ المواجهة بين النظام والمعارضة، تصبح الأجهزة الأمنيّة الاستخباراتيّة هي المسؤولة عن تحجيم العمل المعارض. وغالبًا ما تكون مطلقة اليد، في هذا المجال، ودون رقيب، لأنّها تقوم بمهمّة حماية النظام من السقوط وإجهاض كافة محاولات الاستيلاء على السلطة من قبل المعارضين، حيث تتوسّع حلقات العمل العنيف وتتشعّب...

وإذ يحاول بعض الحركات السياسيّة تأمين بقائه وحماية كيانه، كان لا بدّ له من أن يتحوّل شعبًا ودوائر عمل للرقابة والمتابعة الحزبيّة... ومن ثمّ تكون نواة لتنظيم شبه عسكريّ على شكل مليشيات منفصلة عن التنظيم السياسيّ، وهي ما يطلق عليها غالبًا إسم "الجهاز السرّي". علمًا بأنّ الكوارث والنكبات والانتكاسات التي تتسبّب فيها الأجهزة السريّة للأحزاب تؤدي دائمًا لانتحار التنظيم السياسيّ واضمحلاله... فإنّ أعمال الجهاز السرّي للحزب، في حالة الفشل والكشف عنها، يدفع ثمنها الكادر السياسيّ القياديّ العلنيّ للحزب، إذ إنّه من السهل أن تربط الأجهزة الأمنية والاستخباراتيّة بين الجهاز السرّي والتنظيم العلنيّ. فكثيرًا من الانقلابات العسكريّة الفاشلة التي يديرها وينفذها عسكريّون راح ضحيتها سياسيّون أعدموا أحيانًا بتهمة أنّهم "قادة العمل السياسيّ"، فهم بالضرورة يدركون ما ينفّذه الجهاز السرّي في تنظيمهم من برامج وتوجّهات. كذلك أعدم العديد من القيادات السياسيّة عندما نفّذت "الأجهزة

السريّة" محاولات اغتيال فاشلة... إضافة إلى أنّ العنف المتبادل بين "الإرهاب السياسيّ" و"الإرهاب الأمنيّ" ينتج عنه وقوع ضحايا من الطرفين ومن آخرين ليست لهم علاقة بالمتخاصمين سياسيًا، ويصبح من العسير الوصول لحلول توفيقيّة ومصالحات وتفاهم مشترك، حتّى ولو كانت المصالح الوطنيّة والقوميّة العليا للدولة مهدّدة، خصوصًا عندما يتمسّك كلّ فريق بضرورة تصفية الفريق الآخر، وتدخل عوامل خارجيّة كثيرة لتعميق الخلافات والابتعاد عن الحلول، حيث تتقلّص الفرص المتاحة للعمل السياسيّ السلميّ... وينتشر الرعب والهلع والخوف والفزع، ليس بسبب ممارسة الأجهزة الأمنيّة والاستخباراتيّة في ما يُسمّى "إرهاب الدولة" فحسب، بل وبسبب ممارسة الأجهزة السريّة للأحزاب العمل المسلّح والعنف لتصفية الخصوم ومواجهة النظام بالعنف والعمليّات الانتحاريّة أحيانًا.

***

تبقى سيادة القانون المحكّ الرئيسيّ لاختبار الأجهزة الأمنيّة والمخابراتيّة الوطنيّة، فالحاجة ضروريّة وماسّة لبقاء هذه الأجهزة وتطويرها لمواجهة المهدّدات والمخاطر التي تتعرّض لها البلاد، وأن تتمتّع بخبرات وكفاءات ومستوى أداء رفيع في مواجهة ومكافحة التجسّس وحماية الأمن القوميّ، إلاّ أن تلاعب بعض المتربّعين على عرش السلطة ومحاولاتهم المتواصلة لاحتواء تلك الأجهزة الوطنيّة واعتبارها أدوات حماية للصفوة الحاكمة في مواجهة الشعب، أمر لا بدّ وأن يتحدّد دستوريًا. ويُعدّ حياد هذه الأجهزة في مسألة الصراع على السلطة من الثوابت الوطنيّة التي لا يجوز الانحراف عنها. هذا ما يجعل بعض الأجهزة الأمنيّة الوطنيّة في بعض الدول، بحاجة لانتقال نوعيّ وانعتاق من دائرة "إرهاب السلطة" وأدوات القهر والتعسّف والتسلّط، إلى أجهزة أمن واستخبارات وطنيّة مهمّتها حماية الوطن والدفاع عنه ضد أيٍّ من أنواع

الاختراقات والمؤامرات الأجنبيّة، وحمايـة المصـالح الوطنيّـة والقوميّـة العليـا، وتـأمين حياة النـاس وممتلكـاتهم وأسـاليب معيشـتهم... فـإنّ الدعـوة إلـى الديمقراطيّـة تبـدأ أوّلاً بممارسة الأجهزة الأمنيّة والاستخباراتيّة للأسـاليب الدسـتوريّة والقانونيّـة والتشـريعيّة. وفي هذه الحالة، ينتهي نفوذ الأجهزة الأمنية الاستخباراتيّة كحزب سياسيّ سريّ حـاكم يمتلك كافّة أدوات العنف والقهر والتعذيب والاعتقال والاغتيال ... هدفـه حمايـة الفـرد الحاكم، ومن حوله صفوة "النبلاء"، من خلال ممارسـة كافّـة أنـواع التـآمر والضربـات القذرة، ضاربًا عـرض الحـائط بمصـالح المواطنيـن، وهـم بـأمسّ الحاجـة للأمـن والاستقرار...

هـذه النقلـة النوعيّـة، فـي بعـض الأنظمـة، تكـون ملحّـة لدعـم الاسـتقرار، وإيقـاف التدهور، وإشاعة السلام، وإعادة الحياة للعرف الاجتماعيّ الإيجابيّ، وخلق المصداقيّـة بين المحكوم والحاكم، وإنعاش النظرة المستقبليّة حول العمل السياسيّ والأحزاب. وهذا ما شأنه أن ينمّي الشعور الوطنيّ بأنّ الحالة الراهنة ليست نهاية المطـاف... بـل هنـاك طريق يؤمل من سلوكه الاستقرار والازدهـار، وتحقيـق المشـروع النهضـويّ، وكسـر احتكار السلطة والثروة والقوّة، وتطبيق ديمقراطيّـة صـحيحـة، بعـد إلغـاء أدوات القهـر والعسف، وتسلّط الدولة التقليديّة التي هي سبب مأساة الإنسانيّة إذ إنّها العـامل الأسـاس في تعميق أزمة الصراع على الحكم[١].

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٣٧٣ ـ ٣٧٦.

تخطّي الحُدود

إذا صارت الاستخبارات، كتعبير شامل، جزءًا أساسيًا ضروريًّا من الإدارة العامّة لأيّ بلد، فما هو مبلغ فعلها وتفاعلها مع التخطيط العام المرسوم دستوريًّا لهذا البلد؟

عند هذه النقطة، تكثر الخلافات في الرأي وتتوسّع آفاق المناقشات.

المفروض أن تكون الاستخبارات واحدة من أجهزة الدولة وإدارتها، والمفروض أن تعمل هذه الاستخبارات بموجب التخطيط أو الهيكل العامّ الذي وضعته الدولة لعملها.

الاستخبارات، برجالها، جزء من المجتمع. فإلى أيّ حدّ تعتبر هذه القوّة السريّة نفسها قادرة على لجم نفسها، وهي على ما هي عليه من حريّة في التصرّف، حسبما كفل لها القانون ذلك؟

في أكبر الدول الغربيّة أمثال متكاثرة على مدى الفضيحة التي يغرق فيها النظام بسبب حريّة التصرّف عند استخباراتها التي فاقت المعقول في تفسير مدى مسؤوليّاتها.

في الدول الشرقيّة أمثال على حالات كثيرة كانت فيها الاستخبارات أشبه بالهيئة الحاكمة، بل وكذلك المتحكّمة، بسائر المواطنين.

وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة رتّبت مؤامرات على عدد وفير من دول العالم إلى حدّ أنّ البيت الأبيض وجد نفسه ملزمًا، في عدد وفير من المرّات، بإصدار بيانات متناقضة حول مدى معرفته بهذه المؤامرات وتبنّيه لها. الاستخبارات البريطانيّة

كانت لها فضائح مماثلة وكذلك الاستخبارات الفرنسيّة. أمّا الاستخبارات السوفياتيّة، التي كانت ذات يوم جهازًا واحدًا مع الشرطة السريّة الداخليّة، فكانت هي العنصر الأوّل في التنكيل والذبح خلال عمليّات ترسيخ النظام، وفي القضاء على الخصوم الداخليّين، أو في عمليّات التطهير التي ذهب ضحيّتها ملايين البشر في أواسط ثلاثينات القرن العشرين.

...هل كانت هذه التصرّفات في الغرب والشرق من تخطيط الاستخبارات وحدها، أم أنّ الاستخبارات كانت تتلقّى الأوامر بما كانت تقوم به؟

الأوامر، ولا شكّ، أُعطيت بشكل من الأشكال. الاستخبارات راحت تتصرّف بما لها من قوّة سريّة رهيبة، وتضيف تفسيراتها ووسائلها هي في السرّ على خطّ لم يرسمه لها الآمر الأوّل أو المسؤول الأوّل في الدولة.

الأمثلة على ذلك كثيرة. هذا السؤال مطروح، ليس في الدول الكبرى من شرقيّة وغربيّة فحسب، بل كذلك من دول العالم الثالث حيث تأخذ المسألة أبعادًا رهيبة.

في ٩٩,٩٩ بالمئة من دول العالم الثالث يُعتبر السؤال مطروحًا. هل الحاكم هو الذي يأمر الاستخبارات أم أنّ الاستخبارات هي التي تتحكّم بالحاكم، أو بالحكم، أو بالنظام من وراء الحاكم؟ كثيرون من مفكّري هذه الدول طرحوا هذا السؤال وعرفوا له جوابًا، لكنّهم كانوا عاجزين عن التحرّك وطرح المسألة للنقاش العام.

ليس أسهل على الاستخبارات، في الكثرة الساحقة من دول العالم الثالث، من أن تسيطر على وسائل الإعلام من تلفزيونيّة وإذاعيّة وصحافيّة، وليس أسهل عليها من شراء أصحاب العلاقة كبارًا وصغارًا، وليس أسهل عليها من إقناع هؤلاء بأنّ ما يفعلونه لمصلحتها إنّما هو العمل المفيد لمصلحة البلاد ككلّ.

هذا الارتداد إلى داخل، كان بالنسبة إلى الاستخبارات القائمة في بعض دول العالم الثالث بمثابة متنفّس لها لإثبات وجودها. أكثر دول العالم الثالث ليس قادرًا، لا ماليًّا ولا أدبيًّا، على ملاحقة شؤون غيرها مهما بلغت بها الحاجة إلى ذلك. إستخباراتها في هذه الحال تتحوّل من عنصر يلاحق العدوّ الخارجيّ إلى عنصر ينكّل بالخصم الداخليّ.

وتتطوّر الأمور وتتحوّل الاستخبارات من عنصر تنكيل لحساب غيرها إلى هيئة شبه مستقلّة تفتح دكّانها على حسابها من أجل التنكيل والتحكّم إلى الحدّ الذي يصبح فيه "أعيان البلاد ووجهاؤها" مأمورين عندها يأتمرون بأوامرها وينفّذون ما تريده منهم ويصيحون باسمها كلّما هزّت لهم العصا[1]...

---

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ص٣٥ ـ ٣٦.

الأمنُ القوميُّ ومهدّداته [1]

تعدّدت تعريفات الأمن القوميّ، ومنها أنّه يهدف إلى تأمين أمن الدولة من الداخل، ودفع التهديدات الخارجيّة بما يكفل لشعبها حياة مستقرّة توفّر له استغلال أقصى طاقة ممكنة للنهوض والتقدّم والإزدهار.

ومع اختلاف المفاهيم نجد الجميع متّفقين على أنّ التقدّم العلميّ والتكنولوجيّ المذهل الذي يسود عالم اليوم قد غيّر كثيرًا من المفاهيم التي كانت سائدة في الماضي، وبالتالي لم يعد الأمن القوميّ يستند على القوّة العسكريّة فقط بإعتبارها كلّ ما يلزم لتحقيقه وحمايته.. بل تعداها إلى مجالات أخرى متعدّدة، وأصبح الأمن القوميّ حاليًّا يشمل: ١) الأمن العسكريّ؛ ٢) الأمن السياسيّ؛ ٣) الأمن الاقتصاديّ؛ ٤) الأمن الجنائيّ؛ و٥) الأمن الصناعيّ.

وقد تعدّدت الحلقات وتداخلت وتشابكت لتفرز في النهاية "أمن الدولة"، وخلاصة ذلك أنّ أبسط تعريف للأمن القوميّ هو:

الإجراءات التي توفّر الاستقرار داخليًا، وحماية المصالح خارجيًا، مع استمرار التنمية الشاملة التي تهدف إلى تحقيق الأمن والرفاهية والرخاء للشعب.

---

١ ـ عن: صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة.

وإذا كان مفهوم الأمن القوميّ يختلف من عهد لآخر، ومن نظام لنظام آخر، إلاّ أنّه يستوجب بالضرورة توضيح مبدأين للأمن القوميّ، أحدهما ثابت، والآخر متغيّر.

فالمبدأ الثابت يرتبط بسلامة أراضي الدولة بغض النظر عن النظام السياسيّ القائم بها؛ أمّا المبدأ المتغير فيعتمد على التنسيق الجيّد بين قوى الدولة السياسيّة والدبلوماسيّة والاقتصاديّة والمعنويّة والعسكريّة لتحقيق تطوّر ونموّ تلك القوى الخمس، بحيث تدعم كل قوّة باقي القوى الأخرى، وليس بأن تنمو واحدة على حساب الأخرى. بمعنى أنّ القوّة الاقتصاديّة تعطي للدولة المقدرة على بناء قوّتها العسكريّة ورسم سياستها الداخليّة والخارجيّة. والقوّة الدبلوماسيّة لا تنجح ما لم ترتكز على قدرة عسكريّة مناسبة واقتصاد قويّ ومجتمع متماسك، أي أنّ الأمن القوميّ لأي دولة هو نقطة إلتقاء السياستَين الداخليّة والخارجيّة. أمّا القدرة العسكريّة فتشكّل الإطار العامّ، أي المظلّة الواقية التي تعطي الأمان داخليًا وخارجيًا للقدرات الأخرى للدولة، لتنمو وتتطوّر لتحقيق الأمن القوميّ.

أمّا بالنسبة لعلاقة الأمن القوميّ بالمصلحة القوميّة، فإنّ المصلحة القوميّة، كأداة تحليليّة، تُستخدم لوصف وشرح وتقييم مصادر وكفاءة السياسة الخارجيّة لدولة ما، أمّا المصلحة القوميّة كأداة للعمل السياسيّ، فإنّها توظّف لتبرير أو استنكار أو اقتراح سياسة ما، وهي تقرّر السياسة الخارجيّة التي يتمّ رسمها لتعزيز مصالح الأمّة مجتمعة وليس فقط مصالح كل فرد على حدة. كما أنها تشكّل الاحتياجات الضروريّة للدولة متضمّنة الحماية الذاتيّة، أي حماية كيان الدولة، واستقلالها، وسلامة أراضيها، وأمنها العسكريّ، ورفاهيّتها الاقتصاديّة، لذا فهناك نفس التعدّد والاختلاف في العلاقة بين الأمن القوميّ والمصلحة القوميّة. فهناك اتّجاه يستخدم كلا المفهومَين كمرادف للآخر، وهناك اتّجاه آخر يرى وجود علاقة تأثير متبادل بين المفهومَين... فنظريّة الأمن

القوميّ لدولة ما، تعكس مصلحتها القوميّة، كما ينطلق تحديد المصلحة القوميّة من مفهوم واضح لأمنها، وما يمكن أن يشكّل خطرًا أو تهديدًا لهذا الأمن. وهناك اتّجاه ثالث يرى الأمن القومي كأحد دوائر المصلحة القوميّة، وكجزئيّة منها، بمعنى أنّ الأمن القوميّ يمثّل تلك المصالح الحيويّة التي لا يمكن المساومة عليها.

ويتحدّث باحثون عن "علاقة الأمن القومي" بـ"الاستراتيجيّة القوميّة" للدولة، على أنّ المقصود بالاستراتيجيّة أساسًا: فنّ القيادة. وقد تعدّدت تعريفات الاستراتيجيّة: من التركيز على الجانب العسكريّ، إلى مفهوم الجانب الشموليّ لها، بحيث أصبحت الاستراتيجيّة هي تلك العمليّة التي يتمّ فيها الصهر الكامل لكلّ مصادر القوّة في البنية السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة للدولة، لتحقيق المصلحة القوميّة المتاحة، تحت جميع الظروف، لانتاج أقصى سيطرة ممكنة على العدوّ عن طريق التهديدات، بهدف تحقيق مصالح الأمن القومي للدولة.

وجاء في تعريف آخر للاستراتيجيّة القوميّة بأنّها مجموعة من الأفكار المعبّرة عن وجهة نظر الدولة الرسميّة المتعلّقة بالمسائل والقواعد الأساسيّة للصراع المسلّح، المتضمّنة لطبيعة الحرب من وجهة نظرها، وطرق إدارتها، والأسس الجوهريّة لإعداد البلاد والقوّات المسلّحة لمواجهتها... فهي منظومة الأساليب والوسائل العلميّة القائمة على الاستخدام الأمثل للقوى والمصادر القوميّة المختلفة لتحقيق أهداف الأمن القوميّ.

ويرى باحثون أنّ هناك أربعة أبعاد رئيسيّة في مفهوم الاستراتيجية القوميّة هي: ١) مجموعة الخطط والمبادئ التي تحدّد الأهداف القوميّة للدولة، والتي تصاغ على هدي مبادئ الأمن القوميّ واعتباراته؛ ٢) ضرورة توافر القيادة القادرة على إدارة هذه الخطط؛ ٣) إنّ هذه المبادئ ليست مطلقة وإنّما تتحدّد على أساس قوّة الدولة المتاحة

وقدراتها في كافّة المجالات؛ ٤) إنّ تلك المبادئ والخطط تتشكّل على هدي طبيعة النظام الدوليّ المعاصر.

ومن كل ما سبق، فإنّ الاستراتيجيّة القوميّة تجسّد مفهوم الأمن القوميّ، كما أنّ الاستراتيجيّة، بما تتضمّنه من خطط ومبادئ، تعكس مكوّنات الأمن القوميّ.

الأمنُ القوميُّ كغَاية

يرى باحثون أنّ نقطة البداية في صياغة مفهوم الأمن، هي اكتشافها مواقع القوّة لاستغلالها، ومواضع الضعف لتجنّبها، من خلال ثلاثة موضوعات هي: ١) عناصر قوّة الأمن القوميّ؛ ٢) عناصر تهديد الأمن القوميّ؛ ٣) خصائص مفهوم الأمن القوميّ.

أمّا الجوهر العام لهذه العناصر فيفصّل كالآتي:

أ ـ عناصر القوة، تعني تلك الأسس التي تشارك في تحديد الأمن القوميّ للدولة، وتمثّل قاعدة عمل لها ويمكن تحديدها في: ١) العنصر الجيوبولتيكيّ والاستراتيجيّ؛ ٢) العنصر الديموغرافيّ، أي الاجتماعيّ والنفسيّ والإيدولوجيّ؛ العنصر السياسيّ، الداخليّ ـ الإقليميّ ـ الدوليّ؛ ٤) العنصر الاقتصاديّ؛ ٥) العنصر العسكريّ.

ب ـ في حين أنّ عناصر التهديد في كلّ ما من شأنه تهديد القيم الداخليّة للدولة وكيانها بفعل عوامل داخليّة أو عوامل خارجيّة، هي عوامل تشكّل جوانب الضعف في كيان الدولة، ويمكن أن تستغلّها القوى المعادية لتهديد الأمن القوميّ للدولة.

ج ـ والأمن القومي للدولة ينبع أساسًا من معرفتها لمصادر قوّتها ونقاط ضعفها، والعمل على تنمية مصادر القوّة والتغلب على عوامل الضعف.

عناصر قوّة الأمن القومي

أ ـ العنصر الجيوبولتيكيّ: ما زالت الطبيعة الجيوبولتيكيّة للدولة ذات أهميّة قصوى بالنسبة لسياسات الأمن القومي وأهمّها: ١) الحجم والشكل: ويتمّ التعرّف على حجم وشكل الدولة والعلاقة بين الحجم والشكل والعمق ومدى تأثيرها على تنظيم الدفاع عن العمق[١]، والتماسك السياسيّ والاقتصاديّ والنقل والمواصلات؛ ٢) التضاريس ومدى وجود موانع طبيعيّة في مناطق الحدود، ومدى وجود حماية طبيعيّة للمناطق الحيوية؛ ٣) الموقع النسبيّ للدولة ومدى علاقاتها بالدول المجاورة ومنافذها على البرّ والبحر، وتأثير ذلك على التجارة والنقل وأهميّة موقع الدولة بالنسبة للدول ذات المصالح الحيويّة في المنطقة.

ب ـ العنصر الديموغرافي "الاجتماعي": يلعب العامل البشري دورًا أساسيًّا في الأمن القوميّ لأيّ دولة، فهو يشكّل عصب القوّة البشرية اللاّزمة للحرب وللإدارة، على أن يراعى العامل الكيفيّ للسكّان، إضافة للعامل الكمّيّ (القوة المنتجة). ومؤشرات العنصر الديموغرافي للدولة هي:

١ـ السكّان: بما في ذلك عدد السكّان، ومعدّل النموّ السكاني والشكل العام لتوزيع السكّان، والكثافة السكّانيّة، وتأثير ذلك على: التنمية الاقتصاديّة والاجتماعيّة؛ الدفاع عن حدود الدولة؛ القوّة العسكريّة المتاحة للدّولة.

٢ ـ المجتمع: بما في ذلك تركيب المجتمع، ومدى وجود أقليّات في تركيبه، وأسلوب تنظيمها ومدى حريّة ممارستها لشعائرها الدينيّة، وأماكن توزيعها، والتكافؤ

---

١ ـ عمق اليابسة، مثل دولتي مصر والسودان، وسوريا ولبنان والأردنّ والعراق...، وما تحقّقه من عمق استراتيجي لكل منها.

الاجتماعيّ من حيث التعليم والصحّة وتأثير ذلك على: التماسك الاجتماعيّ والسياسيّ، أي الوحدة الوطنيّة؛ الإنتاج؛ والقدرة العسكريّة؛ الروح المعنويّة.

ج ـ العنصر السياسيّ: وهو الطريقة التي تنتظم بها الدولة ومواردها، ويحدّد المستقبل السياسيّ كيفيّة وأسلوب اتّخاذ القرار ومتّخذي القرار، ويركّز في هذا العنصر على السياسة الداخلية والسياسة الخارجية والمؤسسات السياسية.

١ـ السياسة الداخليّة: وترتكز على المكوّنات السياسيّة، والديناميكيّة السياسيّة، والتطوّر السياسيّ. أمّا المكوّنات السياسيّة، فهي الأفكار والعقائد والاتّجاهات والقيم التي تسيطر على الحياة السياسية؛ والديناميكيّة السياسيّة هي شخصيّة وأسلوب القيادة السياسيّة ومدى سلطتها في اتخاذ القرار، والقواعد المتّبعة في عمليّة صنع واتخاذ القرار؛ والتطوّر السياسي هو مدى إمكانيّة التطوّر وقدرة الجهاز السياسيّ على التنسيق بين عناصر الدولة.

٢ ـ السياسة الخارجيّة: وترتكز على الجهاز الدبلوماسيّ للدولة وإمكاناته، وأسلوب استخدام الدولة لمصادر قوّتها، والمنظّمات الدوليّة والرأي العام وسياسات الدول الأخرى ذات المصالح الحيويّة في المنطقة، ثم تأثير ذلك على: ١) قدرة الدولة على شرح أهدافها للمجتمع الدوليّ؛ ٢) قدرة الدولة على مدّ النفوذ في دوائر الأنباء؛ ٣) وضع السياسة الخارجيّة للدولة.

٣ ـ المؤسّسات السياسيّة: وترتكز على اتّجاهات وخبرات القيادة السياسيّة، ومدى قدراتها في التأثير على الجماهير، ودراسة التنظيمات السياسية، ودور وسائل الاعلام في شرح أهداف الحكومة، ثمّ تأثير ذلك على مدى قدرة الدولة على حشد الجماهير خلف سياساتها.

د ـ العنصر الاقتصاديّ: هنالك ثلاثة موارد اقتصاديّة تؤثّر على مستوى الأمن القومي هي: ١) الموارد الغذائيّة ومدى توفّرها سواء من مصادر محليّة أو من دول صديقة؛ ٢) الموارد المعدنيّة الطبيّعة؛ ٣) الموارد الصناعيّة، أي القدرة الاقتصاديّة للدولة. والمؤشّرات التي يتمّ من خلالها دراسة العنصر الاقتصاديّ هي: ١) الحالة الاقتصاديّة العامّة؛ ٢) الصناعة؛ ٣) الزراعة؛ ٤) التجارة.

هـ ـ العنصر العسكريّ: هناك عدّة مؤشّرات للعنصر العسكريّ، أهمّها: ١) حجم وتكوين القوّات، ويرتكز ذلك على حجم وتكوين الأفرع الرئيسيّة للقوّات المسلّحة والشرطة والقوّات النظاميّة الأخرى ثم تأثير ذلك على: القدرات القتاليّة؛ قدرة الدولة على السيطرة على العناصر المسلّحة بداخلها. ٢) تنظيم وتسليح القوات: ويرتكز على مصادر التسليح وقطع الغيار، وأسلوب تكامل القطاع العسكري والقطاع المدني، والمستوى العلمي والتكنولوجي ـ ثم تأثير ذلك على: مدى وجود اكتفاء ذاتي من الأسلحة والمعدّات وقطع الغيار؛ مصادر التسليح وشروطه؛ قدرة الدولة على استمرار الحرب لمدّة طويلة؛ القدرة القتالية للقوّات المسلّحة. ٣) المرونة: وترتكز على خطّة تمركز القوّات، وإمكانيّة التحرّك والنقل الاستراتيجيّ لها، ثم تأثير ذلك على: قدرة القوّات المسلّحة على المناورة؛ قدرة القوّات المسلّحة على العمل خارج الحدود؛ مدى توافر القوّات البريّة والقوّات المحمولة جوًّا. ٤) الخبرة القتالية: وترتكز على المعارك السابقة والخبرة المكتسبة منها وذلك للتعرّف على مدى كفاءتها، ولتطوير أسلوب أدائها. ٥) التعبئة: وترتكز على حجم القوّات الاحتياطيّة، والوقت اللازم للتعبئة ومدى قدرة الدولة على التعبئة لمدد طويلة. ٦) الإنتاج الحربيّ: ويرتكز على حجم الإنتاج الحربيّ، ونوعيّاته، ومستوى التكنولوجيا، ومدى توافر الموادّ الأوليّة، والعقود الدوليّة ثم تأثير ذلك على: مدى وجود اكتفاء ذاتيّ من الإنتاج الحربيّ؛ أسلوب استخدام الدولة

لإنتاجها الحربيّ في علاقاتها الدوليّة. ٧) الأحلاف العسكريّة: وترتكز على الأحلاف والاتّفاقات السياسيّة والعسكريّة وأثر ذلك على مدى وجود قيود على استخدام القوّات المسلّحة.

عَوامِل تهديد الأمن القوميّ

تتعدّد عوامل تهديد الأمن القوميّ بين: عوامل التهديد ذات الطبيعة السياسيّة؛ عوامل التهديد ذات الطبيعة العسكريّة؛ عوامل التهديد ذات الطبيعة الاقتصاديّة؛ وعوامل التهديد ذات الطبيعة الاجتماعيّة.

عوامل التهديد ذات الطبيعة السياسية: على المستوى الداخليّ، يعدّ عدم الاستقرار السياسيّ، وكثرة القوى المؤثّرة في الصراع على سلطة صنع القرار، وتعقّدها، واختلاف الإيديولوجيّات السياسيّة، والتخلّف السياسيّ، من أهمّ العوامل التي تهدّد الأمن القوميّ للدولة، والمؤشرات التي يمكن عن طريقها قياس عوامل التهديد السياسي هي: درجة المشاركة في النظام السياسيّ؛ عدم وجود الشعور بالولاء والانتماء السياسيّ للدولة؛ وجود جماعات مصالح قويّة تؤثّر على النظام السياسيّ؛ ضعف نفوذ السلطة التنفيذيّة؛ إهدار كرامة وهيبة القضاء؛ عدم وضوح الأهداف وتعارضها. وعلى المستوى الخارجي، هنالك مؤشّرات لعوامل تهديد خارجيّة ذات طبيعة سياسيّة أهمّها: فصل الدولة أو تجميد عضويّتها في المنظّمات السياسيّة والطوعيّة الدوليّة؛ قطع العلاقات الدبلوماسيّة؛ فرض العقوبات الرادعة على الدولة؛ وجود أحلاف وتكتّلات تتعارض ومصلحة الدولة.

عوامل التهديد ذات الطبيعة العسكرية: ومؤشرات ذلك على المستوى الداخليّ: اشتغال القوّات المسلّحة بالسياسة؛ وجود قوّات شبه عسكريّة غير خاضعة لسيطرة

الدولة؛ عدم كفاية الإنتاج الحربيّ والاعتماد الكامل على مصادر التسليح الخارجيّة؛ وجود قواعد أجنبيّة على أرض الدولة لا تخضع لرقابتها؛ عدم قدرة الدولة على التعبئة السريعة لإمكاناتها العسكرية. أمّا المؤشرات على المستوى الخارجيّ فأبرزها: خطر الهجوم المسلّح؛ حشد القوّات المسلّحة الأجنبيّة على حدود الدولة؛ القيام بمناورات وتدريبات عسكريّة على الحدود في أوقات التوتّر؛ إمتلاك دولة مجاورة لقوّات مسلّحة متفوّقة خصوصًا إذا كانت ذات طابع هجوميّ؛ دخول دولة مجاورة في حلف عسكريّ لا تتّفق أهدافه ومصالحه مع أهداف ومصالح الدولة؛ وجود قواعد عسكريّة لدولة كبرى على أرض دولة مجاورة؛ فرض حظر على الأسلحة والمعدّات وقطع الغيار؛ الدعم اللوجستيّ من دول أخرى لعناصر المقاومة المسلّحة للدولة.

عوامل التهديد ذات الطبيعة الاقتصادية: ومؤشرات ذلك على المستوى الداخلي: التخلّف الإقتصاديّ والتبعيّة الإقتصاديّة؛ الفقر وانخفاض مستوى المعيشة؛ إرتفاع نسبة البطالة؛ عدم توافر الموادّ الأوليّة والطاقة اللاّزمة للصناعة؛ ضعف الانتاج الصناعيّ والزراعيّ والحيوانيّ، وعدم وجود اكتفاء ذاتيّ في الموادّ الغذائيّة والموادّ الاستراتيجيّة وارتفاع معدّلات الاستهلاك؛ ضعف مستوى الخدمات والمرافق والبنية الأساسيّة للدولة؛ إنخفاض مستوى الناتج القوميّ واقترانه بخلل في التوزيع؛ إنخفاض معدّلات الادخار والاستثمار، وعدم وجود رقابة على البنوك والشركات المتعدّدة الجنسية؛ عدم العدالة في توزيع الثروة. أمّا مؤشرات ذلك على المستوى الخارجي فهي: زيادة القروض الخارجيّة للدولة ونسبة الفوائد عليها؛ فرض حصار اقتصاديّ على الدولة؛ المقاطعة الاقتصاديّة للدولة؛ التكتّلات الاقتصاديّة التي تتعارض ومصالح الدولة؛ إيقاف المساعدات الاقتصاديّة الخارجيّة للدولة؛ التدخّل الخارجيّ لفرض أوضاع منافية لمصلحة الدولة.

عوامل التهديد ذات الطبيعة الاجتماعية: ومؤشرات ذلك على المستوى الداخلي: وجود طوائف متعدّدة ومتصارعة في الدولة؛ إثارة النعرات الطائفيّة والقبليّة والدينيّة والانفصاليّة؛ وجود خلل في التركيب الاجتماعيّ؛ إنخفاض مستوى التعليم والصحّة وباقي الخدمات الأساسيّة؛ إنخفاض مستوى الإدارة والانضباط؛ وجود خلل بين المستويات المعيشيّة للسكّان وفي النمو الاقتصاديّ؛ أمّا أبرز المؤشّرات على المستوى الخارجي فهي: إستيراد إيديولوجيّات لا تتّفق وقيم ومبادئ المجتمع؛ إستخدام الحرب النفسيّة والإذاعات المضادّة؛ التخريب.

ويخلص باحثون إلى اعتبار أنّه بصفة عامّة، تقاس القدرة الاجتماعيّة للدولة أو الدول من خلال: القدرة على إشباع الحاجات الأساسيّة للمواطن ومدى هذا الإشباع؛ القدرة على تحقيق العدالة الاجتماعيّة أو تقليل التفاوت الاجتماعي؛ مدى تلبية النظام الاجتماعيّ لحقوق الإنسان؛ القدرة على تحقيق الانضباط السلوكيّ الحكوميّ والشعبيّ؛ درجة الترابط والتفكّك والتوتّر الاجتماعيّ؛ درجة تشجيع الإبداع والابتكار في كافّة المجالات؛ درجة ومظاهر الإنتماء والتضامن الإجتماعيّ؛ درجة الإتّساق والترابط بين قطاعات النشاط المختلفة؛ مدى وجود جماعات مرتبطة بمصالح أجنبيّة غير وطنيّة ومدى قوّتها ونفوذها.

خصائص مفهوم الأمن القوميّ

بشكل عامّ، هناك عدّة خصائص تميّز مفهوم الأمن القوميّ، يمكن تلخيصها كالتالي:

الأمن القوميّ هو خلاصة التفاعل بين عوامل داخليّة وخارجيّة إقليميّة ودوليّة. وللأمن القوميّ جانبان: جانب موضوعيّ يمكن تحديد مكوّناته وعناصره والتعبير عنه

كميًّا؛ وجانب معنويّ يتعلق بالروح المعنويّة ومدى ارتباط الشعب بالنظام السياسيّ الحاكم.

والأمن القوميّ ظاهرة ديناميكيّة حركيّة، فهو تطوّر يتمّ بالحركة والتغيير وليس مرحلة تصلها الدولة وتستقرّ عندها.

والأمن القوميّ حقيقة نسبيّة وليست مطلقة. وفي تاريخ الأمم ما من دولة تمكّنت من السيطرة على مقدّرات العالم وأحكمت قبضتها عليه ثمّ حقّقت لنفسها الأمن المطلق. فالأمن المطلق لدولة ما هو التهديد المطلق لدول أخرى.

لائحة المراجع

أبكاريوس يوحنّا، قطف الزهور في تاريخ الدهور، المطبعة الأدبيّة (بيروت،١٩١٢)

أبـو الطيّـب (العقيـد)، الاسـتخبارات الصـهيونيّـة: العـدوّ الأوّل، مكتبـة مدبولـي (القاهرة،١٩٩٣)

الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٨٨)

الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧)

الجزائري سعيد، تاريخ التجسّس في العالم، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧)

الجزائري سعيد، ملفّ التسعينات عن أعمال المخابرات، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧)

حتّي د. فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢ج، دار الثقافة بيروت، بالإشتراك مع مؤسّسـة فرنكليـن المسـاهمة للطباعـة والنشـر (بـيروت ـ القـاهرة ـ بغـداد ـ نيويورك،١٩٥٨)

رافيف دان، وميلمان يوسي، كـلّ جاسـوس أمـير، تعريـب ممـدوح لطفـي، دار الكتـاب العربي (دمشق،١٩٩١)

رصاص د. محمود سيّد، الاستخبارات الأميركيّة المركزيّة غـول وعنقـاء وخـلّ، مـاذا فعلت؟، دار المعرفة (دمشق، ١٩٨٨)

زهر الدين د. صالح، موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم، المركز الثقافي اللبنـاني (بيروت،٢٠٠٣)

صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣)

طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، إغتيالات وأكاذيب وارتزاق، ترجمة د. محمّد معتوق، دار بيسان (بيروت،٢٠٠٠)

الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣)

فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ، ترجمة مصطفى الرز، مكتبة مدبولي (القاهرة،١٩٩٩)

كان دايفيد، حرب الاستخبارات، ترجمة عبد اللطيف أفيوني، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، ط٢ (بيروت،١٩٨٢)

الكتاب المقدس، العهد القديم، دار المشرق (بيروت،١٩٩١)

المنجد في اللغة والأعلام، ط٢٢، دار المشرق (بيروت،١٩٧٥)

المنهل، قاموس عربي فرنسي، دار العلم للملايين (بيروت،١٩٧٠)

الموسوعة العربيّة الميسّرة، ط٣، دار الجيل والجمعيّة المصريّة لنشر المعرفة والثقافة العالميّة (بيروت،٢٠٠١)

وود جان، جواسيس للبيع، ترجمة لطيف الناصر، دار الحسام (بيروت،١٩٩٠)

Chierra Edward, *Sumerian Religions Texts* (Upland,1924)

Larousse, Dictionnaire Encyclopédique, 14ème Tirage, Librairie Larousse (Paris,1963)

Pritchard James B., *Ancient Near Eastern Texts* (Princton,1950)

Andrew Christopher & Gordievsky Oleg, *Le KGB dans le Monde 1917-1990.*

Thureau J Dangin F., Die *Sumerischen und Akkadischen konigsinschriften* (Leipsig,1907)

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدّمة	٥
الفصل الأوّل: في التسميَات والتَعريف	٧
في التسميات	٩
في التَعريف بأصل الجاسوسيَّة	١٥
النَظرة الإجتمَاعيَّة إلَى الجَواسيس والمُخبرِين	١٨
المُخَابَرات: عُنصرٌ وقَائيٌ	٢٤
الفصلُ الثَّاني: الجاسُوسيَّة قديمًا	٢٧
أقدَمُ الجَواسيس	٢٩
في أرض الهِلالِ الخَصيب	٣١
أخبارُ الجاسوسيَّة في التَّوراة	٣٦
في مصرَ القَديمة	٣٨
عندَ اليُونان والرُّومان	٤٠
"العُيونُ" عندَ العرَب	٤٢

الموضوع	الصفحة

الأمنُ ودَولة المَدينة في عَهدِ الرَّسول ﷺ	٥٨
جواسيسُ المَغُول	٦٤
الجَاسوُسيَّة في الغَربِ القَديم	٦٦
الجاسوسيّة القَديمَة والرّموز	٦٩
الفصل الثَّالث: الأجهزَة والعنَاصر	٧٥
الإستخبَاراتُ عالَم قَائم في ذَاته	٧٧
الجَاسوسيَّةُ والمخَابَرات	٨١
جهَازُ المخَابَرات	٨٤
المخابرات المضادة	٨٧
الإستخبَارَات المعَاكسَةُ الهجوميَّة	٨٩
المُخَابَرات العسكريَّة	٩١
موَاصَفاتُ العَميل أو رجُل الأمن وواجبَاته	٩٤
كيفيّة التعَامل مع العميل	١٠٩
أنوَاعُ العُمَلاء	١١٣
أسَاليبُ التأهيل والتّدريب	١٢١
مَصادرُ المَعلومَات	١٢٣

الموضوع	الصفحه
تَصارُع أجهزَة المخَابَرات	١٢٥
تَعَاوُنُ أجهزَة المخَابَرات في مَا بينَها	١٢٩
الوكَالات	١٣٢
مصَادِرُ الاستِخبَارَات الهُجوميَّة	١٣٣
مصَادِرُ الاستِخبَارَات المُعَاكِسَة	١٣٥
الفصل الرابع: المعدَّات والوَسائلُ	١٣٩
التطورُ الثَّوريُّ لوسائل الجاسوسيَّة	١٤١
أهمُّ أسلحَة الجَواسيس	١٤٥
الكِتَابَةُ السرِّيَّة	١٧٢
طرق الاستجواب الحديثة	[illegible]
المخَابَراتُ وتجَارَة الأسلحَة	١٨٤
الفصلُ الخَامِس: العَمليّاتُ والمهامّ	٢٠١
جَمعُ المَعلُومَات في زَمن السِّلم	٢٠٣
الحَربُ النَّفسيَّة	٢٠٥
العمليَّات شبه العسكريَّة	٢١١
الطَّابور الخَامس	٢١٣

الموضوع	الصفحة
الفصلُ السَّادس: جدليَّةُ المخَابَرات والسِّياسَة	٢١٥
المخَابَراتُ والسِّياسَة	٢١٧
تخطِّي الحُدود	٢٣٦
الأمنُ القوميُّ ومهدِّداته	٢٣٩
لائحة المراجع	٢٥١

Bibliotheca Alexandrina
0586440